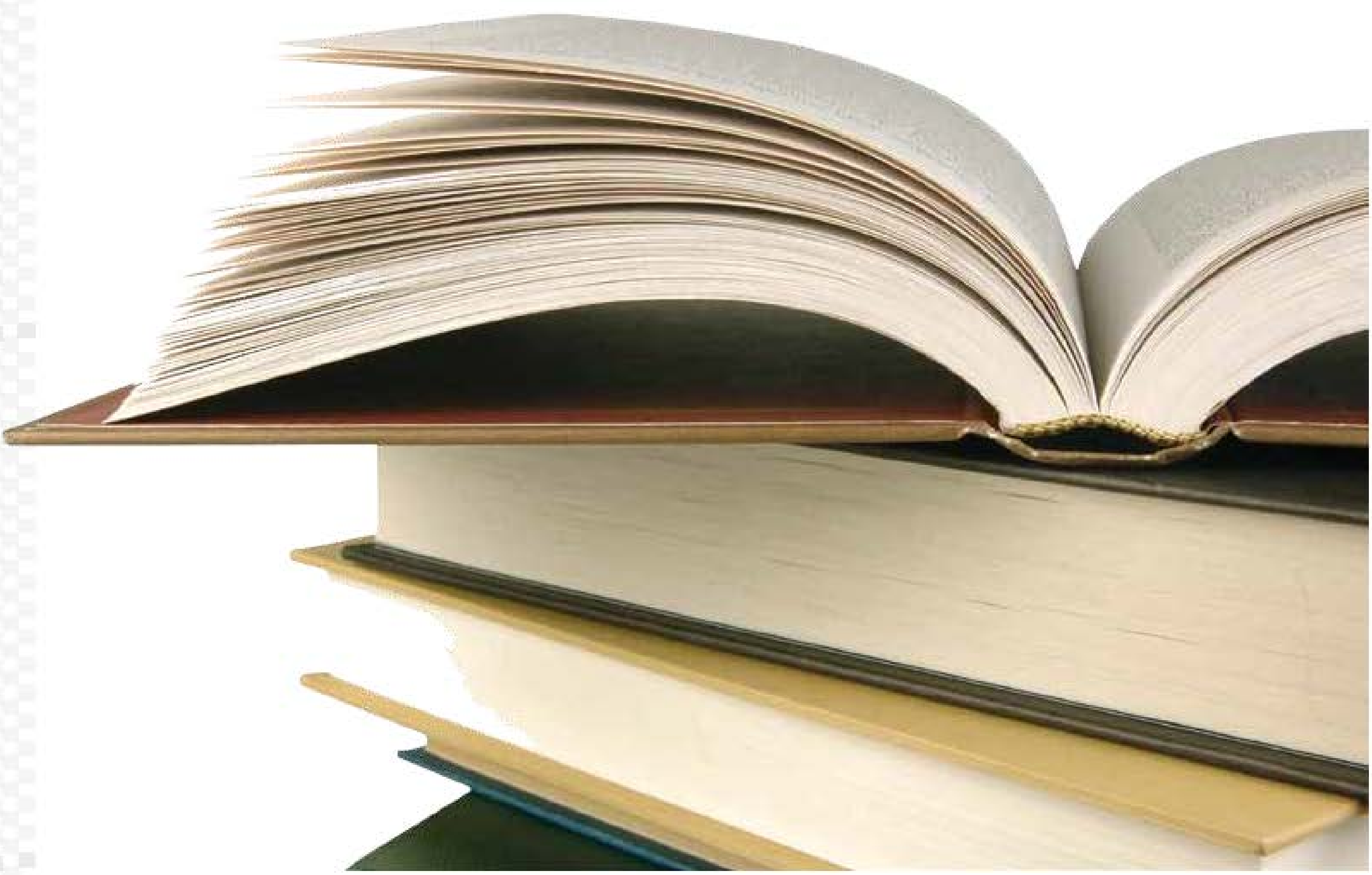


الترجمة وإثراء المعرفة

يقول بوشكين شاعر روسيا الكبير: «المترجمون هم خيول بريد التنوير».



تاريخ الترجمة في الثقافة العربية

تعود أولى أصول حركة الترجمة في العالم العربي إلى القرن التاسع ميلادي ، وبالتحديد مع ،العصر الذهبي، لبغداد ، في عهد الخليفة المأمون ، الذي بنى أكبر معهد للترجمة في ذلك العصر ، سماه ،بيت الحكمة، كان ذلك أول اشتباك ثقافي بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى.

ومن بين أهم الأسباب الرئيسة التي أدت إلى تفعيل حركة الترجمة في عاصمة الخلافة العباسية بغداد ، كان سببًا خارجيًا غير مباشر ، وآخر داخلي مباشر. فالأول كان نتيجة إلى وجود المدارس القديمة التي تمثل عصر ازدهار الثقافة اليونانية من جهة ودور السريان الذين يمثلون حلقة الوصل بين العرب وبين لغة اليونان من جهة أخرى، حيث كانت اللغة اليونانية شائعة التداول في مدارس السريان، وعندما فتح العرب المسلمون بلاد العراق والشام ومصر ، واحتكاكهم بثقافات تلك المدارس المسيحية ، طلبوا من السريان أن ينقلوا التراث العلمي والفكري اليوناني إلى اللغة العربية.

ارتكزت حركة الترجمة في تلك الحقبة ، على نقل الفلسفة اليونانية والعلوم الهندية والأدب الفارسي إلى اللغة العربية ، من خلال السريانيين والذين يتقنون لغات الإغريق والفرس من غير العرب المتواجدين داخل كنف الدولة العباسية.

وقد بدأت حركة الترجمة بشكلها العلمي إلا في العصر الأموي، حيث بدأت فيه نقل بعض العلوم إلى العربية. وكان خالد بن يزيد بن معاوية (85 هـ/704م) المُلقب بحكيم آل مروان ، عندما أُبعد عن الخلافة ، اتجه صوب العلم واهتم بالكيمياء لرغبته الشديدة في تحويل المعادن إلى ذهب، وهكذا أمر بعض علماء اليونان الذين كانوا في الإسكندرية أن ينقلوا له من اليونانية إلى العربية كُتب الكيمياء ، كما وأمرهم بترجمة 'الأرغانون' وهي مجموعة كُتب أرسطو في المنطق.

ويقول ابن النديم البغدادي (380 هـ/900 م) عن خالد بن يزيد: 'وكان فاضلًا في نفسه ، وله همة ومحبة للعلوم ، خطر بباله الصنعة (الكيمياء) فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ، وقد تفصّح بالعربية ، أمرهم بنقل الكُتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة'.

ومن بين الذين ترجموا إلى خالد بن يزيد هما: أصطفن القديم ، والراهب مريانوس، وبرغم إنه قد تم ترجمة كُتب في الفلك والطب أيضًا ، لكن هذه التراجم لم يكن لها شكلًا رسميًا إلا في العصر العباسي (132-656 هـ/750-1258 م)، حيث اهتمت بها الدولة اهتمامًا قويًا ، كما في الجانب الفردي والجماعي، حتى بلغت الترجمة عصرها الذهبي في عهد المأمون (198-218 هـ/813-833 م) الذي كان يرسل البعثات العلمية لجلب العلوم من مواردها الأصلية في أمهات الكُتب.

وهكذا أصبح 'بيت الحكمة' أول جامعة في بغداد ، وأعظم مكتبة في العالم الإسلامي ترعاها الدولة، حيث يجتمع فيها العلماء والفلاسفة للدرس والمناظرة ، ويؤمها الطلاب والباحثون من مختلف الأوطان والأمصار الإسلامية، بل هي أول نبراس ينتقل فيه الفكر والعلم من الاستماع إلى الاجتهاد ، ومن الترجمة إلى التأليف، وبذلك انطلق الفكر في العالم الإسلامي ليصل فيما بعد إلى أعلى درجات الازدهار العقلي.

وكان لبيت الحكمة دور محوري في الإشعاع الحضاري لبغداد خلال ذلك العصر ، والذي امتد ليصل الأندلس ، فبرزت مجموعة من المدارس والاتجاهات الفكرية في الثقافة الإسلامية المتأثرة بالثقافة اليونانية ، كالمعتزلة والصوفية ، مثلما ظهر ثلة من الفلاسفة والمفكرين ،



> يساهم العامل الاقتصادي في تعطيل عجلة الترجمة العربية، إذ يتسبب نقص التمويل في إجهاض العديد من مشاريع الترجمة، مما يقلل الإنتاج المترجم باللغة العربية. ويرجع ذلك إلى عدم ثقة الدولة والنخب المالية في الاستثمار بمراكز الترجمة، كمشاريع منتجة

الذين ساهموا في تنوير الثقافة العربية في عصرهم من خلال ترجماتهم ، بدءًا من الجاحظ وابن المقفع والكندي مرورًا إلى الفارابي والرازي وانتهاء بابن رشد وابن سينا. كان لهؤلاء الفضل في حفظ الإرث اليوناني من الاندثار ، قبل أن ينتقل إلى أوروبا مع عصر الأنوار.

غير أن هذا الإشعاع الحضاري لم يستمر طويلًا ، فما لبثت أن سقطت بغداد على يد المغول عام 1252 ، لتنتهي حقبة العصر الذهبي لحركة الترجمة العربية.

وطوال تسعة قرون لم يحدث أي اتصال بين العرب والغرب حتى القرن الثامن عشر الميلادي ، مع قدوم حملة نابليون بونابارت العسكرية إلى مصر، وعلى الرغم من إنها لم تستمر سوى ثلاث سنوات ، إلا أن العرب فطنوا آنذاك لحجم الهوة بينهم وبين الغرب فكريًا وعسكريًا ، فبادر الحكام المحليون إلى البحث عن المعرفة في أوروبا ، فأنشأ محمد علي ، حاكم مصر في القرن التاسع عشر 'مدرسة الترجمة' إلا أن المعارف المترجمة كانت حينها منحصرة عند النخبة من أبناء عائلات المال والجاه والحكم.

لكن مع موجة الاستعمار الأوروبي للبلدان العربية في القرن العشرين ، وجلبهم المطبعة والصحف للمنطقة ، نهضت حركة الترجمة من جديد ، وتم ترجمة مجموعة من روائع الفكر الأوروبي ، من أعمال لافونتين ، كورناي ، فيكتور هوغو ، لامارتين ، موسيه ، فيني ، بودلير ، شكسبير ، ميلتون ، كيتس ، بتلر ، شيلي وكيبلينغ ، على سبيل المثال.

واقع الترجمات العربية اليوم

بعد الحرب العالمية الثانية ، استمرت حركة الترجمة العربية ، مستفيدة من وسائل الاتصال والنظام الدولي الجديد ، وشهدت تحسنًا تصاعديًا بالمقارنة بما كانت عليه من قبل ، غير أنها تبقى ضعيفة للغاية بالنظر إلى سياق هذا العصر.

في دراسة صادمة أنجزتها اليونسكو حول الحصيلة الكلية للترجمة العربية ، تفيد بأن ما ترجم إلى اللغة العربية ، منذ عصر المأمون سنة 813 إلى اليوم ، لم يتجاوز العشرة آلاف كتاب ، وهو عدد يساوي ما تترجمه إسبانيا في سنة واحدة فقط، وما تترجمه الدول العربية مجتمعة في السنة الواحدة لا يعادل خمس ما تترجمه اليونان وحدها في العام.

ويبلغ متوسط ما يترجمه العالم العربي على مدى خمس سنوات هو 4,4 كتاب مترجم لكل مليون مواطن عربي ، بينما متوسط الترجمة في هنغاريا يصل إلى 519 كتاب مترجم لكل مليون مواطن هنغاري في نفس المدة.

تؤكد هذه الوضعية التي تعيشها الترجمة العربية دراسة إحصائية أخرى أعدها فريق من الباحثين ، بتكليف من ،اتحاد المترجمين العرب، ، حول الكتب المترجمة في دور النشر ومراكز الترجمة العاملة في بيروت ، خلال الفترة ما بين 2000 و2009 ، والتي توصلت إلى أن مجموع الكتب المترجمة إلى اللغة العربية لم يتعد الثلاثة آلاف طوال عشر سنوات ، في حين تترجم إسبانيا عشرة آلاف كتاب في السنة الواحدة ، وهو العدد المترجم للعربية منذ بداية تاريخها.

وبطريقة أخرى ، إذا ما أردنا معرفة حجم الخصاص الهائل الذي تعاني منه الخزانة العربية ، فإن مجمل الكتب العربية المترجمة خلال عشر سنوات لا يعادل نسبة 1٪ من الكتب الصادرة سنويًا في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ، وللقارئ أن يتصور حجم المعارف والكتب الغائبة عن إدراك القارئ العربي.

أسباب تخلف وضعف حركة الترجمة العربية

لا يمكن فصل التأخر الكبير لحركة الترجمة العربية عن السياق العام ، الذي يعيشه العالم العربي ، وما يشهده من تخلف على جميع الأصعدة.

ولعل أبرز الأسباب المسؤولة عن تخلف نشاط الترجمة في العالم العربي ، كما يراها العديد من الباحثين ، هو افتقاد لمشروع تنموي واضح وشامل ، يتناول الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ومن ثم غياب الإرادة السياسية لدى الدول العربية في تنمية وعي شعوبها ، والارتقاء بهم إلى الوعي الإنساني الذي راكمته البشرية.

يساهم العامل الاقتصادي أيضًا في تعطيل عجلة الترجمة العربية ، إذ يتسبب نقص التمويل في إجهاض



العديد من مشاريع الترجمة ، مما يقلل الإنتاج المترجم باللغة العربية، ويرجع ذلك إلى عدم ثقة الدولة والنخب المالية في الاستثمار بمراكز الترجمة ، كمشاريع منتجة.

وبما أن عملية الترجمة هي جزء من الإنتاج الثقافي ، فبالتأكيد ، يتعلق الأمر كذلك بضعف الوعي الثقافي لدى البلدان العربية ، وما يعني من ضعف في ثقافة القراءة ورداء في أنظمة التعليم ، وتشوهات نفسية وفكرية ناتجة عن التربية ، الشيء الذي يقود في النهاية إلى تشكيل بيئة كارهة للفكر الجديد ، وغير مشجعة على الإبداع والإنتاج والاستهلاك الثقافي.

وتعود أسباب الضعف في الترجمة إلى أسباب عدة ، من أهمها ارتباطها بواقع الأمة المتخلفة على المستوى الثقافي والحضاري ، الذي وصفه عضو جمعية الترجمة باتحاد الكتاب العرب ، الأستاذ جمال دورمش بأنه مؤلم جداً ويتسم بالفوضى والعشوائية ، بالإضافة إلى نقص الحريات وتغليب المصالح الربحية والتجارية على البعد الثقافي ، عدا عن طبيعة الشعوب العربية البعيدة عن ثقافة القراءة ، وإهمالها بشكل عام، علاوة على ذلك تعاني اللغة العربية ذاتها من ضعف لسان الناطقين بها ، فأصبحوا غير قادرين على مواكبة العلوم والتخصصات ، لأن الترجمة تحتاج إلماماً كبيراً بالعلوم المتخصصة الأخرى ، وثقافة ومعرفة كبيرة في اللغتين من أجل حسن الصياغة ومتابعة كل جديد ، مما ينعكس على جودة الترجمة واحترافها.

على سبيل المثال ، جل الكتب المترجمة للغة العربية لا تدخل في باب العلوم ، وإنما يحظى الأدب بالقسط الأوفر ، نظراً للهاجس التجاري الذي يقض مضجع دور النشر.

كما أن حوالي 90% من الكتب المترجمة تقتصر على نقل ما كتب بالإنجليزية والفرنسية ، في إغفال تام للغات الأخرى ، ولا سيما منها اللغات الحية مثل الإسبانية والألمانية واليابانية ، مما يحرم القارئ العربي من التعرف على أفكار وعلوم من إنتاج دول غير ناطقة بالإنجليزية أو الفرنسية.

من جهة أخرى ، لم تصل حركة الترجمة العربية إلى مستوى الاحترافية بعد ، إذ غالباً ما تكون نتاج مجهودات فردية ، وقليلة هي المؤسسات العربية المتخصصة في الترجمة ، مما يؤدي في كثير من الأحيان إلى ظهور ترجمات بينها وبين النص الأصلي هوة شاسعة ، وأخرى يتوغل فيها البعد الأيديولوجي بشكل ظاهر ، وذلك لعدم نضج أعراف تقليدية وقواعد ثابتة تنظم حقل الترجمة في العالم العربي.

بالإضافة إلى ذلك ، لا تنفتح الترجمة العربية بما فيه الكفاية على اتجاهات الفكر الغربي المتنوعة ، مثلما تتفادى معالجة نوعية بعينها من الإنتاجات ، المرتبطة بالدين والسياسة ، نظراً لنقص الحريات بالعالم العربي، وطالما تتدخل الدولة في اختيار نوعية الكتب المترجمة الممكن نشرها ، فإن هناك الكثير من المعارف والأفكار ستبقى غائبة عن وعي الجمهور العربي.

من جانب آخر أيضاً ، لا توجد هناك ترجمات عكسية ، أي ما يترجم من اللغة العربية إلى اللغات الأخرى ، إذ تبقى الكتب المترجمة من اللغة العربية إلى اللغات الأخرى ضئيلة.

وبالرغم من الكمية المحدودة من الكتب المترجمة إلى اللغة العربية ، فإنها لا تجد لها جمهوراً واسعاً من القراء ، باعتبار أن هناك شبه غياب لثقافة القراءة بالعالم العربي ، ناهيك عن أن نصف مواطنيه أميون ، مما ينعكس في النهاية على الإنتاج الثقافي بصفة عامة ، والترجمة العربية بشكل خاص.

وقد نشر موقع الجزيرة عما ورد في بيان مؤتمر الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب أن العرب — الذين يتجاوز عددهم 270 مليون نسمة — لا يترجمون سنوياً سوى 475 كتاباً ، في حين أن إسبانيا تترجم 10 آلاف عنوان سنوياً وعدد سكانها 38 مليوناً ، وكذلك إسرائيل التي تترجم حوالي 15000 كتاباً سنوياً.

ونقل عن تقرير التنمية الإنسانية العربية أن متوسط عدد الكتب المترجمة في العالم العربي هو 4.4 كتاباً لكل مليون مواطن سنوياً ، في حين يحظى كل مليون مواطن في المجر بنحو 519 كتاباً سنوياً.

وفي الوقت الذي يسعى فيه الغرب إلى توسيع رقعة الترجمة في كافة المجالات ، يركز العرب في أحيان كثيرة في عملية الترجمة على الأدب ، ويهملون الفلسفة والعلم بآفاقه الواسعة.

وتشير البيانات إلى أن كل ما يستخدمه العرب من ورق سنوياً لا يكاد يساوي ما تستخدمه دار نشر فرنسية أو روسية واحدة، كما أن الغرب يسعى على توسيع رقعة الترجمة في كافة المجالات ، بينما يركز العرب أحياناً كثيرة في عملية الترجمة على الأدب وإهمال الفلسفة والعلم بآفاقه الواسعة ، إضافة إلى الفوضى العارمة في مشروعات الترجمة العربية، تدل هذه الأرقام على الفارق الحضاري الكبير بين العرب والغرب ضمن صراع الوجود في عالمنا المعاصر، فالترجمة جزء من منظومة حضارية وثقافية ضخمة.

الحاجة إلى ترجمة البحوث العلمية

ازدادت في العقود الأخيرة الحاجة إلى ترجمة ونقل الكتب والبحوث والدراسات الأكاديمية من اللغة الإنجليزية واللغات الأوروبية الأخرى إلى اللغة العربية. كما ازداد الطلب كثيراً في السنوات الأخيرة على الترجمة في العالم العربي ، وخصوصاً في المجالات النشطة مثل العلاقات الدولية والاقتصاد والعلوم والتقنية.

لذلك تم التأكيد على أهمية الترجمة في نقل التكنولوجيا الغربية والتقدم العلمي إلى العالم العربي ، حيث أثبتت الدراسات الحديثة بوضوح أن ثاني أكبر دافع لتعلم لغة أجنبية هو الترجمة. يشعر المفكرون العرب أن هناك نقصاً حاداً في الترجمة من وإلى العربية في جميع المجالات ، ويشعرون بحاجة أكبر لترجمة الأدب العربي للإنجليزية واللغات الأخرى.



حركة الترجمة في العصر الحديث

إن الدور الذي لعبته الترجمة في إثراء الحياة الثقافيـة والاجتماعية والعلمية والثقافية لـدى الأمم المختلفة هو أمر لا يمكـن إنـكاره أو تجاهله. فقد لعبت الترجمـة دورا حضاريًا وثقافيًـا وعلميًا بـدأ منذ بزوغ فجر التاريخ البشـري، ولا تـزال تقـوم بدورهـا حتى وقتنـا هذا وستسـتمر فـي أدائه ما بقي للبشـر حيـاة علـى وجـه الأرض. وإن المتتبـع لتطـور الحضـارات الإنسـانية وتنامـي التقـدم العلمـي الإنسـاني يجـد أن الترجمـة ظاهـرة تسـبق كل إنجـاز حضـاري لأي أمـة، ثـم تسـتمر مواكبة للنمو الحضاري لهذه الأمة.



1970 – 1980:
عدد الكتب المترجمة بلغ (2840) كتابًا، منها 62٪ تُرجمت في مصر، و17٪ في سورية، و 9٪ في العراق، و5.4٪ في لبنان. كما تبين من هذا الإحصاء أن نسبة كتب العلوم الأساسية والتطبيقية المترجمة لا تزيد على 14٪، بينما بلغت نسبة ما ترجم من كتب الآداب والقصة والفلسفة والعلوم الاجتماعية ما يزيد على 70٪.

إن الدور الذي لعبته الترجمة في إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية والعلمية والثقافية لدى الأمم المختلفة هو أمر لا يمكن إنكاره أو تجاهله، فقد لعبت الترجمة دورًا حضاريًا وثقافيًا وعلميًا بدأ منذ بزوغ فجر التاريخ البشري، ولا تزال تقوم بدورها حتى وقتنا هذا وستستمر في أدائه ما بقي للبشر حياة على وجه الأرض. وإن المتتبع لتطور الحضارات الإنسانية وتنامي التقدم العلمي الإنساني يجد أن الترجمة ظاهرة تسبق كل إنجاز حضاري لأي أمة، ثم تستمر مواكبةً للنمو الحضاري لهذه الأمة. إن البلدان الناهضة الساعية والجادة للالتحاق بركب التقدم تهتم بنقل أسرار التكنولوجيا والصناعات والعلوم المختلفة إلى لغتها، وذلك حتى تصبح متاحة لأبنائها بلغتهم التي درجوا على استخدامها، ليتنقلوا بعد ذلك إلى مرحلة التفكير والتطوير وإحراز التقدم والسبق. وقد وضع العالم المعاصر الدول النامية أمام تحد بالغ، وخيار بين الحياة من خلال مواكبة التطور العلمي المتواصل، أو الموت بين الركام، ووحدها الترجمة هي القادرة على بناء الجسور التي يمكن من خلالها عبور الإنجازات البشرية.

وللترجمة دور في التغلب على التحديات التي تواجهها حركة البحث العلمي في وطننا العربي، وتطرح آليات يمكن من خلالها سد الفجوة المعرفية التي نعاني منها وتوفر رافدًا يمكن من خلاله إثراء هذه الحركة، حيث إن البحث العلمي هو الوسيلة التي يمكن من خلالها التوصل إلى حل للمشكلات واكتشاف حقائق جديدة واستنباط القوانين والنظريات.

كان لحركة الترجمة في العصر الحديث أثر لا ينكر في رفع المستوى العلمي والثقافي للجيل الحاضر، ولكن هنالك تفاوتًا كبيرًا بدرجة اهتمام الأقطار العربية بهذه الحركة، كما أن هذه الحركة في أقطارنا بصورة عامة أقل مما عليه في بلدان العالم المتقدم، لقد قامت المنظمة العربية للتربية والثقافة بإحصاء ما تُرجم من المؤلفات الأجنبية في المدة الممتدة بين عامي 1970 و1980 فتبين لها أن مجموع عدد الكتب المترجمة بلغ (2840) كتابًا، منها 62٪ تُرجمت في مصر، و17٪ في سورية، و 9٪ في العراق، و5.4٪ في لبنان، كما تبين من هذا الإحصاء أن نسبة كتب العلوم الأساسية والتطبيقية المترجمة لا تزيد على 14٪، بينما بلغت نسبة ما ترجم من كتب الآداب والقصة والفلسفة والعلوم الاجتماعية ما يزيد على 70٪، ومما لاشك أن انخفاض نسبة الكتب العلمية المترجمة يعود إلى أن جميع الأقطار العربية، باستثناء سوريا، لم تقم بتعريب التعليم الجامعي.

إن حركة الترجمة لم تبلغ النضج والاكتمال من ناحية سلامة اللغة، ومطابقة الكتاب المترجم للأصل من ناحية أداء المعنى بدقة، ولكن لما أنشئت مؤسسات حكومية تشرف على انتقاء الكتب الأجنبية لترجمتها، وتم اختيار أشخاص كفاة للنهوض بها، وأُعيد النظر فيما يترجم لإصلاحه، بدأت تظهر كتب مترجمة إلى اللغة العربية بصورة جيدة.

وتتلخص أهداف الترجمة في الوطن العربي في التأكيد على وحدة اللغة العربية، وقدرتها على التعبير عن حاجات العصر، وإدخال هذه اللغة في قائمة اللغات العالمية المعتمدة دوليًا.

مشاريع الترجمة في العصر الحديث

بدأ إحياء عملية الترجمة في العالم العربي مع نشأة الدولة الحديثة في مصر على يد محمد علي باشا (1805-1848م)، وجاء ذلك في إطار سياسته الهادفة إلى النهوض بالتعليم، التي شملت إرسال البعثات العلمية إلى دول أوروبا كإيطاليا وفرنسا، وإنشاء المدارس العليا، وجاء الاهتمام بالترجمة كوسيلة لنقل المعارف الأوروبية الحديثة إلى مصر، وفي عام 1835، أمر محمد علي بإنشاء مدرسة الترجمة، والتي عرفت فيما بعد بمدرسة الألسن كمدرسة عليا متخصصة في تدريس اللغات الأوروبية، وقام بإدارة المدرسة رفاعة الطهطاوي الذي اختار لها 80 طالبًا، وتم الاهتمام بتدريس اللغتين العربية والفرنسية، ثم التركية والإنجليزية، ونجحت المدرسة في تخريج كادر متميز من المترجمين المتخصصين، وبلغ عدد الكتب المترجمة على يد خريجي المدرسة 2000 كتاب في مختلف المعارف.

وقد اتجه محمد علي إلى شراء الكتب العلمية التي يوصي بها مبتعثوه وموظفوه ليتم ترجمتها، وكانت هناك هيئة من المحررين من علماء الأزهر تقوم بمراجعة وضبط مصطلحات ما تم ترجمته، وكان أول الكتب المترجمة في الطب كتاب 'القول الصحيح في

المركز القومي للترجمة
National Center For Translation

كلمة
KALIMA

المنظمة العربية للترجمة
ARAB ORGANIZATION FOR TRANSLATION

علم التشريح'. وأنشأ محمد علي 'المطبعة الأميرية' ببولاق 1822 وعددًا من المطابع الأخرى لطباعة الكتب المترجمة وتوزيعها على الموظفين، والطلاب، وأفراد الجيش، ومن تيسر له الحصول عليها من العامة.

وقد أصاب عملية الترجمة في عهد خلفاء محمد علي ما أصاب حركة التعليم ومؤسسات الدولة الناشئة من تدهور، فانحسرت نسبيًا، وإن شهدت بعض التحسن مع عودة رفاعة الطهطاوي لإدارة مدرسة الألسن في عهد سعيد باشا 1854م، ثم شهدت حركة الترجمة نهضة ثانية مع إصلاحات الخديوي إسماعيل في مجال التعليم، والتي شارك فيها الطهطاوي وعلي مبارك؛ حيث نشطت الترجمة مع عودة البعثات إلى المدارس الأوروبية، وقد لعب الشوام دورًا بارزًا في حركة الترجمة في نهاية القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى دورهم في الصحافة.

ومن بعض التجارب الرائدة مكتبة خليل صايغ في لبنان التي أصدرت أكثر من 35 معجمًا اختصاصيًا، في كافة المجالات العلمية، وبصورة عامة اتجهت محاولات الترجمة في هذه المدة - خاصة مع بداية احتلال بريطانيا لمصر - نحو ترجمة الأعمال الغربية التي تمس قضايا الإصلاح والنهوض والعلاقة بين الإسلام والغرب.

ومن أهم تجارب الترجمة المنظمة في العالم العربي حديثًا:

1 - لجنة التأليف والترجمة والنشر

تعد لجنة التأليف والترجمة والنشر التي نشأت بمصر في بداية القرن العشرين مثالاً جيدًا للعمل الجاد والمثمر بين المثقفين، وتكونت اللجنة من خريجي مدرسة المعلمين العليا ومدرسة الحقوق عام 1914م، وقد زاد أعضاء هذه اللجنة لتضم غيرهم من فئات أخرى، ووضعت لائحتها القانونية 1915م ورأسها أحمد أمين منذ ذلك التاريخ حتى وفاته عام 1954. وهدفت اللجنة إلى الارتقاء بالتعليم من خلال تأليف الكتب العلمية لطلاب المدارس، والارتقاء بالمجتمع وتثقيفه من خلال التوسع المنظم في تأليف وترجمة الكتب في مختلف المجالات. وبالنسبة للترجمة قامت اللجنة بترجمة العديد من الكتب الموسوعية الغربية مثل تاريخ الفلسفة الغربية لـ'برتراند راسل'، وقصة الحضارة لـ'ول ديورانت'، ومجموعة من أمهات الكتب العلمية والأدبية والتربوية. وقد ساهم عمل اللجنة في إفراز جيل متمكن من المترجمين العرب، ووضع قواعد لتعريب المصطلحات العلمية المترجمة أو تقريبها من العربية، وهي عوامل ساهمت في دفع عملية الترجمة في العالم العربي.

2 - مشروع الألف كتاب الأول والثاني:

ظهرت الإصدارات الأولى لهذا المشروع عام 1955م، بإشراف من الإدارة الثقافية التابعة لوزارة التعليم المصرية. وقد اهتم بأمهات الكتب العالمية والكلاسيكيات، كما شمل العلوم البحتة، والعلوم التطبيقية والمعارف العامة والفلسفة وعلم النفس والديانات والعلوم الاجتماعية، واللغات والفنون الجميلة، والأدب بفروعه، والتاريخ والجغرافيا والتراجم. وتوقف العمل به عام 1969. وتم استئنافه تحت عنوان 'مشروع الألف كتاب الثاني' عام 1986 عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، وقد اهتم بترجمة الكتب الحديثة كمحاولة للاتصال بالثورة العلمية والثقافية العالمية المعاصرة. وقد قسمت إصدارات المشروع إلى 19 فرعًا معرفيًا.

3 - المركز القومي للترجمة - المجلس الأعلى للثقافة:

أطلق المجلس الأعلى للثقافة في مصر المشروع القومي للترجمة إحياءً لحركة الترجمة المنظمة واستكمالاً للمشروعات السابقة لها، كمشروع الألف كتاب الذي توقف بعد إصدار 600 كتاب. وقد بدأت أول إصدارات المشروع في يناير عام 2000م. وفي بداية 2006م، احتفل المشروع بإصداره الكتاب الألف، ثم تم تحويل المشروع إلى المركز القومي للترجمة من خلال مبادرة تقدم بها الدكتور جابر عصفور رئيس المجلس الأعلى للثقافة. ويهدف المشروع إلى الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية، والانفتاح على اللغات الشرقية ذات الصلات التاريخية المهمة باللغة العربية كالتركية والفارسية، وقد أصدر المشروع حتى الآن العديد من الكتب المترجمة عن اللغات الشرقية.

كما يعمل المشروع على تعزيز ريادة مصر الثقافية خاصة في مجال الترجمة، وتحقيق التوازن في الترجمة بين مختلف المعارف الإنسانية، وإن غلب على إنتاج المشروع العلوم الاجتماعية والإنسانية والآداب. ويهدف المشروع كذلك إلى إشاعة روح العلم والعقلانية والتجريب، ووضع القارئ في قلب حركات الإبداع والفكر العالمية، من خلال ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت بمثابة الإطار المرجعي للثقافة الإنسانية المعاصرة.

4 - المنظمة العربية للترجمة:

أُسِّسَت المنظمة العربية للترجمة عام 1999م في بيروت، بهدف نقل المعارف ونشر الفكر العالمي وتطوير اللغة العربية، وذلك بعد إجراء العديد من الدراسات المسحية لأوضاع الترجمة في العالم العربي، وتعمل المنظمة على تحقيق طفرة نوعية وكمية في نشاط الترجمة في العالم العربي، مع المساهمة في إدخال العلوم في إطار الثقافة العربية المعاصرة، وتعليم العلوم وتنشيط البحث العلمي باللغة العربية، والإسهام في تنشيط الطلب على الكتاب المترجم وحفز استخداماته في مختلف مجالات التنمية، بالإضافة إلى العمل على ترجمة كل ما هو مفيد للوطن العربي من كتب ودوريات ومنشورات لا تقوم المؤسسات الأخرى بترجمتها لعدم ربحيتها، وتعمل

المنظمة من خلال إقامة شبكة من العلاقات مع العاملين بالترجمة في العالم العربي، وتبادل المعلومات عن جهود الترجمة القائمة والمستقبلية.

5 - مشروع "كلمة" - هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث:

وهو مبادرة مستقلة أطلقتها هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، تحت رعاية سمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، وتعرف المبادرة نفسها بأنها مشروع طموح غير هادف للربح، وتتوخى إحياء عملية الترجمة في العالم العربي، وتعمل على تمويل حركة الترجمة والنشر والتوزيع، وذلك من خلال زيادة عدد الكتب وخيارات القراءة أمام القارئ العربي، بالإضافة إلى تكريم اللغة العربية وتقديرها، وذلك بزيادة عدد الكتب المترجمة إليها.

ويوضح القائمون على المبادرة أن حركة الترجمة في العالم العربي قد بلغت أوجها في العصر العباسي، لكنها شهدت انحسارًا من بداية القرن الحادي عشر الميلادي، في الوقت الذي شهدت الترجمة في أوروبا طفرة عظيمة، ساهمت في خروجها من عصر الظلمات، ولم يشهد العالم العربي منذ تلك الفترة سوى ترجمة بعض الأعمال المهمة. وتتحدد دوافع المبادرة في وجود عدد كبير من روائع العلم والفكر والأدب لم تترجم بعد إلى العربية، ويترجم كتاب واحد لكل مليون عربي سنويًّا، في حين تترجم اليونان وحدها 5 أضعاف ما يتم ترجمته في العالم العربي، في الوقت الذي ارتفعت فيه نسبة الشباب العربي المتعلم من 63,9٪ إلى 76,3٪ في السنوات الأخيرة، وهو ما يؤكد ضرورة إشباع رغبته في القراءة والاطلاع.

ويقوم مشروع كلمة - سنويًّا - بإعلان قائمة من مئة كتاب من الكتب المنشورة بكل اللغات، ويتم اختيارها في مجالات العلوم والآداب والتاريخ، حيث يتم تصفيتها وترجمتها ونشرها وتوزيعها، وتحرص المبادرة على إيجاد توازن بين الكتب الكلاسيكية والحديثة والمعاصرة في مختلف المجالات.

6 - مشروع "الشروق - بنجوين" لترجمة كلاسيكيات الأدبين العربي والغربي:

هو من أحدث مشاريع الترجمة في العالم العربي، وهو يقوم على شراكة بين دار "بنجوين" العالمية ودار الشروق المصرية، حيث تم الاتفاق في نوفمبر 2010 على ترجمة كلاسيكيات "بنجوين" التي اشتهرت بها الدار وإعادة إصدارها باللغة العربية للقارئ العربي، في الوقت الذي يتم ترجمة العديد من عيون الأدب العربي القديم والحديث إلى اللغة الإنجليزية وتقديمها إلى القارئ الغربي. وسيتم طرح هذه الإصدارات في صورة رقمية وورقية، وكانت "بنجوين" قد دخلت في شراكات مماثلة مع العديد من دور النشر حول العالم في الصين وكوريا والبرازيل. وقد بدأت "بنجوين" في نشر كلاسيكياتها في العام 1946، ووصل عدد عناوينها إلى أكثر من 1200 عنوان، ويستهدف المشروع تقديم الأعمال المترجمة إلى القارئ العادي بأسعار مناسبة في ظل ارتفاع أسعار الكتب. وسيعمل المشروع الذي سيبدأ إصداراته العام الحالي على إصدار 20 كتابًا مترجمًا إلى العربية سنويًّا.

7 - "ترجم":

هو برنامج أطلقته مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم يهدف إلى إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من أعمال في مجالات شتّى عبر ترجمة أعمال أجنبية إلى العربية و يسعى أيضًا إلى إظهار الوجه الحضاري للأمة، عبر ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ويركز البرنامج في مرحلة العمل الراهنة على الكتب التي تدعم التنمية المستدامة في الوطن العربي، و لذا، فإن كتب الإدارة تأتي في المقام الأول ثم تتلوها المجالات الأخرى.

من خلال برنامج "ترجم"، تسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى توفير زخم جديد لحركة الترجمة، يرتقي بها كمًّا ونوعًا، ويجعلها رافدًا حيويًّا للتنمية المعرفية والإنسانية في الوطن العربي، وجسرًا للتفاعل مع الثقافات الأخرى، وقناة للوصول إلى المصادر الأصيلة للمعرفة.

8 - "كتاب في دقائق":

مبادرة من مؤسسة محمد بن راشد، وهي ملخصات مترجمة تهدف إلى إحياء ميراث قديم ساهم في نشر المعرفة وبناء الحضارة العربية والإسلامية قبل أكثر من ألف عام وذلك من خلال إصدار ملخصات لأهم المؤلفات العالمية التي تلاقي رواجًا كبيرًا، وتجمع بين أصالة المحتوى والإخراج المشوق باللغة العربية، بحيث توفر للقراء خلاصة فكر الكتّاب والمؤلفين في دقائق، مما يسهم جليًّا في ترويج أشهر الكتب المميزة ونقل معلوماتها الغنية إلى شريحة واسعة من الجماهير بسرعة وإتقان.

وتمثل هذه المبادرة المستمرة ببساطة فكرتها نقلة نوعية في عملية نشر الثقافة والآداب والعلوم حيث تناولت مجموعة من المواضيع المتجددة التي تركز على الطاقة الإيجابية، الإبداع والابتكار، التنمية البشرية وفنون التعامل مع الحياة، ونماذج ناجحة لمؤسسات وأفراد ساهموا في بناء المجتمعات، والأسرة والعائلة وسبل الحفاظ عليها كنواة فعّالة في المجتمع الحديث وفنون مجابهة تحديات الحياة.

9 - "مركز البابطين للترجمة":

انطلق مركز البابطين للترجمة في العام 2004 واستطاع في غضون سنوات قليلة أن يساهم في تشجيع حركة الترجمة، سواء من حيث إصداراته أو من حيث الترويج للأهداف والأنشطة التي قام بها.

جوائز الترجمة

جائزة أركنساس للترجمة العربية:

اسمها الرسمي الكامل: جائزة دار نشر جامعة أركنساس للأدب العربي المترجم، وهي جائزة تُمنح للترجمة الإنجليزية المميزة لعمل أدبي يشغل كتابًا كاملًا كُتب في الأصل باللغة العربية. يُدير الجائزة مركز الملك فهد لدراسات الشرق الأوسط بجامعة أركنساس. وقد تولت دار نشر جامعة سيراكيوز منذ سنة 2008 نشر الكتاب الفائز كجزء من سلسلتها المتعلقة بأدب الشرق الأوسط، وكان نشر الكتاب الفائز قبل سنة 2008 هو مهمة دار نشر جامعة أركنساس.

تبلغ قيمة الجائزة خمسة آلاف دولار للمترجم ومثلها للمؤلف الأصلي، ويمكن أن تُرشح للجائزة الأعمال الأدبية الخيالية (القصصية والروائية)، كما يمكن أن تُرشح لها الأعمال غير الخيالية.

تُعد جائزتا أركنساس وبانيبال أهم جائزتين في مجال ترجمة الأدب العربي إلى الإنجليزية.

جائزة خادم الحرمين الشريفين عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود العالمية للترجمة:

أنشئت جائزة خادم الحرمين الشريفين عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود العالمية للترجمة في شهر شوال من عام 1427هـ/ أكتوبر 2006م، ومقرها مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض، بالمملكة العربية السعودية. وهي جائزة تقديرية تمنح سنويًّا للأعمال المترجمة من اللغة العربية وإليها.

وتبلغ قيمة مكافأة الجائزة 750 ألف ريال سعودي ما يعادل 200 ألف دولار أمريكي، والجائزة تنطلق من رؤية خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز (رحمه الله) في الدعوة إلى مد جسور التواصل الثقافي بين الشعوب وتفعيل الاتصال المعرفي بين حضارات العالم وثقافاته.

جائزة سيف غباش- بانيبال للترجمة الأدبية من العربية إلى الإنجليزية:

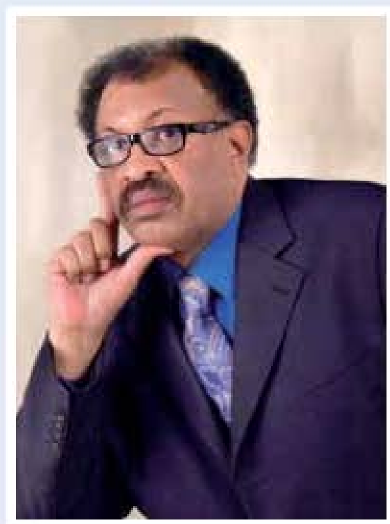
واسمها الكامل جائزة سيف غباش- بانيبال للترجمة الأدبية من العربية إلى الإنجليزية هي جائزة سنوية تُمنح لمترجم (أو أكثر) عن ترجمة منشورة لعمل أدبي كامل من العربية إلى الإنجليزية.

جائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي:

تسعى إلى تأصيل ثقافة الحوار، وتنمية التفاهم الدولي، وتشجيع عمليات المثاقفة الناضجة بين اللغة العربية ولغات العالم عبر الترجمة والتعريب. تأسست عام 2015 في قطر.

المرح لغة عالمية

"رواية المئوي الذي قفز من النافذة واختفى، ذكرتني بجدارة برواية عربية تشابهها في المرح، الذي كتبت به، ورسم به شخوصها، هي رواية: أبو شلاخ البرمائي للأديب السعودي الراحل غازي القصيبي، التي كتبها منذ سنوات طويلة، وبالطبع سابقة لرواية المئوي"



د. أمير تاج السر
كاتب وروائي سوداني

الذين قرؤوا رواية "المئوي الذي هبط من النافذة واختفى"، للكاتب السويدي: يوناس يوناسون، والتي تحولت بعد ترجمتها إلى لغات عدة، إلى نص مطلوب بشدة للقراءة، ويحقق مكاسب مادية ومعنوية كبيرة، لا بد أنهم استمتعوا كثيرًا بكمية المرح التي تتدفق عبر سطور الرواية.

فالمئوي آلن الذي قفز من النافذة كان يؤدي دورًا مرحًا، تمثل في وصف الكاتب له، في الشكل والمشية والكلام، واستخدامه لتصرفاته -اللامبالية حد الإدهاش- في رسم كاريكاتيرات عديدة، أيضًا في الشخوص الذين التقاهم آلن بعد أن فر من بيت المسنين، في يوم عيد ميلاده المئة، واستند بهم النص في تدفقه.

وقد رسم الكاتب هذه الشخوص بريشة ساخرة، مثل شخصية اللص المسن الذي التقى آلن في محطة القطارات المهجورة، ورافقه في فراره حاملين حقيبة مسروقة من عصابة مخدرات، وأعضاء العصابة أنفسهم، من اسم مجموعتهم: "ليس ثانية أبدًا"، إلى ألقابهم المضحكة كالبرغي، والسطل، وشخصية صاحب بسطة النقانق بني، الذي رافق المسنين آلن وصاحبه كسائق لهما في البداية، ثم شريك بعد ذلك في محتويات الحقيبة، إنه شخصية فذة، فقد تعلم على مدى ثلاثين عامًا عشرات الصنع، ولم يكمل تعلمها حتى النهاية، فأصبح شبه طبيب وشبه بيطري وشبه مهندس وشبه حداد، وشبه كناس، وشبه أي مهنة قد تخطر على بالك.

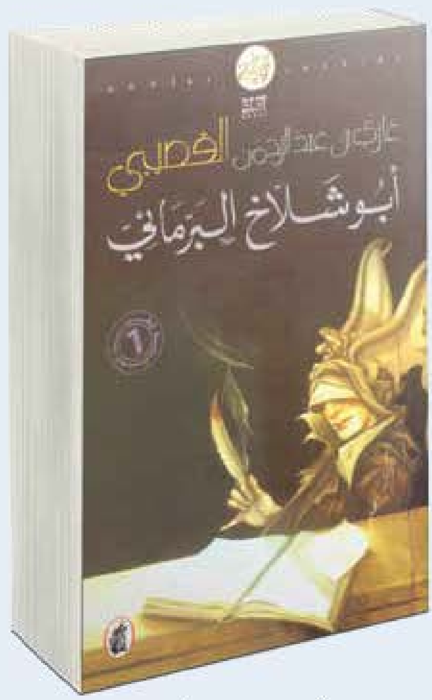
شخصيات وواقعية

ثم تأتي شخصيات النساء، فيمنحك النص شخصيات نسائية غريبة أيضًا، تتمنى لو أن أدوارها تستمر حتى النهاية، مثل شخصية الجميلة التي سقط بني في حبها حين استضافت الجميع في مزرعة ريفية في أثناء الفرار من السلطة وعصابة: ليس ثانية أبدًا بحقيبة محشوة بملايين الكرونات.

الحكاية تروى بعادية شديدة، كأنها حكاية واقعية فعلاً.

وتاريخ آلن الحافل ذي المئة عام، يروى بعادية أيضًا لا تحس بأن المؤلف يبالغ فيها، بل تحس أن الأحداث قد وقعت بالفعل، والرجل الذي من المفترض أنك تقرأ ماضيه وحاضره كبطل خيالي، قام بإنقاذ الجنرال فرانكو حين ذهب إلى إسبانيا وشارك في الحرب الأهلية بتفجير الجسور، وكان في الأصل خبير متفجرات منذ طفولته، فجر أماكن كثيرة في محيطه، وانتهى الأمر بتفجير منزله الشخصي قبل أن يغادر منطقته في السويد إلى كل الدنيا بعد ذلك.

آلن هذا، داخل النص طبعًا، وصل إلى الشواطئ الأمريكية، في باخرة ركبها من إسبانيا بعد أن انتهت الحرب الأهلية هناك، ليتم استجوابه من قبل الأمريكان، ومن ثم إلحاقه في وظيفة أشبه بوظائف الفراشين في مختبر نووي في إحدى المدن الأمريكية البعيدة، ليتدخل في صناعة القنبلة الهيدروجينية، بأن يعلم العلماء كيف يفجرونها، ومن ثم ستعتبره ركنًا أساسيًا في تلك التفجيرات النووية التي محت بها أمريكا مدنًا، وأبادت شعوبًا كما هو معروف في هيروشيما ونغازاكي اليابانيتين، وفي ذلك المختبر التقى بالرئيس هاري ترومان وتصادقا لدرجة أن ينادي رئيس الولايات المتحدة باسم هاري



ويناديه الرئيس آلن، ويشربا عددًا من زجاجات الفودكا.

سخرية ومرح

هذا المشهد الساخر كان متقنًا كفاية في مرحه ليمنح المشاهد ابتسامات عدة متتابعة. الرئيس يصاحب السويدي، الذي لم يكن أكثر من مساعد متواضع أو فراش، في مختبر سري وحيوي، وبغض طرف صداقته عن العلماء الذين يحملون جميعًا درجة بروفيسور، هكذا، ثم لتمضي الرواية حاملة داخلها قدرًا كبيرًا من السخرية والمرح كما ذكرت.

رواية المئوي الذي قفز من النافذة واختفى، ذكرتني بجدارة برواية عربية تشابهها في المرح، الذي كتبت به، ورسم به شخوصها، هي رواية: أبو شلاخ البرمائي للأديب السعودي الراحل غازي القصيبي، والتي كتبها منذ سنوات طويلة، وبالطبع سابقة لرواية المئوي.

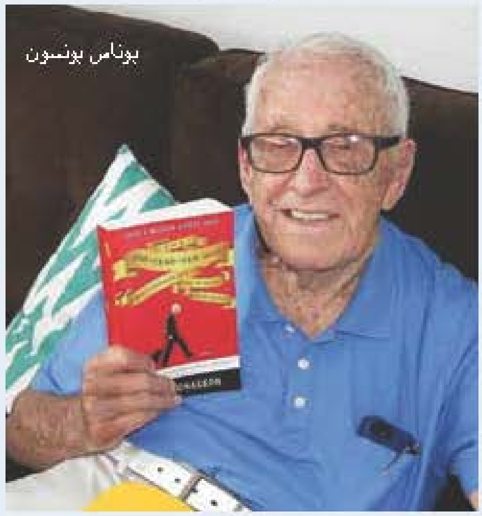
إنها رواية لطيفة، ساخرة بامتياز، وفيها شخصية البدوي أبو شلاخ الذي كان يقيم في الصحراء عاملاً في شركة النفط، ثم تقلب في الأدوار المرحة، والمستحيلة طبعًا لولا الرسم الساخر للرواية، الذي يميزه القارئ من الصفحات الأولى.

لن يحيل القارئ أي شيء إلى المنطق، ولا بد أن يلغي رأسه وهو يتتبع قفزات أبو شلاخ، من بدوي بسيط، إلى مسؤول كبير في شركة حيوية، إلى زوج لابنة مدير أجنبي، إلى مسافر في مهمات وطنية، ثم بالضبط مثل آلن بطل يوناسون، سيكون ضيفًا على الرئيس الأمريكي وصديقًا له.

لقد نجحت رواية السويدي يوناسون، لأنها رواية كتبها أوروبي، وترجمت إلى عشرات اللغات، ولا أعتقد أو لم أسمع أن رواية غازي ترجمت حتى إلى لغة واحدة مثل الإنجليزية أو الفرنسية، وهي في رأيي لا تقل فراسة ولا



غازي القصيبي



يوناس يوناسون

ذكاء ومرح عن رواية يوناسون، وفيها من مواقف الإدهاش ما يجعل القارئ فاغر الفم والعينين، طيلة فترة القراءة.

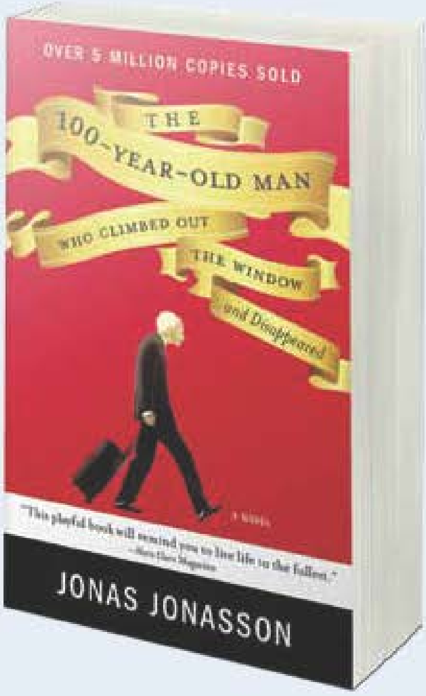
أبو شلاخ هو آلن العربي، وقصته التي أضحكتنا، وصنعت لقارئ العربي يومًا أو يومين من المتعة الساخرة كانت تحتاج إلى أن تنتقل لقارئ آخر يزيدها تفاعلاً، ولا أعتقد أن ذلك حدث بحسب علمي.

التقاء الطرح

التقاء الرواية الغربية والعربية في هذا الطرح اللطيف يقودني إلى شيئين، أولاً يؤكد على أن المرح لغة عالمية وليست حكرًا على شعب من دون شعب، فكما كان شارلي شابلن أمريكيًا مرحًا، ومستر بين إنجليزيًا مرحًا، كان إسماعيل ياسين عربيًا مرحًا، وكذا يوجد بالتأكيد في أي مكان في العالم.

الشيء الآخر هو مأزق الأدب العربي الذي لن يستطيع الخلاص منه بسهولة، أو لن يتخلص منه على الإطلاق، وهو عدم التصديق بأنه أدب جيد ورفيع المستوى حتى بالنسبة للغربيين الذين قرؤوه وأعجبهم، وأحيانًا لبعض القراء العرب أنفسهم، الذين ما أن يسألوا عن كتابهم المفضلين، حتى يأتوا بأسماء غربية ربما ليست معروفة جيدًا حتى في بلادها، ولم يسمع بها أحد سواهم.

لذلك وحتى لو ترجمت رواية غازي فلا أعتقد أن أحدًا سيصدق أنها من الروايات الذكية المرحة، وكانت تتنقل ببطل بسيط إلى موائد الرؤساء قبل أن يكتب يوناسون روايته ربما بخمسة عشر أو عشرين عامًا.



"يمنحك النص شخصيات نسائية غربية أيضًا تتمنى لو أن أدوارها تستمر حتى النهاية، مثل شخصية الجميلة التي سقط بني في حبها حين استضافت الجميع في مزرعة ريفية في أثناء الفرار من السلطة وعصابة "ليس ثانية أبدًا" بحقيبة محشوة بملايين الكرونات"

"التقاء الرواية الغربية والعربية، في هذا الطرح اللطيف يقودني إلى شيئين، أولاً يؤكد على أن المرح لغة عالمية، وليست حكرًا على شعب دون شعب، فكما كان شارلي شابلن أمريكيًا مرحًا، ومستر بين إنجليزيًا مرحًا، كان إسماعيل ياسين عربيًا مرحًا، وكذا يوجد بالتأكيد في أي مكان في العالم"



الأنا والحب



د. وليد فتيحي

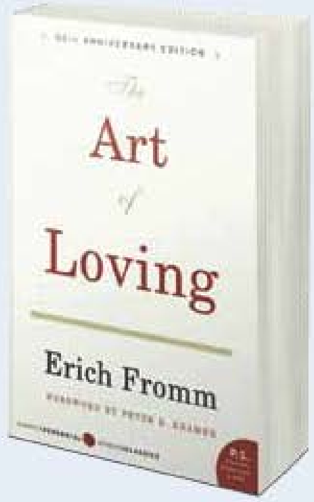
جدة

عدت بذاكرتي أستجمع وأستحضر صور الحب التي سمعت عنها أو رأيتها في حياتي، كم سمعت ورأيت من قصص حب وغرام وهيام انقلبت بعد فترة من الزمان إلى صراع ونزاع وكره وبغض فهجر وانفصال، وكأن لم يكن هناك من حب ولا مودة في يوم من الأيام، وكم سمعت ورأيت أشخاصا لا يحبون الناس ولا يحبهم الناس يمقتون من كل من حولهم ثم تسمع أن الواحد منهم أخيرا قد وقع في الحب، ولكن لا تلبث بعد فترة أن تسمع أنه فشل في حبه فانفصل وعاد إلى ما كان عليه.

وبين الحين والآخر أسمع وأرى أشخاصا محبوبين من كل من حولهم لا تجد من يكرههم أو يحمل لهم في القلب شيئا غير الحب، وأسأل نفسي: ما سر هذا الحب؟

نظرت حولي فرأيت التناقض العجيب بين كثرة ما يسوق لنا عن الحب في صور استهلاكية على القنوات التليفزيونية والشاشات السينمائية والمجلات والروايات وقصص الحب الغرامية، وبين الممارسات الفعلية للحب الصادق الحقيقي بين أفراد المجتمعات الإنسانية.


إيريك فروم



بل قد لا يوجد نشاط يمارسه الإنسان يبدأ بآمال عظيمة وينتهي بالفشل بشكل منتظم مثل الحب. ومع ذلك لا يحظى بالدراسة المتعمقة لفهم أسباب هذا الفشل المتكرر لظاهرة الحب في الإنسان.

قررت أن أتعمق في دراسة ظاهرة الحب، فبحثت وتقصيت حتى شاء الله بفضله أن يقع بين يدي كتاب فن الحب (The Art of Loving) للمحلل النفسي الشهير والعبقري الفيلسوف إيريك فروم (Erich S. Fromm)، والذي كتبه عام 1959م وبقي إلى يومنا هذا أحد المراجع الرئيسية لفهم قضية الحب، فوجدته أفضل ما كتب عن الحب بطريقة علمية متعمقة.

اكتشفت أن أول مفهوم خاطئ عن الحب هو الاعتقاد بأن الحب متعلق بالشخص الذي نحب، حيث يظن معظم الناس أن الحب سهل، ولكن الصعوبة تكمن في أن يجد الإنسان منا الشخص الصحيح الذي يبادله الحب، وهذا مفهوم خاطئ. فالحب ليس متعلقًا بظهور الشخص المناسب أو الظروف المناسبة، وإنما هو إرادة وملكة وقدرة.

يقولون وقع في الحب.. وقع؟! وهل الحب حفرة أو مصيدة أو فخ ليقع فيه الإنسان؟ يقولون غرق في الحب.. غرق؟ وهل في الغرق إلا الموت ونهاية الحياة؟! وكأننا نعترف بأنها كذلك على مستوى اللاوعي لإطلاقنا هذه المسميات عليها.

تيقنت أن الحب الذي يصفه الكثير من الناس بجملة "الوقوع في الحب" هو ليس حبًا حقيقيًا، الحب الحقيقي لا يقع فيه الإنسان كما يزعمون، بل يقف عنده وبه وفيه، فالإنسان إما أن يكون من هؤلاء الذين يقفون عند الحب ويعيشون بالحب وفي الحب، لأنهم دائمًا في حالة حب أو لا يكونون.. الحب هو نمط حياة.. هو طريقة حياة.

إن الفهم الخاطئ لماهية الحب هو أحد الأسباب الرئيسية لانتشار الطلاق حول العالم بنسب ليست لها سابقة في تاريخ الإنسانية، فالوقوع في الحب ما هو إلا استدراج الغريزة الجنسية في الإنسان لضمان استمرار النسل ونمو وتكاثر الجنس البشري، فالدراسات الحديثة تؤكد أن المراحل الثلاث لظاهرة الوقوع في الحب من الانجذاب والاستهواء للتلهف والرغبة والشهوة للتعلق والارتباط تحفزها زيادة إفراز هرمونات كالإستروجين والتيستاستيرون والأدرينالين والدوبامين ثم السيراتونين والأوكسيتوسين، وبعد مدة من الزمن ليست طويلة تنخفض إفرازات هذه الهرمونات وتخفت العلاقات الحميمة، وكما ظننا أنهما وقعا في الحب فإنهما سيقعان خارج الحب، لأنهما في الحقيقة لم يعرفا الحب الحقيقي ولم يمارساه.

كثير من الأنشطة التي يقوم بها الإنسان يكون لها دوافع على مستوى الوعي أو اللاوعي، فالإنسان الطموح الذي يعمل ويثابر ويكد، ويكون لديه الدافع لجمع المال والشهرة، تصبح هذه الدوافع هي التي تقوده، فهو مساق للعمل بتلك الدوافع وليس هو القائد المتحكم والسيد لها، وبذلك يصبح نشاطه سلبيًا وإن كان منتجًا على مستوى المادة، ذلك لأنه لم يصبح سيدًا لعمله، بل أصبح خادمًا لدوافعه. أما الحب الحقيقي فهو نشاط إيجابي بالإرادة الواعية، وليس شعورًا عابرًا بدوافع فسيولوجية هرمونية، أو بدوافع تحت سيطرة (الأنا) التي فينا. الحب نشاط إيجابي لا يملكه إلا حرٌ سيدٌ على شعوره وإرادته.

الحب عطاء.. نعم الحب هو العطاء لا الأخذ، بل الحب الحقيقي هو العطاء دون انتظار الأخذ. العطاء الذي أصبح يفهم في عالمنا المادي أنه التخلي عن شيء أو التضحية بشيء، إنها عقلية المقايضة في سوق تحكمه قيم الرأسمالية. فالعطاء بدون أخذ يُعدُّ خداعًا وظلمًا في أعينهم، ولكن العطاء عند الشخص الحر المتحرر من دوافع (الأنا) التي فيه هو أعمق صور التعبير عن القوة والثروة الداخلية والقدرة على إدخال الفرح والسعادة والبهجة والسرور على الآخرين، لينعكس كل ذلك على المعطي مشاعر فيّاضة وإحياءً لروحه. فالعطاء يقتني الغنى، والغني ليس من يملك الكثير، ولكنه الذي يعطي الكثير.

أما الذي يعجز عن العطاء خوفًا على ما يملك، فهو فقير بغض النظر عمّا يملك وإن كان كثيرًا، فهو لا يملك

"تيقنت أن الحب الذي يصفه الكثير من الناس بجملة "الوقوع في الحب" هو ليس حبًا حقيقيًا، الحب الحقيقي لا يقع فيه الإنسان كما يزعمون، بل يقف عنده وبه وفيه، فالإنسان إما أن يكون من هؤلاء الذين يقفون عند الحب ويعيشون بالحب وفي الحب، لأنهم دائمًا في حالة حب أو لا يكونون.. الحب هو نمط حياة.. هو طريقة حياة"

"يؤكد إيريك فروم أن الحب فن كالرسم والموسيقى وفن الطب والهندسة، ويحتاج كأي فن إلى عوامل ثلاثة، إلى فهم نظريته فهمًا عميقًا، وإتقان ممارسته بفاعلية، وأن يصبح الهم الشاغل للمتعلم، وبالرغم من حاجة الناس للحب وبرغم فشلهم الواضح المتكرر لتوقعات الحب، إلا أن كل شيء آخر في الحياة أصبح أكثر أهمية من الحب.."

ما بيده وإنما هو مملوك له. وأعظم أنواع العطاء أن يعطي الإنسان من أغلى ما يملك، أن يعطي من نفسه، من فرحه، من شغفه، من علمه ووقته، أن يعطي من ذلك الشيء الحي الذي فيه، وبذلك يحيي الآخر ويثريه ويعزز شعوره بالحياة، وينعكس ذلك كله عليه إحياءً وحياة.

يؤكد إيريك فروم أن الحب فن كالرسم والموسيقى وفن الطب والهندسة، ويحتاج كأي فن إلى عوامل ثلاثة، إلى فهم نظريته فهمًا عميقًا، وإتقان ممارسته بفاعلية، وأن يصبح الهم الشاغل للمتعلم، وبالرغم من حاجة الناس للحب وبرغم فشلهم الواضح المتكرر لتوقعات الحب، إلا أن كل شيء آخر في الحياة أصبح أكثر أهمية من الحب.. النجاح، المال، المكانة، القوة.. كل الطاقة البشرية موجهة لتحقيق هذه الأغراض، وكلها متعلقة بالأشياء، أما الحب، الحب الذي يتعلق بأغلى ما نملك وهي الروح، فتندر الطاقة التي نوجهها لنتعلم فن الحب.

أدركت سبب فشل الأغلبية العظمى من البشر في كل أنواع وصور الحب، لأنهم لا يعرفون كيف يمارسون فن الحب في حياتهم، لأننا لم نسمع عن دورات وشهادات لتعلم فن الحب، يقضي الواحد منا عشرات السنين لتعلم فن من الفنون بمنهجية منتظمة وبتركيز كبير وصبر جم، إلا الحب.. الحب رعاية ومسؤولية واحترام ومعرفة، الرعاية تتجلى في الاهتمام الفعَّال بحياة ونمو ذلك الذي نحب، وإذا نقص هذا الاهتمام الفعال فاعلم أن الحب ناقص، وما يقصد بالمسؤولية ليس الواجب الذي يفرض علينا من الخارج، ولكنه الفعل الإرادي الذي يصدر من الداخل، أن أكون مستعدًا لأن أستجيب لاحتياجات الإنسان الآخر، سواء عبر عنها أم لم يعبر.

ولكن المفهوم الخاطئ لمعنى المسؤولية يمكن أن ينقلب إلى سيطرة وهيمنة وتملك إذا لم يلازمها الاحترام، أي رؤية الشخص كما هو ومساعدته على أن ينمو بطريقته هو، أن تصبح ومن تحترم شخصًا واحدًا، لا كما تريد أنت ولكن كما يريد هو، ولا يكون الاحترام بدون معرفة عميقة تنفذ للب، فمنها نستطيع أن نرى الآخر في إطاره.

إن الحاجة الرئيسية الفطرية لحب الناس هي الخروج من سجن الانفصال والاندماج والاتحاد مع الآخر، هذا الانفصال الذي حاول إنسان اليوم أن يعالجه بطرق فاشلة بائسة يائسة بالمسكرات والمخدرات والانغماس في الجنس والملذات وروتين العمل والتطابق والتماثل القطيعي، بل والتوحد مع أعمال الإنسان الإبداعية، ولكنها كلها حلول جزئية ومؤقتة أو زائفة، وليس من حل كامل لتحقيق الوحدة مع الإنسان ومعالجة الإحساس بالانفصال القاتل المدمر إلا عن طريق الحب الصحيح الناضج، إنه الحب الذي لا يسيطر عليه الخضوع أو الهيمنة، وإنما أن يصبح الاثنان واحدًا ويظلان كذلك اثنين، إنه الحب الذي أساسه حب أخي في الإنسانية، إنه حب الإنسان لأخيه الإنسان، إنه الشعور بالمسؤولية والرعاية والاحترام والمعرفة تجاه أي إنسان آخر.

إنه الحب لكل إنسان فيه نفخة الرحمن، إنه حب قدواتنا الأنبياء في حبهم للناس، حب ليس استثنائيًا، حبنا للمساكين والفقراء، حبنا للأيتام والضعفاء والغرباء، حبنا للهداية لمن ضلوا السبيل وإحساسنا بالمسؤولية تجاههم.

يصف إيريك فروم هذا الحب في قوله "وفي حب أولئك الذين لا يضيفون شيئًا في تحقيق فوائد وأغراض مادية لنا، أي لا منفعة ومصلحة مادية لنا في حبهم، يكون الحب قد بدأ حينئذ فقط يظهر الحب".

تذكرت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ربط فيه الإيمان بالحب في قوله: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) رواه البخاري ومسلم. كنت أفهم أن المؤمن يجب أن يحب لأخيه الإنسان ما يحب لنفسه ليكتمل إيمانه، واليوم أفهم بعداً آخر، طريق الإيمان يبدأ بالحب لأخي الإنسان، إنه الحب الذي أدخل الله به الجنة رجلاً في كلب سقاه، فما بالك بحب الإنسان للإنسان.

أدركت في بحثي أن حب الآخرين وحب الإنسان لذاته ليسا بديلين أو متقابلين، فالحب لا يتجزأ، وإنما الخلط جاء من عدم التفريق بين حب الذات الحقيقية (نفخة الرحمن التي فينا)، وحبنا للأنا التي فينا أي (الأنانية). حب الذات والأنانية ضدان، الشخص الأناني لا يحب ذاته بل يكرهها، ولأنه يفتقر للإعجاب بها والرعاية لها، فإنه يصبح خاويًا محبطًا من الداخل، فيحاول عبثًا أن يعوض فشله في العناية بذاته بالتكالب على الماديات واللهث وراء استلاب وسرقة كل ما يستطيع من العالم من حوله لملء فراغه الداخلي ولكن دون جدوى، أما الذي يحب ذاته حبًا حقيقيًا نابعًا من روحه، فإنه يحب لكل شخص آخر كما يفعل إزاء ذاته، وهذا الحب بالذات لنفخة الروح هو الحب الإلهي الذي فينا، وبه يحب الإنسان ذاته وأخاه في الإنسانية، حبًا لله وفي الله وبالله الذي خلقنا من نفس واحدة، ولا طريق للإيمان غيره، كما أكد الحديث (حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

إنه الإحياء عن طريق الحب، وإحياء النفس بالحب هو إحياءٌ لكل الإنسانية (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً). يقول غاندي: (أينما يتواجد الحب تتواجد الحياة)، ويقول مارتن لوثر كينج: (الكراهية تشل الحياة والحب يطلقها، والكراهية تربك الحياة والحب ينسقها، والكراهية تظلم الحياة والحب ينيرها).

فالحب هو الذي يحررنا من فرديتنا، وبه نفرق بين الحب الصادر عن الذات، وبين الحب الصادر عن (الأنا). (الأنا) الأنانية المرض المكتسب الذي يصل إلى حد متضخم متفاقم في صورة نرجسية، والتي هي سجن لصاحبها وقتل للحياة فيه وحوله.

سألت نفسي: متى يبدأ الإنسان في الحب؟ يولد الطفل فيكون أول حب يعيشه هو حب الأم، وهو حب غير مشروط يحيطه بالحماية والرعاية والأمان، ثم حب الأب عندما يصل السادسة من عمره، فلا يكفيه الحب غير المشروط فيسعى لاكتساب حب الأب المشروط المكتسب بالعمل، وبذلك يتوازن حتى ينضج ويتحرر من الصورة الخارجية لتحكم الأم والأب، ولكنه يجعلهما ضميرًا داخليًا يعمل به، الضمير الأمومي في مقدرته على تقديم الحب غير المشروط للآخرين، والضمير الأبوي الذي به يحاكم نفسه وتصرفاته ويحاسب أعماله، ومنهما ينطلق في مرحلة النضج للحب الإلهي تجسيدًا لمبدئي الحب والعدل في نفسه وحبه للجمال، الذي لا تكتمل صورته إلا في (خالقه)، والإنسان الذي لم يخرج من التعلق الشديد بالأم وصورها مثل القبيلة، ولم يخرج من اعتماده الطفولي على الأب المعاقب المثيب وصوره من سلطة أخرى، فإنه لا يستطيع أن يصل إلى مرحلة النضوج في حبه لله.

الآن أفهم الحكمة الإلهية في أن يقرن سبحانه عبادته بالإحسان للوالدين في قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، بل ربط حب الذات بحب الوالدين في الصلاة في الجلوس بين يديه سبحانه في قوله:﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ ﴾، فبداية الحب عند الإنسان بشرية، وهذا ما أكده الغزالي في حديثه عن الحب، حين قال: "بداية الحب عند الإنسان بشرية، فلا يبدأ الإنسان بالحب إلاّ إذا أحب ما يعرفه، وأوّل ما يعرفه هو ذاته، ويبدأ بهذا النوع من الحب الأرضي، والذي سيرتفع بواسطته إلى أنواع أخرى من الحب، تكون محصّلته حبًا أسمى من الحب البشري".

إنه الحب الذي به يعرف الإنسان ذاته، ومنه يعرف ربه، والذي عبر عنه سيدنا علي رضي الله عنه وأرضاه في قوله: (من عرف نفسه فقد عرف ربه).

وصلت إلى نهاية رحلتي مع الأنا والحب.. حقًا من عرف ربه حق المعرفة لا يسعه إلا أن يحبه ويتقرب إليه بما فرض عليه طوعًا وحبًا وشوقًا حتى يصير، كما وصفه الحديث القدسي: (مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ) صحيح البخاري. إنه الحب أقيم ما في الأرض، منه أتينا وبه نؤمن ونحيا.



السَّنَى السَّنِيّ



أحمد بن يحيى البهكلي

جازان

الحالُ في الشام مثلُ الحالِ في اليمنِ
والموتُ في حَلَبٍ كالموتِ في عَدَنِ

وفي تعزَّ وفي بغدادَ يمرحُ مَنْ
لم يعترفْ بسوى الأحقادِ والإحنِ

والقدسُ خنزيرُ صهيونٍ يدنّسُها
وغَزَّةُ الصبرِ تشكو سطوةَ العَفِنِ

وما لنا غيرُ عونِ الله مرتكَنٌ
والله في كل حالٍ خيرُ مرتكَنِ

البغيُ ينداحُ في كل الربوعِ وفي
حلقي شجا عَبْرةٍ غبراءَ تخنقني

وبي على أمتي حزنٌ يزيدُ وبي
خوفٌ على وطني المحسودِ يقلقني

ما كان ينأى به في كل نازلةٍ
إلا التمسكُ بالإيمانِ والسننِ

وباصطراف الصراطِ المستقيمِ وقد
مَحَا به اللهُ رانَ الغيِّ والوهَنِ

فقل لمن بات يؤذيه بشقشقةٍ
على النقيّينَ والأطهارِ لا تَخُنِ

هذا الثرى زانَهُ ربي برحمته
فأزهرَ الفلُّ في الصحراءِ والدِّمَنِ

وإنه مهبطُ الوحيِ الذي سَعِدَتْ
به الخليقةُ بعد الضيقِ والحزنِ

وإنه القِبلةُ الغرّاءُ ما انكسرَتْ
نفسٌ تلوذُ بها كالطيرِ بالفَنَنِ

شادَ الرسولُ به مجدًا ومنطلقًا
لنشرِ عطرِ الهدى في مَبْلَغِ الزمنِ

وانداحَ فيها سَنَى التوحيدِ مؤتلقًا
حتى غدا الكونُ والإسلامُ في قَرَنِ

ما تُشرِقُ الشمسُ منه في سوى وطنٍ
أو تَغْرُبُ الشمسُ منه في سوى وطنِ

ما الدِّينُ إن لم يكنْ الإسلامَ؟! ليس له
ثانٍ ودينٌ سوى الإسلام لم يَكُنِ

لا دينَ من دونِ توحيدِ الإلهِ فَمَا
يقومُ دينٌ على شِركٍ ولا وَثَنِ

بالدِّينِ يسمو بنو الإنسان نحو ذُرَى
عَلِيّةٍ وبدونِ الدِّينِ في العَطَنِ

وإنَّ أعلى الذُّرى للمسلمين ذُرَى
فيها الدعاةُ إلى الإيمانِ كالقُنَنِ

طوبى لمن مَخَروا بحرَ الدُّجى حَمَلُوا
غرسَ الهدى للهدى في أطهرِ السفنِ

همُ الذين اصطفَوا بشرى البشيرِ سَرَوْا
له خِفَافًا بفكرٍ ثاقبٍ فَطِنِ

ما ضرَّهم ضيمُ خِذلانٍ وهنهنةٍ
ولا تخاريفُ من بالُوا على دَخَنِ

ولا سَفَاسفُ أفّاكين لا سَلِمُوا
تنزُّ أقلامُهم بالزيفِ والنَّتَنِ

ما أفسدَ الرفضُ والتغريبُ أبصرَ مَنْ
حُرّسِ الشريعةِ بالدّينيِّ والمَدَني

حُرّسُ الشريعةِ أهلُ السُّنّةِ احتملوا
بين الورى بِرداءِ المَسْلَكِ الحَسَنِ

ما لَهُم سِرٌّ ولا سِرِّيَّةٌ فهمو
منائرُ الهَدْيِ هم أيقونةُ الوطنِ

لأنهم كالمصابيحِ الوِضَاءِ لها
سَنًى يبدّدُ أستارَ الظلامِ سَنِي

وإنهم بَذَلُوا وعيًا ولم يَهِنُوا
ولن يهونوا برغمِ الكيدِ والمِحَنِ



العقيلات

مآثر الآباء والأجداد على ظهور الإبل والجياد (سيرة بُعِثت من جديد)



محمد بن عبدالله الفريح

الرياض

@malfriah

لم يدر بخلدي يومًا أن أكون طرفًا في فريق عمل لكتاب يتحدث عن أناس كنت أسمع عن حكايات حلهم وترحالهم في بعض مجالس كبار السن، حيث مضى على توقف رحلات هؤلاء الأماجد ما يقارب 22 عامًا قبل ولادتي!! إلا أن الله ساق لي مما هو مكتوب في سابق علمه، أن أعمل في هذا السفر الجميل الذي يغطي ما يقارب أربعة قرون خلت من السفر والترحال وقطع المفاوز المهلكة؛ لكسب العيش والسعي إلى الرزق والضرب في الأرض، مع ما خالط ذلك من ألم الفراق ووحشة الطرق وهلكتها وقلة الزاد، إلا من الإيمان الراسخ بحفظ الله وعنايته لمن سعى في الأرض بالحق والعدل ونصرة المظلوم، وردع الظالم، والحفاظ على المعتقد وسلامته من أن يخدشه زيف، أو يلامسه شيء من الانحراف أو الزيغ.

تلك هي حكاية هذا الكتاب الموسوعي الشامل المكون من ستة أجزاء منفصلة وقرابة 2485 صفحة، تغطّي قرابة 400 عام من تاريخ وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها ومنطقة الهلال الخصيب، مرورًا بشمال إفريقيا وجنوبها، وصولًا إلى أقصى المغرب العربي، بل ومتجاوزًا ذلك لأول رحلة وأشهرها لأحد رجالهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ويغطي معلومات موسوعية ومفصلة لقرابة 3345 شخصية من رجالات العقيلات الذين اشتهروا بالقوافل التجارية في منطقة القصيم بقلب الجزيرة العربية، وتواترت الروايات وشهادات الوثائق التي اُعتُمِد عليها بقيام هؤلاء الرجال بنقل أشهر كتب العلماء في العقيدة والفقه والسير من تلك البلاد النائية إلى بلادهم؛ نظرًا لأهميتها وندرتها في منطقة الجزيرة العربية في تلك الحقب، واشتهروا بنقل ثقافات تلك الشعوب والأمم وعاداتهم في الملبس والأكل وغيره من أنماط الحياة والتجارة. وتغطي هذه الموسوعة ما يقارب 1099 من أهم الموارد المائية والأماكن وطرق العقيلات، وكذلك أسماء المدن والدول والهجر وأشهر المعالم الحضارية في تلك الحقبة، واشتملت على ما يقارب 240 وسمًا للإبل، ومعلومات عن قرابة 40 معركة جرت في تلك الحقبة، ولعب رجال العقيلات دورًا محوريًّا في مجريات تلك المعارك والحروب، كما كان لهم دور كبير في تعديل موازين القوى العسكرية التي أسست لنواة بداية الدولة السعودية الحديثة، واشتملت على 55 من أسماء السنوات الدارجة في تلك الحقبة، التي كان يُعتَمد عليها في التاريخ لحقب متقطعة من تاريخ المنطقة، واشتملت الموسوعة أيضًا على قرابة 209 من الأمثال التي اشتهرت في تلك الحقبة، والتي يحكي بعضها قصصًا من المعاناة والألم والقسوة ممزوجة بتباسيم الفرح وشدة الشوق واللقاء بعد معاناة ومكابدة أهوال ومشاق هذه الطرق الوعرة، التي سطّروا من خلالها قصصًا تحكي روعة الوفاء ونبل القيم والمبادئ التي يحملها هؤلاء الرجال بين جنوبهم وفي حنايا أفئدتهم، إلى الأجيال اللاحقة من أبنائهم وأحفادهم وغيرهم من الأقران، واحتوت أيضًا على ما يربو على 500 اسم من أسماء الرتب العسكرية والمدنية والوظائف التي كانت تطلق في تلك الحقبة، واحتوت الموسوعة كذلك على 31 من أبرز شعراء العقيلات ومشاهيرهم، إضافة إلى 1893 بيتًا شعريًّا، واكتمل عقد هذه الموسوعة، عندما اُعتُمِد على ما يقرب من 500 مرجع علمي ما بين مخطوطة ووثيقة ورسالة دكتوراه وماجستير وكتاب ودورية ومجلة وصحيفة، ومرويات ونقول شفهية لما يقرب من 200 شخصية من أبرز رجال العقيلات مباشرة، أو من أبنائهم وأحفادهم، وتشتمل الموسوعة على قرابة 600 وثيقة و1500 صورة و 36 كشافًا تفصيليًّا موسعًا لأبرز المعلومات والأحداث والشخصيات والأماكن والأدوات والأسلحة الواردة بهذه الموسوعة الشاملة.

موسوعة العقيلات أحتوى على:
- 6 أجزاء
- 2485 صفحة
- معلومات موسوعية ومفصلة لقرابة 3345 شخصية من رجالات العقيلات.

- تغطي الموسوعة ما يقارب 1099 من أهم الموارد المائية والأماكن وطرق العقيلات، وأسماء المدن والدول والهجر.
- اشتملت على ما يقارب 240 وسمًا للإبل، ومعلومات عن قرابة 40 معركة جرت في تلك الحقبة.

- اشتملت الموسوعة أيضًا على قرابة 209 من الأمثال التي اشتهرت في تلك الحقبة.
- احتوت على ما يربو على 500 اسم من أسماء الرتب العسكرية والمدنية والوظائف التي كانت تطلق في تلك الحقبة.

- احتوت الموسوعة على 31 من أبرز شعراء العقيلات ومشاهيرهم، 1893 بيتًا من الشعر.

- 500 مرجع علمي ما بين مخطوطة ووثيقة ورسالة دكتوراه وماجستير وكتاب ودورية ومجلة وصحيفة، ومرويات ونقول شفهية لما يقرب من 200 شخصية من أبرز رجال العقيلات مباشرة، أو من أبنائهم وأحفادهم.

- تشتمل الموسوعة على قرابة 600 وثيقة، و1500 صورة.
36 كشافًا تفصيليًا موسعًا لأبرز المعلومات والأحداث والشخصيات والأماكن والأدوات والأسلحة الواردة بهذه الموسوعة الشاملة.





قتل الأفكار الجميلة



ناصر بن محمد الزمل

رئيس التحرير @nalzumal

يقول الروائي الفرنسي الشهير فيكتور هوجو:
"لا يمكن لأي جيش أن يصمد أمام قوة فكرة حان وقتها"..



"العديـد مـن الأفـكار العظيمـة تأتي من مصـادر "جاهلـة". الفكـرة الأولى لكامـيرا بولارويد لم تـأت من عالم في مختبر إدوين لانـد، ولكن جـاءت من ابنتـه البالغة من العمر ثلاث سـنوات، في عطلة في جراند كانيون في عام 1943، وسـألت: لمـاذا لا تسـتطيع أن تـرى الصورة التي اتخذت لها للتو؟"

هناك مشكلة يتمتع بها معظم الناس دائمًا ما يميلون إلى قتل الأفكار الجميلة والإبداعية: إما في وقت مبكر جدًا أو متأخر جدًا، وهي تحبط وتقوض من عملية الابتكار.

وفي مجتمعاتنا العربية دائمًا نجد المحبطين مرتكبي المجازر للأفكار العظيمة بالتقليل منها وبتسخيفها.

وعلى الجانب الآخر يمكن قتل الأفكار في عقلك بوضع عدد من المعوقات كالانتقاد والخسارة أو تطلق على نفسك أسئلة تعجيزية عن هذه الفكرة .. فتقتل فكرتك قبل أن ترى النور..

دائمًا الأفكار العظيمة تولد صغيرة ثم تنمو وتتطور .. فمثلاً كيف كان حال هاتفك الجوال الذي تمتلكه وتدير به شؤون حياتك اليومية من خلاله قبل 20 عاماً هل هو الحال نفسه كما هو، ولو فكرت بحال الطائرة التي تستقلها وتتنقل بها في اليوم الواحد عدد من المدن قبل 100 سنة حينما طار بها الأخوين رايت هل بقيت على الحال نفسه.. أم أصبحت الأسرع من الصوت وعابرة للقارات.

العديد من الأفكار العظيمة تأتي من مصادر "جاهلة". الفكرة الأولى لكاميرا بولارويد لم تأت من عالم في مختبر إدوين لاند، ولكن جاءت من ابنته البالغة من العمر ثلاث سنوات، في عطلة في جراند كانيون في عام 1943، وسألت: لماذا لا تستطيع أن ترى الصورة التي اتخذت لها للتو؟

وحينما تعرض أفكارك وتتوقع من الآخر التفاعل معك لكنك تصدم بجملة منه، قد تكون هي واحدة من الأسئلة القاتلة .. ثم يدير دفة الحوار إلى موضوع آخر ..

فالأفكار العظيمة تقتل بثلاثة أسلحة شائعة، هي: الحسد، والغباء، والسلطة على الأشخاص الأذكياء..

لكن لم تكن أنت الوحيد، هناك العديد من أصحاب الأفكار العظيمة مروا بهؤلاء، وجدوا الجلاد نفسه لأفكارهم..

منهم توماس أديسون حينما سمع تلك الكلمات من مستثمر بسبب ضياع وقته بعد مناقشة معه لتمويل اختراع الفونوغراف، عندما قال له:

"لو سمحت! احمل هذه الألعوبة معك خارج مكتبي!..

وقد أكد أديسون نفسه: إن العبقرية تتكون من 1% إلهام و 99% عرق؟

قد تكون كلمات الإحباط متعمدة أو غير متعمدة، وقد تكون في لحظات جهل.

فمثلاً الطابعة:

فهل تقدر على إحصاء عدد الوثائق المنسوخة التي تمرّ بين يديك و بين أيدي زملائك الموظفين في المكتب كلّ يوم؟ في دنيا الأعمال والمكاتب المعاصرة، تعد الناسخة photocopier إحدى اللوازم المسلّم بحضورها، وقد كانت كذلك طوال عقود ماضية.

ولكن هل تعلم أنّه عندما طرق تشستر كارلسون أبواب شركات التكنولوجيا الكبرى مثل IBM و Kodak لبيع فكرته الجديدة "الطابعة" أغلقت الأبواب في وجهه؟! التي أطلقت عليها مجلة فورشن ذات مرة "أكثر المنتجات نجاحًا في التاريخ".

أخيرًا في أكتوبر من عام 1983، أعلن "كارلسون" وشركه "أوتو كورني" عن ظهور أول آلة نسخ مكتبية، ورفضت عشرون شركة اختراعه من بينها جنرال إلكتريك وآر سي إيه وأي بي إم قبل أن تشتريها شركة هالويد عام 1946، التي أضافت كلمة زيروكس لاسمه عام 1958.

تتمة القصة؟ كما قال أديسون... عرق!

بعد خمسة وسبعين مليون دولار أنفقت على الأبحاث قامت شركة هالويد زيروكس غير المعروفة حينئذ – التي هي الآن زيروكس Xerox – بإزاحة الستار عن أول ناسخات زيروكس بسعر 29500 دولار للواحدة، أو بأجرة 95 دولار شهريًا تتضمن ألفي نسخة مجانية بالإضافة إلى الصيانة المضمونة للنسخ -الشديدة الحساسية آنئذ- لقد كان نجاحًا صاعقًا تمخضت عنه جهودٌ استمرّت نحو خمسة وعشرين عامًا.

هل تظن أن الفكرة كانت معتنقةً داخل زيروكس ومحميةً من صقيع الخارج إلى أن تنضج؟ لا يا عزيزي لم يكن الأمر بهذه السهولة! مجموعة التطوير ذاتها كانوا يشكّون بها ويكادون يرفضون العمل بها!

قال جون ديسلو رئيس قسم الأبحاث والتطوير في هالويد زيروكس "أعضاء كثر في مجموعة التطوير كانوا يتردّدون إليّ ويتذمّرون من العمل على الفكرة السخيفة، التي يعتقدون بأنّها لا يمكن أن تشتغل".

أجل، كلّ هذا الارتياب و التسخيف رافق نشأة المنتج الذي أصبح في النهاية لازمةً من لوازم العمل، و تحوّل لدى زيروكس إلى عمل بقيمة خمسة عشر ألف مليون دولار.

ماذا نتعلّم من القصة؟ لا شيء سوى:

ألا تخنق أفكارك قبل أن تتيح لها الفرصة العادلة للوقوف على قدميها وإثبات جدارتها فلا يمكن محاكمة الأفكار... وهناك قرار بالسجن أو الإعدام موقّعًا سلفًا في مواجهتها.

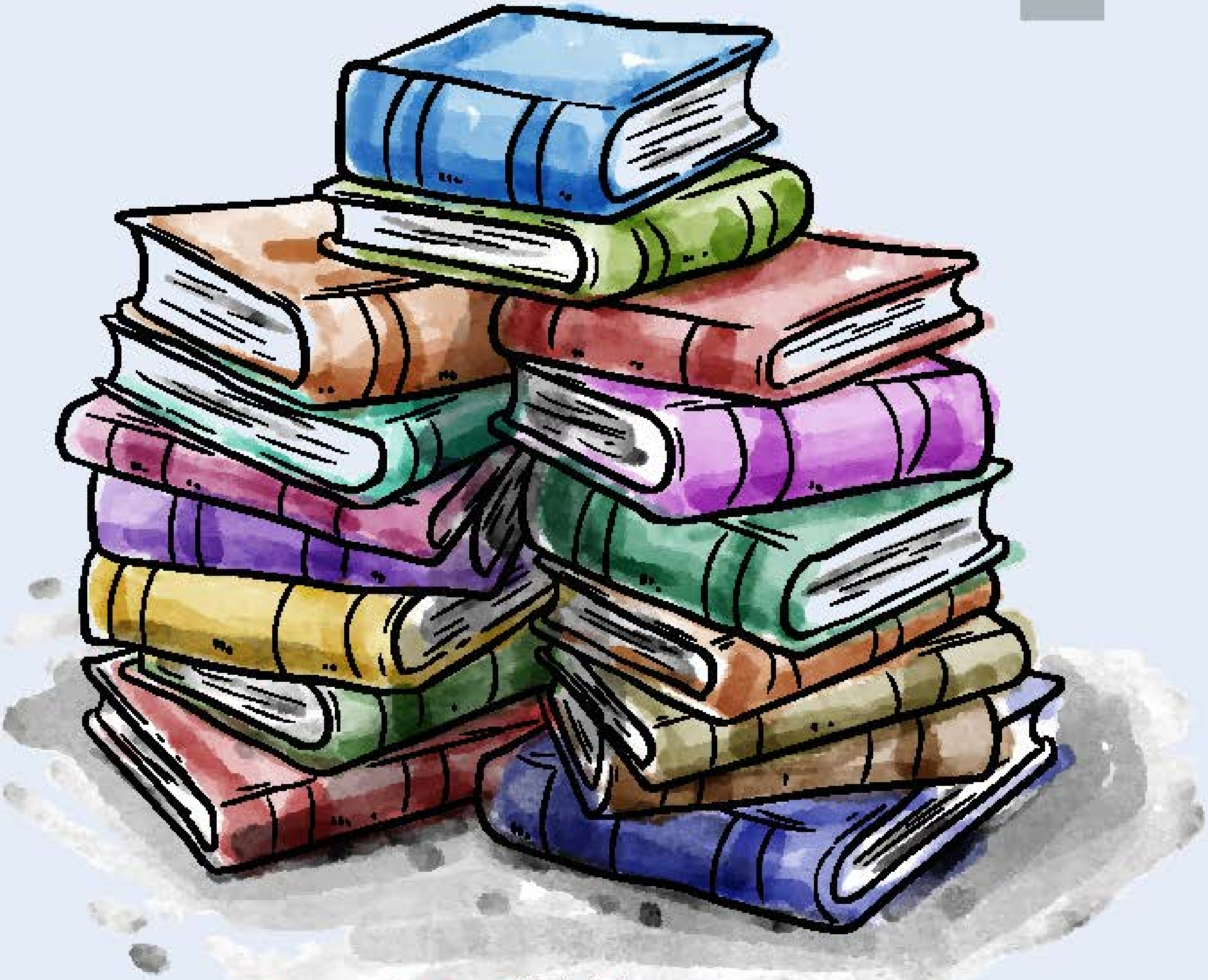
إذا أردنا أن نكون جزءًا في نجاح الأفكار الجميلة، فيجب علينا أن نتجنّب المحاكمة المتسرّعة، وألاّ نتناولها إلاّ بموضوعيّة ونتيح لدراسة الوقت الكافي.

يرى الكاتبان جاريسكي وكابست (نيويورك، معهد التعليم الدولي 2009):

«عندما يقتل عالم ويُسكت، فإننا نفقد عمرًا قضاه في التدريس والتعلّم، وكان بوسعه أن يقدم لمئات الطلاب آلاف الساعات من التعليم، وكل الفوائد التي تنجم عن ذلك بالنسبة إلى المجتمع عمومًا، ويسكت علماء آخرون بسبب الخوف، ويتردد الطلاب في متابعة التعليم، ويتضرر الوسط الفكري بأكمله، وهو الأساس الضروري لأي بلد لإقامة نموه وتنميته عليه.

«إن مقتل العالم أو حتى إسكاته يؤدي إلى قتل الأفكار – تلك الأفكار التي كان بمقدورها أن تقدم علاجات جديدة للأمراض وأن توفر النمو الاقتصادي في البلدان النامية أو تحسن أساليب نتاج الأغذية أو توفر حماية أفضل لقطاعات المجتمع الأضعف».

لكن نستطيع أن نقول: أن الفاشلين لا يرون سوى المال ودائمًا يغمضون أعينهم عن عناصر النجاح وأسباب الفشل، أما الناجحون فيركزون على عناصر التميز والنجاح ذاتها، ويدركون أن المال والشهرة يأتيان حتمًا كنتيجة ثانوية وغير متوقعة.



الكتابة قديمًا وحديثًا



د. علي بن محمد العطيف

أستاذ الحديث والدراسات العليا

بجامعة الملك خالد

تُعد الكتابة إحدى أدوات التواصل بين الشعوب، ولا يتأتى ذلك إلا بعد إتقانها، وبها يتم توثيق النطق ونقل الفكر والأحداث وغيره..

- مفهوم تحرير الكتابة وأهميتها.

تعريف التحرير: هو فنُّ الكتابة الصحيحة، ونعني به الصياغة المحكمة، التي تؤدي المعنى المراد التعبير عنه.

الكتابة ضرورة:

لقد شعر الإنسان من القديم بأهمية الكتابة وعجزه عن تذكر الأحداث، والأعداد والتواريخ، فعمل على تدوينها في صورة ثابتة، يمكن الاحتفاظ بها والرجوع إليها كلما دعت الحاجة.

فتوصل إلى تحويل الرموز الصوتية – أي اللغة – من رموز سمعية إلى رموز مرئية.

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ سورة الرحمن: 4.

أهمية الكتابة في الحياة للأمور التالية:

1 - أنها وسيلة اتصال بين العقول والأفكار البشرية، مهما اختلفَ الزمان والمكان عن طريق المؤلفات ... وغيرها.

2 - أنها أداة اتصال الحاضر بالماضي، والقريب بالبعيد، ونقل المعرفة والثقافة عبر الزمان والمكان. فالكتابة طريق لوصل خبرات الأجيال ببعضها، والأمم ببعضها، وأداة لحفظ التراث ونقله.

3 - أنها أداة رئيسة للتعلم بجميع أنواعه ومراحله، والأخذ عن الآخرين أفكارهم، وعلمهم وخواطرهم.

4 - أنها وسيلة لتنفس الفرد عن نفسه، والتعبير عما يجول بخاطره.

5 - أنها تَفْضُلُ الكلام؛ لأنَّ الكلام يتم – غالبًا – دون طول تأمل، وقد يقع صاحبه في الخطأ الفكري أو اللغوي، لأنه وليد ساعته، أمَّا الكتابة فإنها تستلزم الرؤية والأناة والتمهل، وتعطي صاحبها فرصة لتصحيح أخطائه وتعديلها. ولهذا فالكتابة: أكثر أمانةً[1] وأمانًا[2].

6 - أنها – غالبًا – ما تستخدم الفصحى في أدائها؛ فتساعد على رُقي اللغة، وجمال الصياغة.

7 - لغة الكتابة تتوجهُ إلى جمهور كبير، أمَّا لغة الكلام والحديث، فتتوجه إلى جمهور قليل.

- **أدوات الكتابة:**

إتقان الأداة، وينقسم إلى قسمين: حسي ومعنوي.

أ/ الأداة الحسية: ويتمثل ذلك في وجود القلم، وإتقانه، وجودة حِبْره، وما إلى ذلك. وكذا في اختلاف صورة الحرف، حسب موضعه من الكلمة. وفي وصله وفصله. وفي اختلاف الخطوط.

ب/ الأداة المعنوية: والمقصود بها: معرفة قواعد اللغة العربية والضبط النحوي، وهو تغير أواخر الكلمات بتغير موقعها في الجمل، وهي ما يسمى بالإعراب.

والإعراب تارة: يكون بعلامات أصلية، وتارة بعلامات فرعية، وتارة يكون بالحركات، وتارة يكون بالحروف.

بل إنَّ الإعراب قد يؤثر أحيانًا على الحروف الوسطى من الكلمات بالحذف، أو بتغيير رسمها، وقد تكون العلامات علامات إعراب، وقد تكون علامات بناء.

وهذه العوامل كلها تمثل صعوبة في الكتابة والماهر من يراعيها في كتاباته.

ومن الأداة المعنوية: مراعاة قواعد الإملاء، ومراعاة الضبط الصرفي، والمقصود به: وضع الحركات القصار (الفتحة، والضمة، والكسرة) على الحروف.

لأنَّ معنى الكلمة يتغير بتغير ضبط حروفها فما لم يظهر الضبط فوق الحرف من الكلمة، فإنه لا يُعرف معناها مثل كلمة (عرض)، فإذا لم تضبط حار فيها القارئ، أهي (عَرْض، أم عِرْض، أم عَرَض) ولكل منها معنى.

وكلمة (عبرة) أهي: (عِـبْرَة، أم عَـبْرَة)، وغيرها من الكلمات كثير.

- **مستلزمات الكتابة**

التمرس بالأساليب الثقافية والأدبية، ولا يتأتى هذا الشرط إلا بالمطالعة الغزيرة الواعية للكتب الأدبية المشهورة، وقراءة الآثار النثرية والدواوين الشعرية التي أبدعها شعراء معروفون بموهبتهم وقدراتهم، مع العمل على تذوقها وتمثلها وفهمها.

وليس من شك في أنَّ القاعدة الأساسية التي تبنى عليها القراءة والمطالعة هي حفظ كتاب الله عز وجل ودراسته دراسة عميقة، ومداومة الاطلاع على تفاسيره المعتمدة.

فالقرآن الكريم هو المصدر والمرجع في فهم اللغة وتذوقها.

فلغة القرآن هي البيان المعجز، ومنهل الفصاحة والبلاغة.

والإلمام بآي الذِّكر الحكيم: يُرَبِّي الذَّوقَ، ويُصَقِّلُ اللسانَ، ويؤسسُ ملكة الكتابة، ويزودُ الكاتب بمدد لا ينقطع من الحجج والبيان والذوق الرفيع.

ويأتي الحديث الشريف في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم.

فالنبي صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد، وهو أفصح ولد إسماعيل عليه السلام.

فحفظ الأحاديث واستحضارها له أهميته في الكلام والكتابة والتأليف. ولا تستقيم الكتابة ولا تجود إلا بالاستشهاد بالأحاديث النبوية، وسيرته صلى الله عليه وسلم العطرة النقية.

والحفظ من الضرورات والمهمات التي لا غنى عنها لمن أراد أن يكون فارسًا مجليًا في ميدان الكتابة والتأليف.

والذي يراجع وصايا العلماء قاطبة، ووصايا الأدباء والشعراء للناشئة من المبدعين في كتب الأدب القديم، كالعمدة لابن رشيد يقع على سرد مهم من أسرار الكتابة والإبداع؛ فهم يوصون بحفظ الدواوين والمأثورات، فضلاً عن حفظ القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية.

وكذلك فإنَّ العديد من شعرائنا القدامى قد استظهروا عشرات الآلاف من أبيات الشعر الجيدة.

حتى إذا تهيئوا للكتابة والنظم عملوا على نسيانها والتخلص من سلطانها بعد أن استقامت لغتهم واستوت قرائحهم، فالحفظ لا بد منه لإتقان الكتابة.

وقد عقد ابن خلدون – في مقدمته – فصلاً كاملاً عن أهمية الحفظ في تنمية ملكة اللسان والكتابة، وهو (الفصل الثامن والأربعين) بعنوان: "حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ" ويعني بالملكة هنا ملكة الكتابة والإبداع.

وقد أشار ابن خلدون إلى أنَّ شعر الفقهاء والعلماء قاصرٌ في البلاغة، نظرًا لأنَّ محفوظهم غني بالقوانين العلمية والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة.

ويشير ابن خلدون إلى سر تفوق الإسلاميين على الجاهليين في خطبهم ومحاوراتهم فيرى أنه يعود إلى مدارستهم للطبقة العالية من الكلام من القرآن الكريم والحديث الشريف، فقد روَّض هذا الكلام ملكاتهم وسَمَا بها.

ويرى ابن الأثير أنَّ الطريق إلى تعلم الكتابة عل ثلاث شعب:

الأولى: الاطلاع على كتابة الأقدمين وتقليدهم، وهذا أدنى الطبقات.

الثانية: مزج كتابة المتقدمين باختيار الكاتب الخاص من وسائل تحسين اللفظ والمعنى، يصف ذلك بأنه الطبقة الوسطى.

الثالثة: صرف النظر إلى حفظ القرآن الكريم، وبعض الأحاديث الجامعة المختارة، وجملة مختارة من دواوين فحول الشعراء، ومران النفس على المحاولة بالاقتباس والتجربة والتي قد تصيب وقد تخطئ.

ويصفها: بأنها طريق الاجتهاد، حيث يستقيم لصاحبها منهجًا خاصًا في الكتابة، فيصبح إمامًا في فنِّ الكتابة إلا أنها مستوعرة – كما يقول – ولا يستطيعها إلا من أُوتي ملكة متميزة وموهبة فذَّة.

وبالجملة: فهو التمرس الكامل على النصوص الرَّفيعة.

- الإلمام بالثقافة العصرية الجادة.

يشهد عصرنا الراهن انفجارًا معرفيًّا فريدًا، فقد تعددت وسائل الثقافة، وتكاثرت سبلها من سمعية وبصرية.

ويقوم الحاسب الآلي – الآن – بدور مهم في إثراء الثقافة الإنسانية وذلك بما يختزنه من معلومات، وما يستثمره من طاقات وخبرات، وما تفيده الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) في ذلك من فائدة كبيرة.

وكذا الهواتف الذكية بتطبيقاتها المتنوعة، والحوافظ المتنوعة، فإنها هيأت للإنسان الكثير من المعارف التي لم تكن ميسرة من قبل.

ولكن خطورة هذه الأجهزة تكاد تساوي منافعها أو تزيد، فالأقمار الصناعية العالمية تمكنت وفي مدة وجيزة من غزو البيوت العربية والإسلامية بما تحمله من برامج تنصيرية وإباحية وتسويقية لمنتجاتهم، وعولمة.

ومع هذا فإنَّ الوعيَ بأخطار هذه المعاول، والوعي بشخصيتنا الإسلامية المتميزة – وقبل ذلك كله – الوعي بمعتقداتنا الراسخة والثابتة، وفهم واقعنا، وإدراك جوهره لسوف يعصمنا – بإذن الله – من الفتن والضلال.

والثقافة في مفهومها العام ليست تحصيل المعلومات واختزانها وحشو الأدمغة بها، بل الثقافة: سلوك، ورؤية، وموقف.

فعلاوة على القراءة والاطلاع والتحصيل، هناك الخبرة الحياتية التي لا تتأتى إلا لمن عركته الحياة واستفاد من تجاربها.

فالرحلة: ثقافة لأنها تكسب الإنسان خبرة ومهارة.

والكتابة: الناضجة المفيدة تحتاج إلى هذه الخبرة: بل إنَّ التجربة مادتها الرئيسة لأنَّ بها تشكل الرؤية، ومن خلالها يتخذ الموقف.

والثقافة العامة روافد مختلفة، وهي تحتاج إلى بصر بالموضوعات النافعة، والكتب المفيدة.

وعصرنا الذي نعيش فيه يكتظ بالإصدارات المتعددة من صحف ومجلات، وكتب، وأشرطة متعددة المواد، وبرامج متنوعة.

ولهذا فإنَّ حسن الاختيار يشكل القاعدة التي توصلنا إلى منافع الثقافة الحقيقية.

وعلى الرغم من أننا في عصر التخصص، إلا أنه لابد من الإلمام بشيء من العلوم العصرية، كذلك فإنَّ علينا أن نعي ما يدور حولنا من أحداث في مختلف المجالات، فما لا يدرك كله لا يترك جله.

الهوامش:

1 - في العزو والإحالة... ونحو ذلك.
2 - من الوقوع في اللحن والخطأ.

التحيز في الأدب 1-2



أ.د. إبراهيم بن محمد الشتوي

أستاذ الأدب والنقد – قسم الأدب

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كنا قد قرأنا إبان دراستنا الأدب في عصر بني أمية ظاهرة الأدب السياسي، وكان المقصود بها تلك الآداب التي ينحاز فيها أحد الأدباء إلى فئة اجتماعية، يرى أنها أحق بسياسة الأمور من سواها؛ فيجند أدبه لهم، ولأفكارهم، ومن يحبهم؛ فظهر الشعراء والخطباء الذين يميلون إلى الخوارج، ودعوتهم، والذين يميلون إلى ابن الزبير، أو أهل البيت، أو الأمويين.

وهذا التحيز يشبه أنواعًا أخرى، ظهرت بشكل جلي في الأدب القديم، كالموقف من السود الذين كانت الثقافة العربية القديمة تنظر إليهم نظرة دونية، كما في قصة عنترة المشهورة، والسليك بن السلكة وغيره، ممن كانوا يسمون بأغربة العرب، وكما في الحكاية التي جاء فيها أن نصيبًا الشاعر مدح عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فأعطاه مالاً كثيرًا، وكسوة، ورواحل، فقيل له: أمثل هذا الأسود يعطَى هذا المال؟ مما يدل على النظرة الدونية التي ينظر بها المجتمع لهم.

ويلحق بهذا النوع من التحيز الموقف من المرأة في الثقافة العربية، وهي قضية تحدث عنها النقاد والدارسون النسويون كثيرًا، ومظاهرها امتلأت بها كتب الأدب، ابتداء من وأد الإناث إلى اعتبارهن عبئًا وعارًا يحسن التخلص منه.. ويمثله أكبر تمثيل قول الشاعر وهو يرثي ابنة أخته:

قد كنت أخشى عليها أن تقدمني

إلى الحمام فيبدي وجهها العدم

فالآن نمت فلا هم يؤرقني

بهدا الغيور إذا ما أوتت الحرم

ففي الوقت الذي يرثيها يبدي سروره بموتها؛ لأنه لن يقلق بعد ذلك على انكشاف وجهها بعده؛ وهو ما يجعله ينام قرير العين، هادئ البال، وهذا السرور الذي أصابه بوفاتها ليس خاصًا به، بل هو عام بكل غيور يرى في وفاة محارمه راحة له وطمأنينة.

ولا يقتصر الأمر على ما يتصل بالعار، والعيب، والغيرة مما يدور حول صلة المحارم بالرجل الأجنبي، بل يتجاوز إلى الشك بعقل المرأة، ومسؤوليتها، وعجزها عن إدراك حقائق الأمور، وتفضيل الصبيان عليها؛ ففي كتاب البيان والتبيين يروي الجاحظ بعض الآثار التي تؤكد هذه الحقيقة كقولهم: «لا تدع أمك ولدك تضربه، فإنه أعقل منها وإن كان طفلاً»، أو المقولة الأخرى التي فيها النهي عن مشاورة ومحادثة النساء، لتأثير ذلك على عقله.

وتنعكس هذه النظر على الواقع؛ فتجد النهي عن تعليم النساء القراءة والكتابة شائعًا، من جهة، ومن جهة أخرى نجد قلة رثاء الرجال للنساء في الأدب القديم

الذي سودت النساء صفحاته في بكاء الرجال، وتخليد مآثرهم، وتعدادها، حتى إن القدماء لم يفضلوا النساء في الشعر إلا في الرثاء. وهناك سبب آخر لتفضيلهم المرأة بهذا الفن، لا يخرج عن الصورة الكلية للتحيز، بل تؤكدها، وذلك أنهن يرثين الرجال، ويذكرن مفاخرهم؛ فأشعارهن دواوين تمتلئ بصفاتهم، لا تختلف عن دواوين الفخر، أو المديح. هذا التدوين للصفات بعد الممات لا يقدر عليه كثير من الرجال الذين قال قائلهم حين سُئل: ما بال مدائحكم أجود من مراثيكم؟ فقال: لأن المدح على الرجاء، والرثاء على الوفاء، والوفاء عزيز، وجاء في شعر النساء على أكمل وجه.

فالقصائد التي كتبها الرجال في رثاء نسائهم ربما تعد على أصابع اليد في مقابل قصائد النساء، وقد قال البحتري:

ولعمري ما العجز عندي إلا
أن تبيت الرجال تبكي النساء

وإذا كان الشاعر السابق يعبّر عن ارتياحه بوفاة قريبته، فإن البحتري يذهب إلى أن بعده من النعم التي ينبغي شكر الله عليها:

ومن نعم الله لا شك فيه
بقـاء البـنين ومـوت البنـات
لقول النبي عليه السلا
م: دفن البنات من المكرمات

ولا يقتصر الأمر على الرثاء، بل إن العزاء في النساء أمر معيب؛ فقد روي عن عبدالملك بن مروان وعمر بن عبدالعزيز، وقد مات بعض أهل بيتهما، رفضهما العزاء فيهن، وقولهما: «إنا لا نعزى بالنساء». وذكر المبرد أن الرجل لا يعزى بامرأة ماتت له إلا في أمه. وهذا يؤكد معاملة المرأة معاملة خاصة في كل شيء، قائمة على جنسها، وهو نوع من التحيز.

وهناك نوع آخر من التحيز لا يقوم على المواقف الاجتماعية، وإنما يقوم على المواقف الأدبية، ويؤثر في أحكام القيمة المصدرة على النتاج الأدبي، وكنت قد ذكرت عن الموقف العام من شعر النساء، فقلت: إن العرب لم يروا للنساء تفوقًا إلا في الرثاء، وذكرت أن سبب هذا الموقف لا يعود إلى جودة الشعر، وإنما إلى موضوعه، حيث يكون خالصًا لرثاء الرجل، والبكاء عليه، وتعداد مآثره، ومناقبه، ثم إنها تعطي الصورة المحببة للرجل التي تبدو فيها، وهي تبكي على فراقه، وانحطمت حياتها بدونه، فليس لها قدرة على العيش بدونه، وهذا يتوافق مع النظام البطريركي السائد.

هذا الموقف من شعر النساء لا يعتمد على قيم موضوعية، أو معايير فنية، بقدر ما يعتمد على جنس

"ففي الوقت الذي يرثيها يبدي سروره بموتها؛ لأنه لن يقلق بعد ذلك على انكشاف وجهها بعده؛ وهو ما يجعله ينام قرير العين، هادئ البال. وهذا السرور الذي أصابه بوفاتها ليس خاصًّا به، بل هو عام بكل غيور يرى في وفاة محارمه راحة له وطمأنينة"

القائل، وهذا يبدو في المقولة المشهورة المنسوبة للنابغة حين قال للخنساء، وقد أنشدته الشعر في عكاظ، «اذهبي، فأنت أشعر بنات جنسك»، وفي رواية، «فأنت أشعر ذات ثديين»، التي تعني أن الخنساء، وشعرها إنما تقارن ببنات جنسها، وأما الشعراء الذكور فلا يمكن أن تقارن بهم.

وهو الموقف الذي تؤكده المقولة الأخرى المنسوبة إلى بشار بن برد حين يقول: «لم تقل امرأة شعرًا قط إلا تبين الضعف فيه، فقيل له أو كذلك الخنساء؟ فقال: تلك كان لها أربع خصى».

وهذا الموقف لا يتصل بالشعر نفسه بقدر ما يتصل بالموقف من الأنوثة نفسها، التي تحيل إلى الضعف والنقص في المخيال العربي. هذا الضعف وصل إلى وصف كل أنثى بالضعف، ووصف كل موصوف بالضعف بالأنثى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾، وقال الشاعر:

إني وكل شاعر من البشر
شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

فالشيطان الذكر مقدم على الشيطان الأنثى، وهو مدعاة للفخر.

وكما أصبحت الأنوثة قيمة يعتمد عليها في الحكم على الشعر، والنظر إليه، فإن لون البشرة أيضًا كذلك، فإذا كان لون بشرة نصيب في المقالة السابقة سببًا قادحًا في أهلية حصوله على الجائزة، فإنها في حكاية أخرى كانت قيمة يعتمد عليها في تقويم الأدب، وتحديد مكانة الشاعر الفنية، فقد روي أن نصيبًا كان في مجلس سليمان ابن عبدالملك بحضرة الفرزدق، فأنشد نصيب شعرًا في مدح الخليفة، وحين فرغ من ذلك، سأل الخليفة الفرزدق عن رأيه فيما سمع، فقال: «هو أشعر أهل جلدته»، يقصد السود، فقال: سليمان بن عبدالملك: «وأهل جلدتك أيضًا»، يريد أن اللون لم يغير قيمة شعره، فغضب الفرزدق، فقام وهو ينشد:

وخير الشعر أكرمه رجالا
وشر الشعر ما قال العبيد

فشر الشعر هنا منسوب إلى قائليه، وليس إلى قيم فنية أو موضوعية، وهذا هو التحيز.

بل إن بعض الباحثين يرى أن مفهوم الفحولة في الشعر ذو ارتدادات اجتماعية، ويعتمد على مقولة الفرزدق حين سأله ذو الرمة: «ما لي لا أعد في الفحول»، قال: «قصر بك عن ذاك بكاؤك في الدمن، ونعتك أبوال العظاء والبقر، وإيثارك وصف ناقتك، وديمومتك».

والمقصود أنه يطيل القول في موضوع غير ذي بال، وهو الوقوف على الأطلال، وكان الشعراء يكتفون منه ببعض الأبيات، ثم ينصرفون إلى موضوع القصيدة. وهي المآخذ التي قيلت بعد ذلك في نقد ذي الرمة، أنه يجيد وصف الظعائن، والصحراء، فإذا بلغ المدح أو الهجاء أكدى أي عجز.

وهنا بيت القصيد، فالفحولة ليست بناء على جمال الشعر بإطلاق، ولكنها بناء على المقدرة في موضوعات معينة، تتحدد في المقولة الأخيرة، بـ«المدح، والهجاء»، فالمدح لأن الشعر يقال في فئة اجتماعية معينة يمكن أن تمدح، وقد جاء في بعض التراجم القديمة عندما يصفون أحد السادة، يقولون: إنه كان «ممدحًا»، على سبيل الثناء على تلك الشخصية، وبيان مآثرها، فالمدح لا يكون إلا «للسيد ذي الأيادي» كما يعبر أبو تمام، فالمدح والسيادة متلازمتان، وهذا يكسب المدح قيمته.

وأما الهجاء فلأنه إذا غلب شاعرًا معينًا دل على قوة شعره، وقدرته على إفحام الخصوم والظهور عليهم، وبهذا سمي علقمة بن عبدة بالفحل، حين حكمت أم جندب له بالتقدم بالشعر، ولا يهم بعد ذلك إذا كانت قصيدة امرئ القيس كانت أجود.

ويدخل في المديح، ويتصل به الحديث عن القبيلة، فقد كانت العرب تقدم الشاعر الذي يعني بمآثرها، فيمدحها، ويعدد مناقبها، ويرثي موتها، وكذلك كان الشأن في لبيد، فيذكر أبو عمرو بن العلاء أن خداشًا بن زهير أشعر في قريحة الشعر من لبيد، وأبى الناس إلا تقدمة لبيد، ويبدو أن سبب ذلك ما ذكره ابن سلام عنه أنه كان خير شاعر لقومه؛ يمدحهم، ويرثيهم، ويعد أيامهم، ووقائعهم، وفرسانهم.

وهذا يعني أن المكانة الأدبية التي نالها لبيد، وبها تقدم على خداش استجابة للمكانة الاجتماعية، وليست قائمة على القيمة الفنية، كما في رأي أبي عمرو، وفي رأي الأصمعي الذي عد خداشًا في الفحول، وقال عن لبيد: «كان رجلاً صالحًا»، وبصياغة أخرى لأن لبيدًا احتلت مكانة عالية في قومه، فإنهم تحيزوا إليه، وقدموه على خداش مع أنه لا يتقدم في الشعر عليه.



مع ألبير كامو وعالم العبث والتمرد

أ.د. عبدالله بن محمد الشعلان

قسم الهندسة الكهربائية - كلية الهندسة

أستاذ كرسي الزامل لترشيد الكهرباء

جامعة الملك سعود - الرياض

لخص الروائي والفيلسوف الفرنسي البارز ألبير كامو الذي منح جائزة نوبل للآداب سنة 1957م وهو لم يتجاوز الرابعة والأربعين من عمره لخص مجمل إبداعاته في رواياته، وأبرزها: (الطاعون، الغريب، الوجه والقفا، أعراس، أسطورة سيزيف، الإنسان المتمرد) على أن على الإنسان أن يجمع بين االفوضى والرتابة وبين العقل والجنون وبين التوتر والاستقرار، ويكون سلاحه في ذلك هو التمرد. وألبير كامو ولد في مدينة موندوفي من أعمال محافظة قسطنطينة بالجزائر عام 1913م، وبعد أن توفي والده في الحرب العالمية الأولى انتقل مع والدته إلى الجزائر العاصمة، ليقطنا في أحد أحيائها الشعبية المتواضعة، وحيث أبدى نبوغًا وتفوقًا في دراسته، فقد تمكن من إكمال دراسته المتوسطة والثانوية، وفي هذه المرحلة أصبح شغوفًا بالرياضة وبخاصة كرة القدم، ولكن ولعه ذاك بتلك الرياضة لم يدم طويلاً، حيث أصيب بداء السل وهو في السابعة عشرة من عمره وفي العام نفسه (1930م)، الذي كان الفرنسيون يحتفلون فيه بالذكرى المئوية لاحتلالهم الجزائر، والذي استمر مئة واثنين وثلاثين عامًا (1830 – 1962)، الأمر الذي جعله يتخلى عن مزاولة رياضته المحببة ومن ثم يتوجه نحو الاهتمام بالأدب والكتابة، ولقد اصطبغت توجهاته في الكتابة بمقته الشديد لأساليب القوة والعنف والسيطرة وإدانته للاستعمار الفرنسي للجزائر، ويتبدى ذلك في قوله: "إن أكبر معركة يجب أن يخوضها الإنسان هي معركته مع نفسه، معركة ينتصر فيها حب العدالة على شهوة الحقد". إن مولده وترعرعه في بلد المليون شهيد جعله أكثر ميلاً له وتعلقًا به وتفاعلاً معه، فطفق يدعو إلى تمرد الجزائريين في وجه الاستعمار الفرنسي، فيعلن موقفه الواضح بقوله: "إن نفوس الفرنسيين مليئة بالحقد وهو حقد أسود أرفض أن أشارك فيه، لقد كلفتنا هذه القضية كثيرًا ومازالت تكلفنا، فليس لشعب أن يستمد حريته من استعباد شعب آخر". ولقد بدأ اهتمام كامو بالأدب والكتابة ذلك الاهتمام، الذي زرعه فيه أستاذ مادة الفلسفة لوسيان جيرمان، الذي أذهلته مواهب كامو ونبوغه، فقدمه لنيل منحة الصف الثانوي، إبان دراسته في مدرسة جان جرانيه في الجزائر، ولقد بدأ هذا الاهتمام ينمو ويتعاظم لديه بعد أن أنهى دراسته الجامعية، فقام بنشر أول كتاب له: "الوجه والقفا"، وهو عبارة عن كتابات قصصية قصيرة ذات طابع وجداني، ثم أصدر كتابه الثاني: "أعراس"، وله أيضًا الطابع القصصي الوجداني نفسه، ثم بدأ اسمه يلمع على المستوى الأدبي بعد صدور روايته الأولى "الغريب" سنة 1942م، ثم توالت مؤلفاته بعد ذلك تباعًا، فنشر رواية "أسطورة سيزيف" و"الخطأ" و"كاليجولا" و"الطاعون" و"حالة حصار" و"العادلون" و"الإنسان المتمرد".. إلخ.

أخذ اسم ألبير كامو يلمع في سماء الصحافة والإبداع الفكري، وصار الكثيرون يعرفون هذا الاسم، وبخاصة في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وللبعض ممن لم يكن لهم اهتمام خاص بالإنجازات الأدبية كان اسمه يعني ذلك الشاب المناضل النشط في حركة المقاومة الوطنية السرية الفرنسية ضد الاحتلال النازي، الذي اجتاح العاصمة باريس، وأناخ بكلكله عليها قرابة أربع سنوات، ومع أن كامو لم يتعد أواسط عقده الرابع إلا أن ما أنجزه في حقلي الصحافة والأدب يعد شيئًا ذا بال، فقد كتب روايات وقصصًا ومسرحيات تتسم بالتميز والأصالة، وتجسد تجاوبًا وتجاذبًا وتماهيًا مع الحياة المعاصرة، ولكون ألبير كامو ولد ونشأ وترعرع في بلد مثل الجزائر، تنتمي إلى القارة الإفريقية، فإنه يحمل شعورًا قويًا وإحساسًا دافقًا نحو بلاد شمال أفريقيا، يليها بعد ذلك بلاد اليونان، حيث إنها البلاد التي وجد فيها فضائل الأصل الذي يرجع إلى إقليم البحر المتوسط، ولقد برز ذلك الشعور واضحًا في مقال كتبه عن اليونان عام 1948م، وازن فيه بين الحضارة الرعوية التي تميزت بها اليونان وبين الاضطراب المدني الذي تتسم به أوروبا الحديثة، كما نوه بموقف الاعتدال والتشكك الذي اتسم به الفكر الإغريقي القديم – وفقًا لمفهومه- وذلك في مقابل ما يسميه بالنزوع نحو المطلق في الفكر الحديث. وتفصح مقالات كامو عن سمتين بارزتين هما: نزعة عبثية فطرية وأخرى تأكيد دائم على معايشة المرء لبيئته معايشة مادية، ويناقش كامو في هذه المرحلة بصفة أساسية كلا السمتين من منظور الإحباط الفكري من جهة واللذة الحسية من جهة أخرى، ولا يزال دؤوبًا على ذكر علاقة التضاد بين "رهبته للموت" وبين "ولعه بالحياة" ملتمسًا التوفيق بين التجربتين طريقًا وسطًا بين المواقف المتطرفة في كل من التفكير والسلوك. وقد كان اليونانيون على وعي تام بهذه الثنائية الحياتية المتباينة، لذا عملوا على إيجاد طرائق من التفكير تعمل على التقابل المأساوي بين الضدين، وهكذا نرى كامو يلجأ لليونانيين يلتمس عندهم التأكيد على حقيقة المشكلة، ويتطلع إلى أفضل حل ممكن لها. وفي رأي كامو أيضًا أن الفلسفة اليونانية كثيرًا ما كانت تعرف نفسها بالإشارة إلى الحدود المتعارضة ومن ثم تتيح للوعي الواضح بالأطراف المتناقضة مثالاً من الاعتدال من شأنه أن ينطوي على كلا الطرفين، بل ويستطيع أن يقلل من الصراع القائم بينهما، وكان بمقدور كامو أن يدخل عنصر التلوين المتجدد على المقالات والمسرحيات الأولى التي كتبها، وذلك في بحثه عن موقف معتدل بين الرغبة في الحياة والفزع من الموت وبين انتشاء الحس وصرامة العقل وبين النزعة الفنائية ونزعة التشكك، ولقد تمخض عن الخلط بين الانتشاء والإحباط في آخر الأمر أن أتيح لكامو الحصول على أساس للتمرد، ولو أنه أفضى به في باديء الأمر إلى موقف وقتي من الإذعان والانعزال،

"وتفصح مقالات كامو عن سمتين بارزتين هما: نزعة عبثية فطرية، وأخرى تأكيد دائم على معايشة المرء لبيئته معايشة مادية، ويناقش كامو في هذه المرحلة بصفة أساسية كلا السمتين من منظور الإحباط الفكري من جهة، واللذة الحسية من جهة أخرى"

"ولقد أعطى كثير من قراء كامو قدرًا كبيرًا من الاهمية لما اتسمت به نظرته التشاؤمية من حدة وعنف، ومن أبرز سمات هذه النزعة أنها تبلورت في جوهرها على خلفية من الإشراق، الذي يتسم به إقليم البحر المتوسط"

"وكانت سمات الأدب الفرنسي في الجزائر تبدو في مطلع هذا القرن من خلال التيار اللاتيني، وكان هذا التيار يستند إلى فكرة (استعمارية) بحتة، ألا وهي ربط الجزائر بفرنسا من خلال التاريخ اللاتيني المشترك، وإثبات الهوية اللاتينية والتاريخ الجزائري معًا"



ولقد أعطى كثير من قراء كامو قدرًا كبيرًا من الأهمية لما اتسمت به نظرته التشاؤمية من حدة وعنف. ومن أبرز سمات هذه النزعة أنها تبلورت في جوهرها على خلفية من الإشراق، الذي يتسم به إقليم البحر المتوسط. لقد أولى كامو الاستجابة الشخصية للسعادة أهمية كبرى فجعلها محورًا لما تناوله من موضوعات. حيث قال في لقاء تم معه: "عندما أحاول اكتشاف أهم ما يقبع في نفسي، وبتأمل في ذاتي فلا أجد إلا اشتياقًا للسعادة. كما أجد في صميم مؤلفاتي إشراقًا لا ينطفئ".

ينتمي ألبير كامو إلى التيار المتوسطي. ففي كتاباته المختلفة حاول أن يثبت أن ثمة تيارًا متوسطيًا على المستوى الحياتي وعلى المستوى الفكري، ولم يكن هذا التيار الوحيد الذي عرفته الجزائر الفرنسية. فإلى جانبه كان هناك تياران اثنان: التيار اللاتيني والتيار الجزائري، وكانت سمات الأدب الفرنسي في الجزائر تبدو في مطلع هذا القرن من خلال التيار اللاتيني، وكان هذا التيار يستند إلى فكرة (استعمارية) بحتة. ألا وهي ربط الجزائر بفرنسا من خلال التاريخ اللاتيني المشترك وإثبات الهوية اللاتينية والتاريخ الجزائري معًا. وقد حاول ألبير كامو من جهته أن يبلور مفهومًا متوسطيًا خاصًا به في مقالاته وأدبه وفكره الفلسفي، ويصر على تكريس أهمية الفكر المتوسطي والنظرة المتوسطية إلى مفهوم الحياة. لذا أصبحنا نرى أن ما نجده لدى الكتاب المتوسطيين المختلفين نجده لدى ألبير كامو، حيث أضحى مثل سواه يتحدث عن البحر. ويجد في المتوسط انتماءً حضاريًا لا انتماءً جغرافيًا فحسب، وعندما يتحدث عن المتوسط إنما يتحدث عن نمط حياة مختلف عن نمط الحياة الأوروبية. فبالنسبة إليه يكتسب المتوسط أهمية خاصة من خلال موقعه الجغرافي، ولكنه يتناقض كلية مع الشمال الأوروبي.

إن أية قراءة لأدب ألبير كامو والتعرف على سماته وفكره الفلسفي يوحي بوجود ثنائية لديه. ألا وهي "ثنائية الأضداد". إنه يتحدث عن الشمال والجنوب، عن الخير والشر، عن الجمال والقبح، عن الفقر والغنى، عن الشمس والظل، عن المنفى والملكوت. وهذه الثنائية تولد قضية في أدبه. ويريد بها أن يدافع عن الحرية في وجه الظلم وعن العدالة إزاء الجور وعن التسامح في ظل الطغيان.

ولئن كان كامو فلسفي النزعة فمن الواضح أنه لم يكن معنيًا بمصطلحات الفلسفة الفنية ومفرداتها اللغوية. إذ لم يشعر أن لديه حاجة إلى هذه التحفظات الفكرية أو التشعبات المنطقية. كان فكره يصدر مباشرة من خلال صور قوية يربط فيما بينها بموقف شخصي يبثه بلغة الإنسان العادي ومعقوله العام. وهذا هو الذي ميزه عن الفلاسفة المتهجيين كجان بول سارتر وأندريه مالرو وجورج هيجل وغيرهم. بحيث كان الجدل معهم ضربًا من العبث. إن روايته (الوجه والقفا) تحدد معالم كون خفي. فالتقاء الصور والمشاهد عام وشخصي. والامتداد الذي أعطاه كامو لهذا العالم النفسي يعتمد بالضرورة على قدرته الخيالية على تجديد هذه الصور والمشاهد. فهذه الصور متوترة ومقولبة ولا مجال فيها للاستطراد أو الاسترخاء. وبذا تفرض نفسها بقوة على خيال القارئ. والتأملات التي يحوكها كامو حولها تؤكد توترها وتماثلها في الأساس. وتكاد تحولها إلى أمثلة محددة دون أن تكون فكرة مجردة. وهذه المعالجة التحكمية الصارمة لموضوعات هي في الأصل عاطفية وصورية من خصائص كامو وميزاته.

كان بالإمكان أن يؤدي افتتان كامو الشاب باندماج العبث والتمرد معًا في حياة الإنسان وسلوكه إلى نظرة ساخرة نحو الإنسانية. ورغمًا عن عزمه على أن يكون (شاهدًا)، فإنه في كتابه: "الوجه والقفا" سجل أيضًا إغراءً خاصة به. إغراءً تغلب عليه سمة المقالات ذاتها ولكنه إغراء جعل كتابتها ضرورة له. حيث يتمثل الحزن الدفين في رفض أية محاولة للفهم، ومن ثم رفض أية صلة قد تجمع بينه وبين عالم البشر. ففي بعض فقرات هذا الكتاب موجات عارمة من الحب، ولكن فيه أيضًا انفصالاً ذهنيًا يندر أن يتواجد في شاب مثله لعل مرده الفقر والمرض اللذين عانا منهما في مستهل حياته. لقد ألفى كامو نفسه تسول له الاستسلام والإلقاء بها في نشوة من التمتع بجمال الحياة. وهذه الغواية يمكن أن تتبدى بينة في مقالاته الأربعة من كتاب "أعراس". إذ تكشف عن طاقة كامو ككاتب وعن المشكلات التي صادفها وتصدى لها وعانى منها. لقد محا من عالمه قطاعات واسعة من التجربة الإنسانية كما محا قطاعًا آخر هو قطاع التحليل النفسي. فلم يكن لتعقيد الدوافع الإنسانية وظلال المشاعر الدقيقة إلا أضيق حيز في عالمه. الأمر الذي جرده من أولياته الأساسية. إن الكلمات العشر المحببة إليه هي: العالم، المعاناة، الأرض، الأم، البشر، الصحراء، الشرف، البؤس، الصيف، البحر. وإن خلت كلمة "السعادة" منها فهي في الواقع

هاجسه وحاجته، وتلك الكلمات يصعب تحديد قيمها في عالم كامو المشحون بالعواطف المبهمة والمشاعر الدفينة.

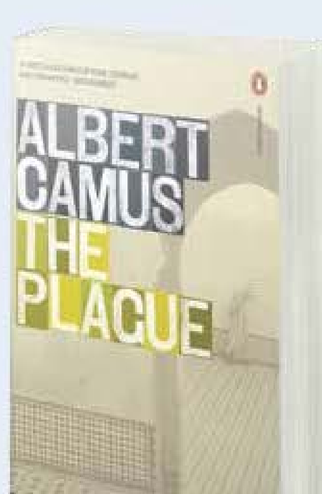
وفي كتابات كامو عن التمرد يتضح هذا المفهوم الجدلي، الذي تطرق إليه وعالجه، وحاول أن ينتقل من خلاله من العالم المجسد إلى العالم المجرد، حيث يؤكد أن الذهن والعقل كلاهما لا يستطيع أن يخترق أغوار الصمت المطبق إزاء حياته. ويرى كامو بكل وضوح المضمون (التراجيدي) لهذا الانتشاء المادي الصارم، الذي تنطوي عليه الطبيعة المادية، فهو يعني كل الوعي في غمرات الانتشاء الحسي، تلك الثنائية الدائمة التي كانت الموضوع الغالب الذي دار حوله كتاب "الوجه والقفا" وهو ما دفعه لأن يقول في كتاب "أعراس": أن ما من شأنه أن يسمو بالحياة هو الذي يؤكد عبث هذه الحياة. كذلك وصف كامو حياة الحس في لغة غنائية شاعرة وكان يبتهج باكتمال تلك الحياة وبلوغها مداها الأقصى، بل إن اكتمال تجربته وعنفها ينطوي على تحديد لهذه التجربة من ناحيتين: الأولى أنه لا يمكن للفرد أن يستمتع بالحياة التي وصفها كامو إلا استمتاعًا موقوتًا. فجمال الحياة لا يذوي طالما بقيت هذه الحياة، لكن هذه الحياة لا تبقى إلى الأبد. ولهذا يجد كامو أن حقيقة الموت ماثلة في المناظر الطبيعية التي تشتمل عليها بلاد الجزائر. وهي المناظر الفنية الخصبة التي تدعو إلى الاستمتاع بكل ملذات الحس، ويعبر كامو عن حيرته هذه في تلك العبارة الموجزة التي أشير إليها من قبل: "إن جزعي من الموت ينال من غيرتي الشديدة على الحياة".

إن السمات التي تميز النزعة العبثية وطبيعة التمرد لدى كامو في كتابيه: "أسطورة سيزيف" و"الإنسان المتمرد" وأيضًا في كتابيه: "الوجه والقفا" و"أعراس" - وإن كانا بدرجة أقل - يمكن أن تفسر ولو تفسيرًا جزئيًا ما نجده عند الاحتفاء بفيض الحياة الحسية، ويكون ذلك على أساس تطرف في النزعة العبثية ناتج عن الكبت لا عن الإفراط. واللهجة التي يستخدمها كامو تغلب عليها سمة من الوضوح تكون أقرب إلى مخالفة النزعة العبثية. أما طبيعة التمرد في تلك الكتب فتوحي بوهج حاد، وليس بشعاع رقيق يبعث النور والدفء، فهو يفعل ذلك بذهن يترك الأثر بما يتصف به من الدقة وسلامة التفكير. ويعد كتاب "أسطورة سيزيف" الذي صدر عام 1942 انتقالاً مفاجئًا من التعبير تعبيرًا تمرديًا عن موقف تجاه الحياة، إلى دراسة هذا الموقف ذاته دراسة عقلية نافذة. ويقصد كامو من لفظة "التمرد" بوجه عام انعدام التوافق أو الانسجام بين حاجة الذهن إلى الترابط المنطقي وبين انعدام المنطق في تركيب العالم، الأمر الذي يكابده الذهن ويعاني منه.

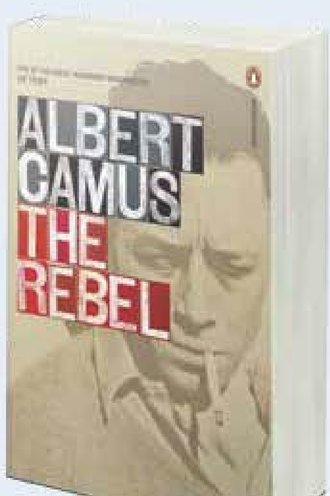
الخاتمة

في يوم الإثنين الرابع من شهر يناير عام 1960م وفي الساعة الثانية والربع ظهرًا اصطدمت سيارة مسرعة متجهة من مدينة سانس إلى العاصمة باريس بشجرة من أشجار البلوط وأسفر الاصطدام عن حادث مروع، راح ضحيته ركاب السيارة، ومن بينهم ألبير كامو، والذي يبدو أنه آثر صحبة رفيقه الناشر المشهور ميشيل جاليمار (الذي كان يقود السيارة) دون السفر بالقطار الذي كان يحتفظ بتذكرته في جيبه مما يدل على أنه من سخرية القدر وسوء حظه العاثر غير رأيه في آخر لحظة، فسافر بالسيارة دون القطار استجابة لرغبة صديقه الناشر، وكانت وفاته بعد حصوله على جائزة نوبل في الأدب بثلاث سنوات. لم يكن كامو أول إنسان يتوجس من فكرة الموت، وهذه معضلة كبرى واجهته مما جعلته يكره كل أشكال المرض الذي عادة ما يمهد للموت. لقد تعلق كامو بالحياة إلى درجة لا يمكن تصورها، كما لم يكن أول من يشتهي انتزاع السعادة من اللحظة العابرة. أما الذي يفرقه عن غيره فهو أن حاجته للسعادة مقرونة بحاجة أخرى لا تقل عنها قوة وإلحاحًا وهي شعوره بالمسؤولية تجاه الإنسانية المعذبة.

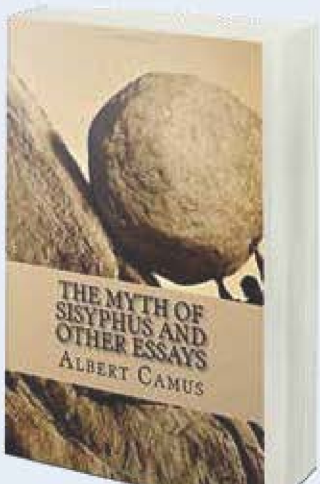
لقد وضعت هذه الرحلة القصيرة نقطة النهاية أيضًا في رحلة حياة قصيرة لكامو أديب العبث الذي مات عبثًا، وعاش طوال حياته بفلسف العبث. أديب قبض بإحدى يديه على شمس الجزائر الباهرة وباليد الأخرى على أضواء باريس الساحرة، وباليدين معًا أضاء شعلة المعرفة وطفق ينير عتمات الكون ودهاليز الحياة وسراديب النفس الإنسانية. نعم ألبير كامو عاش حياة لم تخل من العبث والتمرد لكنها حياة حافلة بالتفوق والعطاء ونبذ الظلم وحب الإنسان.



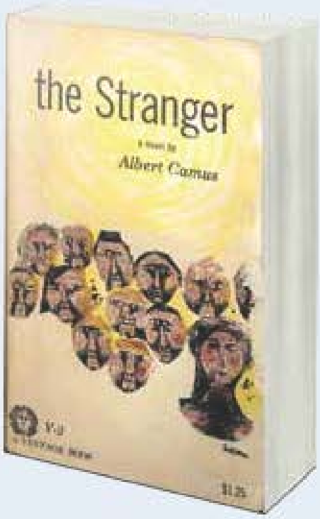
"الطاعون"



"المتمرد"



"أسطورة سيزيف"



"الغريب"

الهوامش

1) عبدالباقي يوسف، "ألبير كامو عاشق الحياة والتمرد"، مجلة الحرس الوطني، الرياض، العدد 209، شعبان 1420 هـ (نوفمبر 1999م).

2) غسان زيادة، "ألبير كامو: الجزائر شمس فرنسا وبابها إلى الفتوة والبحر"، مجلة العالم، بيروت، لبنان، العدد 26، (يونيو 2001م).

3) جلال العشري، "ألبير كامو وأدب التمرد"، كتاب مترجم للعربية للمؤلف جون كروكشانك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م.

4) إلياس خليل، "ألبير كامو بقلمه"، كتاب مترجم للعربية للمؤلف مورفان لوبيك، المنشورات العربية، بيروت، لبنان، 1973م.

5) جبرا إبراهيم جبرا، "ألبير كامو" كتاب مترجم للعربية للمؤلف جرمين بري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1967م.





ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية

Autobiographical Memory

د. عبدالرحمن بن سليمان النملة

عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام
محمد بن سعود الإسلامية

الكل منا له سيرة حياة، قصة يسترجع أحداثها من وقت لآخر، شريط ذكريات بما يحويه من مواقف وموضوعات وأشخاص، وأحلام وأماني وتصورات وأفكار، يتذكر الكثير منها وينسى كذلك الكثير. لذلك فإن التذكر (Remembering) يعد من الخواص الإنسانية الراقية، فهو يعد من العمليات العقلية العليا التي لها دور مؤثر في حياة الإنسان. وإذا أمعنا النظر قليلاً سنلاحظ أن كل جانب من جوانب حياتنا يقوم على التذكر، فتعلم المعارف والعلوم والمهارات يقوم على التذكر، كذلك تعلم العادات والتقاليد وتكوين العلاقات لا يرسخ إلا بحفظه ومن ثم استرجاعه، بل الأهم من ذلك أن العبادات والشعائر الدينية تقوم كذلك على الحفظ والتذكر. لذلك احتلت الذاكرة الإنسانية الصدارة في اهتمام العلماء والباحثين، وباتت تعد أحد الموضوعات الرئيسة في علم النفس عمومًا، وفي علم النفس العقلي-المعرفي بصورة خاصة. ففي الدراسات النفسية هناك تقسيمات متعددة للذاكرة، منها على سبيل المثال؛ تقسيم الذاكرة إلى ذاكرة أو مستودع طويل المدى (Long-term Store) وآخر مستودع قصير المدى (Short-term Store)، والتفصيل في كل منهما، وما يهمنا في هذا السياق هو الذاكرة طويلة المدى، حيث ميز تولفنج (1972م- 1983م) Tulving بين نوعين من الذاكرة طويلة المدى وهما؛ الذاكرة الدلالية (Semantic Memory) والذاكرة العرضية (Episodic Memory). ويذكر تولفنج (1983م) Tulving أن الذاكرة العرضية ترتبط بخبرات فريدة، وملموسة من الماضي، بينما تشير الذاكرة الدلالية إلى معرفة الإنسان المجردة بالعالم من حوله بحيث لا ترتبط هذه المعرفة بوقت محدد. وبناءً على ذلك، فإن الذاكرة الدلالية تشير إلى معرفة الفرد بشكل عام بمختلف الأحداث والمعلومات حول العالم، أي أنها بمثابة قاعدة معلومات عامة يشترك فيها الشخص مع غيره، وهي معروفة ومتاحة للجميع ويمكن التأكد منها، في حين أن الذاكرة العرضية تتكون من تجارب الفرد الخاصة وتذكر الماضي، مع تركيز محدد على الزمان والمكان.

وبناءً على ذلك، فالذاكرة العرضية تعد ذاكرة شخصية، ومن خلال البحوث والدراسات المكثفة على هذا النوع من التذكر، توصل الباحثون إلى نظام مستقل للتذكر يتفرع من الذاكرة العرضية ويتميز بالاحتفاظ بالمعلومات والأحداث الخاصة واسترجاعها، وسميت هذه الذاكرة، بالذاكرة الشخصية الخاصة أو ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية (Autobiographical Memory). حيث تركز ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية على ذلك النوع من التذكر طويل الأمد الذي يتضمن استحضار واسترجاع تجارب شخصية وأحداث من الماضي، وبات هذا النوع من الذاكرة يحظى باهتمام خاص من قبل باحثي الذاكرة، ذلك لكونه يشكل مفترق طرق رئيس في الإدراك البشري، تتمازج فيه اعتبارات تتعلق بالعاطفة، والنفس، والأهداف والمعاني الشخصية. إن ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية بما تحويه من سجل تاريخي شخصي وخاص، تعد عميقة الصلة بالفرد، تميزه وتجعله مدركًا لخصوصيته وتفرده. والذي أغرى الباحثين كثيرًا لدراسة هذا النوع من الذاكرة بالإضافة لأهميته، هو تساؤلات مستمرة تتركز حول لماذا نتذكر بعض الأحداث والمواقف وننسى بعضها؟ هل الأمر يتعلق بطبيعة الحدث أو الموقف نفسه، أم بالشخص وردود فعله؟ ومن نافلة القول أن بعض الأحداث يتم تذكرها وعدم نسيانها لفترات طويلة، وربما تستمر ذكراها طوال العمر، وهي غالبًا الأحداث ذات الصبغة الانفعالية العاطفية، كالمواقف المحزنة وربما المفرحة. لكن التركيز هنا هو على المواقف العادية الطبيعية في الحياة اليومية، لماذا يرسخ بعضها ويبقى، بينما يذهب البعض الآخر أدراج الرياح ويكتنفه النسيان، هذا ما سيتم عرضه وتحليله في السياق الآتي والخاص بالوقوف على بنية ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية، وآليات عملها.

ينظر بعض الباحثين إلى ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية على أنها بنية غاية في التنظيم وفي التمثيل الدقيق للمعرفة، وعرف بريور (1986م) Brewer ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية "بأنها تلك الذاكرة الخاصة بالحصول على معلومات تتعلق بالذات" (Brewer, 1986, p. 26)، هذه المعلومات تكون عادة عبارة عن أحداث ومواقف منظمة فيما يتعلق بالظروف التي تم اكتسابها أو حفظها فيها، وسواء كانت تلك الأحداث والمواقف نادرة الحدوث أو متكررة. وحدد بريور (1986م) Brewer أربعة عوامل أو خصائص تحدد بنية ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية وهي؛ ذكريات شخصية فردية، وذكريات شخصية عامة، وحقائق السيرة الذاتية، والمخطط الذاتي (Self-schema). فمن منظور بريور، تنفرد الذكريات الشخصية الفردية عن الذكريات الشخصية العامة بندرتها، وعدم توقع حدوثها، وكذلك عدم توقع تبعاتها، كما أنها ذكريات تتسم بالطبيعة العاطفية، وكلها عوامل تسهم في رسم صورة الحدث وفي درجة تذكره. وتتشكل الذكريات الشخصية الفردية من هذه الخصائص مجتمعة، وعادة ما يتم التذكر وبشكل جيد للأحداث الشخصية التي تحصل على درجة

> ”تركز ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية على ذلك النوع من التذكر طويل الأمد الذي يتضمن استحضار واسترجاع تجارب شخصية وأحداث من الماضي، وبات هذا النوع من الذاكرة يحظى باهتمام خاص من قبل باحثي الذاكرة، ذلك لكونه يشكل مفترق طرق رئيس في الإدراك البشري، تتمازج فيه اعتبارات تتعلق بالعاطفة، والنفس، والأهداف والمعاني الشخصية“

عالية من هذه الخصائص، ويُرجح بأن الأحداث التي تسجل جودة أو درجات أقل تدمج وتحول إلى ذكريات شخصية عامة. وبالنتيجة فإن "التعرض لحدث واحد يؤدي إلى ذكريات شخصية فردية. في حين أن التعرض لأحداث متعددة يمكن أن يؤدي إلى ذكريات شخصية عامة" (Brewer, 1986, p. 26). وعادة ما ترتبط الذكريات الشخصية الفردية بالصور الذهنية المفصلة، في حين تحظى الصور الذهنية التي تتوافق مع ذكريات شخصية عامة بطابع عام. وبحسب بريور (1986م) Brewer فإنه يتم استرجاع تفاصيل السيرة الشخصية والتجارب المختلفة، وأحداث الحياة الحقيقية من دون الصور الذهنية التي ترتبط بها، ويتم تنظيم الذكريات الشخصية الفردية والعامة، فضلاً عن وقائع السيرة الذاتية ضمن نظام معرفة معقد يعرف على أنه المخطط الذاتي.

وترى نيلسون (1993م) Nelson بأن ليس كل الذكريات العرضية تصبح ذكريات سيرة ذاتية شخصية، ولتوضيح هذه النقطة، ميزت نيلسون بين تذكرها غداء أمس، مع تذكرها تقديم ورقة بحثية لأول مرة في مؤتمر علمي. حيث شكل غداء يوم أمس حدث اعتيادي (روتيني) يحدث مرارًا وتكرارًا، بدون خصائص شخصية فريدة ترتبط به، ومن ثم، فإنه لم يتم الاحتفاظ به في الذاكرة الشخصية. وفي المقابل، فإن الدلالة الشخصية (الذاتية) لتقديم ورقة بحث ولأول مرة في مؤتمر علمي يشكل جانبًا مهمًا من قصة حياة نيلسون الشخصية، التي أصبحت من ثم جزءًا من ذكريات سيرتها الذاتية الشخصية. إن حقيقة أنه ليس كل الذكريات العرضية هي ذاتية، تعني أن الذاكرة الذاتية (الشخصية) هي نوع معين من الذاكرة العرضية لها خصائصها. ولكي يتم تسجيل أي تجربة أو حدث أو موقف في الذاكرة الشخصية، ينبغي أن يكون لذلك الحدث أو الموقف أو تلك التجربة بعدًا شخصيًا،



بحيث يجب أن يكون الفرد قادرًا على تأريخ الذاكرة ويدرك أهميتها، ومن ثم، تتمايز الذاكرة العرضية عن ذاكرة الأحداث العامة، وتتكون منها الذاكرة الشخصية للأحداث التي تحدث لمرة واحدة، والتي يمكن أو لا يمكن تأريخها، ويمكن أو لا يمكن دخولها في نظام السيرة الذاتية طويلة الأمد. وبذلك، ترى نيلسون (1993م) Nelson أنه "يجب النظر إلى الذاكرة العرضية كذاكرة مؤقتة، بينما يتم النظر إلى ذاكرة الأحداث العامة، وذاكرة السيرة الذاتية الشخصية على أنها تمتاز بأنظمة طويلة المدى، تخدم وظائف مختلفة، ويعتمد كلاهما على تحويل المعلومات من عرضية لأنظمة تذكرية أكثر تحملاً وبقاءً" (Nelson, 1993, p. 380). هذا الوصف يشير إلى أن أي تجربة (موقف أو حدث) تحفظ بداية في الذاكرة العرضية، وبعد ذلك، وبالاعتماد على خصائص تلك التجربة، يتم نقلها إما إلى ذاكرة الأحداث العامة أو إلى ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية، فإذا حدثت التجربة بشكل متكرر ولم يكن ذلك ملحوظًا، فإنها تحفظ في ذاكرة الأحداث العامة، حيث إنها قد تصبح جزءًا من مخطط ما يرتبط بأحداث مماثلة، ومن ناحية أخرى، إذا كان هذا الحدث فريدًا من نوعه ومهم، سيتم تسجيله في الذاكرة الشخصية (ذاكرة السيرة الذاتية).

ولكي تصبح الذكريات "سيرة ذاتية شخصية Autobiographical"، فيجب أن تدمج وتتكامل مع قصة الحياة التي يخلقها كل منا، ومن الأمور المثيرة في ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية، أن الكثير من الناس لا يستطيعون استرجاع ذكرياتهم التي حدثت في أثناء مرحلة الطفولة المبكرة، وفي هذا الصدد، تشير الدراسات النمائية إلى أن تاريخ البحوث التجريبية الخاصة بدراسة نمو ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية تعد تاريخًا قصيرًا نسبيًا، حيث يعود إلى ثمانينيات القرن الميلادي الماضي، بينما يعود الاهتمام النظري بدراسة عجز الأفراد عن استدعاء ذكرياتهم الماضية، إلى تاريخ أبعد، وتحديدًا نقاشات فرويد (1905م- 1953م) Freud حول فقدان الذاكرة المتعلقة بمرحلة الطفولة المبكرة (Infantile Amnesia)، وتدل الأبحاث في حقبة الثمانينيات الميلادية على أن الأطفال الصغار لديهم ذكريات شخصية عامة، ولا يمتلكون القدرة على استدعاء حدث معين، أي ليست لديهم ذكريات شخصية خاصة، وبناءً على ذلك، وخلافًا لطرح فرويد (1905م- 1953م) Freud حول أن الذكريات المبكرة اختفت، تبين بأنه لم يتم تسجيل ذكريات محددة في وقت مبكر على الإطلاق، وتم إجراء العديد من الأبحاث والدراسات للوقوف على نمو ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية في الطفولة المبكرة وتطورها خلال مراحل العمر اللاحقة، إلى اضمحلالها وشهورها في سن الشيخوخة، حيث وُجد أن المسنين لديهم القدرة أكثر على تذكر الأحداث العامة، بينما يجدون صعوبة في استرجاع أحداث تتصل بذاكرة السيرة الذاتية الشخصية، كذلك جرت المقارنات بين الرجال والنساء في القدرة على استدعاء وتذكر أحداث تتصل بالسيرة الذاتية الشخصية، واتضح أن النساء أكثر قدرة على تذكر الأحداث والمواقف الشخصية الخاصة، وتم تفسير ذلك من ناحية جينية، تأسيسًا على أن الفتيات يكتسبن اللغة في سن أصغر من الفتيان، ومعلوم الدور النمائي للغة في تشكيل وصياغة العمليات العقلية، أيضًا أظهرت الدراسات عبر الثقافية نتائج تشير إلى أن هناك فروقاً في تذكر الأحداث والتجارب الشخصية بين الأفراد من مجتمع إلى آخر، حيث يستطيع بعض الأفراد في مجتمع ما تذكر أحداث خاصة تعود إلى سنوات الطفولة الأولى، في حين تتركز ذكريات أفراد مجتمع آخر على مراحل العمر اللاحقة، حيث يجدون صعوبة في استرجاع ذكرياتهم الخاصة بسنتي العمر الأولى، وتم عزو ذلك إلى التباين في الممارسات الثقافية عبر المجتمعات المختلفة، وذلك من حيث استخدام اللغة كوسيط نمائي، وأيضًا ما يتصل بالتنشئة الأسرية والاجتماعية للأطفال، فبعض الثقافات تنمي الفردية (Individualism) في شخصية الطفل وأسلوب تفكيره، بحيث تجده مستقلاً في تفكيره وأسلوب حياته مما يساعد على نمو وتمايز ذاكرة السيرة الذاتية الشخصية، بينما ثقافات أخرى تركز على الجماعية أو الجمعية (Collectivism) في تنشئة الطفل، والتي من صورها أن يكون سلوك وأسلوب تفكير الطفل مرتبطًا بصورة أكبر بجماعته المركزية كالأسرة أو القبيلة أو المجتمع ككل، وبناءً عليه تتسم ذكرياته بالعمومية.

وبصورة عامة، فإن تذكرنا لأحداث شخصية مرتبطة بموقف ما، تعتمد وبصورة كبيرة على مدى خصوصية ذلك الموقف أو الحدث بالنسبة لنا.

أهم المراجع:

- Al-Namlah, Abdulrahman S.; Meins, Elizabeth; Fernyhough, Charles (2012). Self-Regulatory Private Speech Relates to Children's Recall and Organization of Autobiographical Memories. Early Childhood Research Quarterly, Vol. 27 n3 p 441-446.
- Brewer, W.F. (1986). What is Autobiographical Memory? In D. Rubin. (Ed) Autobiographical Memory. New York: Cambridge Uni Press.
- Nelson, K. (1993). Events, Narratives, Memory: What Develops? Minnesota Symposia On Child Psychology, 26, 1-24 .
- Tulving, E. (1983). Elements of Episodic Memory. Oxford: Clarendon Press.

هل عصرنا هو أكثر عصور التاريخ إنهاكًا؟



أصبح الوصول إلى غايتك أمرًا مستحيلاً، أنت في سباق دائم مع الزمن، يشطرك الوقت إلى نصفين، تتزايد الحاجات، ترتفع ضربات القلب، يقل النفس، وتتساءل:

يا ترى هل عصرنا هو أكثر عصور التاريخ إنهاكًا وإعياءً للإنسان؟

عدد من علماء النفس والاجتماع يلقون باللوم على الحداثة، وما فرضته على البشرية من تغيرات في شكل الحياة وأنماطها وتحدياتها في الانتشار السريع لأعراض الإرهاق، مثل الاكتئاب والتوتر بشكل عام.

بحسب " Aeon " فإن مؤلفة كتاب: تاريخ الإرهاق "آنا تشافنر" تذكر أن النقاش حول الإرهاق والإنهاك يعود إلى مقارنة الاحتياجات العاطفية والمعرفية للإنسان بمستويات الطاقة البشرية، تلك المستويات ظلت ثابتة على مر التاريخ، بينما تزايدت الاحتياجات بشكل حاد جدًّا أخيرًا.

أساليب استنفاد الطاقة: أساليب استنفاد طاقة الإنسان في عصرنا زادت نتيجة التقنيات الجديدة، فالبريد الإلكتروني والهواتف المحمولة على سبيل المثال أدوات تجعل الموظفين متاحين على الدوام، سواء في أوقات الراحة أو الدوام.

هذا يجعل المنافسة شديدة بين الجميع، فيصبح من الصعب على الموظفين أن يفصلوا أنفسهم عن وظائفهم، فلا عجب إذن في أن الجميع متهكون.

ما لا يلاحظ في كثير من الأحيان أن المخاوف بشأن الإرهاق ليست حكرًا على عصرنا فقط، فأولئك الذين يتصورون أن الحياة في الماضي كانت أكثر بساطة وأبطأ وتيرة مخطئون.

تجربة الإرهاق والقلق ليست مرتبطة بعصر معين، على العكس من ذلك، الإرهاق وآثاره لدى المفكرين موجودة منذ العصور الكلاسيكية القديمة.

الإرهاق في التاريخ: الإرهاق هو تجربة في كل مكان وزمان وفقًا لقول "تشافنر" على مر القرون، وألقت المصادر الطبية والثقافية والأدبية والسيرة الذاتية الضوء على الإرهاق، فطيلة قرون عد الأدباء والمثقفون والأطباء الإرهاق ناتجًا عن عدم التوازن في الكيمياء الحيوية للجسد، أو عن مرض فيروسي، أو ألم روحي.

كذلك اعتبر مرتبطًا بالخسارة، وحركة الكواكب، والرغبة في الموت، أو الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية. إن الإرهاق ليس تجربة جسدية فقط بل هو تجربة عقلية ومجتمعية ثقافية.

النظريات حول الإرهاق تفيد في معرفة كيف كان الناس ينظرون في الماضي للعقل والجسد والمجتمع، وتتناول نظريات الإرهاق أسئلة مثل المسؤولية وقوة الإرادة، وترى بعض النظريات أنه شكل من أشكال الضعف في الإرادة.

نظريات القرون الوسطى تدور حول عوامل مثل فقدان الشغف والخطيئة، بينما النظريات الحديثة تلوم الأفراد على سوء إدارتهم لصحتهم الجسمية والعقلية.

الملل أو حالة فقدان الشغف يدل حرفيًّا "على عدم الاهتمام"، التي تصفها القرون الوسطى بضجر القلب، وصفت بكثرة لدى رهبان العصور القديمة والفترة المبكرة من العصور الوسطى، حيث كان يعتقد أنها بسبب ضعف روحي، أو استسلام لإغواء الشياطين.

مذكرات القديس يوحنا كاسيان (360-435 م) تصف الإرهاق بأنه حالة من فقدان الشغف التي تصيب الجسد بأعراض مثل: تعب الجسد والشهية للطعام، كما لو كان قد عاد من رحلة طويلة أو صيام. وقال في مذكراته "بفارغ الصبر يقطع الطريق ذهابًا وإيابًا، يتألم لأن أحدًا من رفاقه لم يزره، يخرج ويدخل زنزانته، يتحدث إلى الشمس طويلاً، عقله مشوش ومشلول، ارتباكه يأخذ حيزًا من ذهنه يجعله خاملاً وغير قادر على ممارسة الطقوس الروحانية، لا يوجد أي عزاء له إلا في زيارة بعض الإخوة، أو في النوم وحده".

يصف كاسيان الأعراض الجسدية الناتجة عن الإرهاق أو الملل بأنها حالة من فقدان الشغف، فيختبر الإنسان الشعور بالضيق مثل ما يختبره الجسد بعد صيام طويل أو عمل شاق.

ويصف الأرق والخمول والنعاس وعددًا من الأعراض التي تظهر في جميع نظريات الإجهاد عبر التاريخ، ويعتقد آخرون أن ثمة أسبابًا جسدية للإرهاق.

في العصور اليونانية كانت هناك أسباب جسدية يلقى باللوم عليها، في العصر الحديث يعد الإرهاق ناتجًا عن مؤثرات وضغوط خارجية تتسبب في إجهاد مزمن، وكذلك عن ضعف الجهاز المناعي بسبب العدوى الفيروسية، أو أشكال مختلفة من اختلال التوازن الحيوي.

مرض الحضارة في القرن الـ19، بحسب اكتشاف الطبيب الأمريكي "جورج بيرد" تشخيص لحالة الإرهاق العصبي وعلها ناتجة عن الحضارة، بسبب خصائص العصر الحديث مثل التواصل الدائم وتطور العلوم والأنشطة العقلية الزائدة.

بما في ذلك التغيرات التقنية والاجتماعية التي استنزفت احتياطيات الطاقة لدى الرجال والنساء على حد سواء، إن البيئة الحديثة، خاصة المدنية منها تعرض الحواس لكثير من المحفزات، مثل الضوضاء والأضواء والسرعة.

يعتقد "بيرد" أن الجهاز العصبي ليس بإمكانه التعامل مع هذا القدر من الفوضى في الإشارات المرسلة للجهاز العصبي، هذه النظرية ليست شيئًا جديدًا، فالطبيب الأسكتلندي "جورج تشاين" عد الإرهاق حالة مرضية تنتج الخمول والبلادة والكآبة نتيجة النمو المتسارع للثروة والنمط المترف للحياة على عكس الاكتئاب.

ويعتقد "تشاين" أن مستويات معينة من الإرهاق مرتبطة بعوامل خارجية وبشكل أدق عوامل متعلقة بالعمل، في هذا الشكل يكون التقصير الأكبر في الاهتمام بالعمل وإعطائه وقتًا وجهدًا أكثر مما ينبغي.

في الواقع يمكن اعتبار الإرهاق الناتج عن العمل شكلاً اجتماعيًّا من أشكال الاكتئاب، أو مشكلة مرتبطة بشكل مباشر ببيئة العمل وموقع الفرد فيه.

بتحليل تاريخ الإرهاق، يمكن للمرء أن يجد نظريات عدة تشرح أسباب الإرهاق، لأن النظريات تنظر إليه باعتباره أكثر بساطة.

الاهتمام المستمر بفقدان البشر طاقتهم نابع عن القلق الأبدي للبشر بخصوص موضوعات مثل: الموت، والشيخوخة، ومحاولة وضع نظريات وعلاجات لمسألة الإنهاك تكتيك لمواجهة عجزنا الواعي أمام حقيقة الموت.

بعبارة أخرى، هي إستراتيجية للتغلب على مخاوفنا الوجودية، والتي لا تميز إنسان العصر الحديث، بل هي خاصية الإنسان على مر العصور.

المصدر:
Aeon

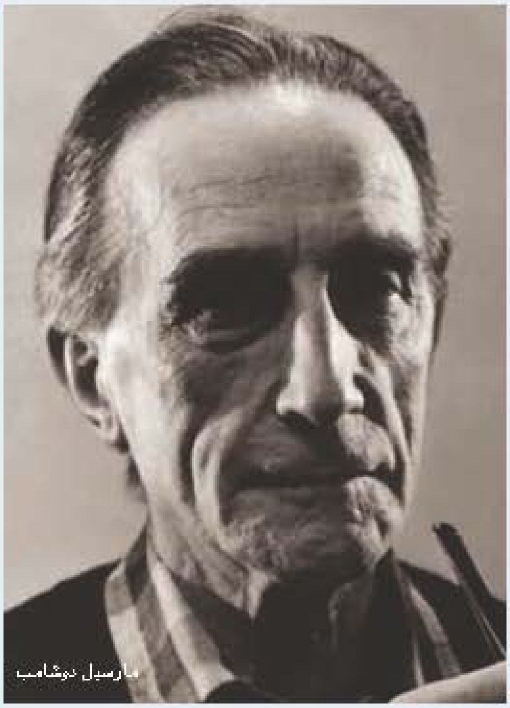


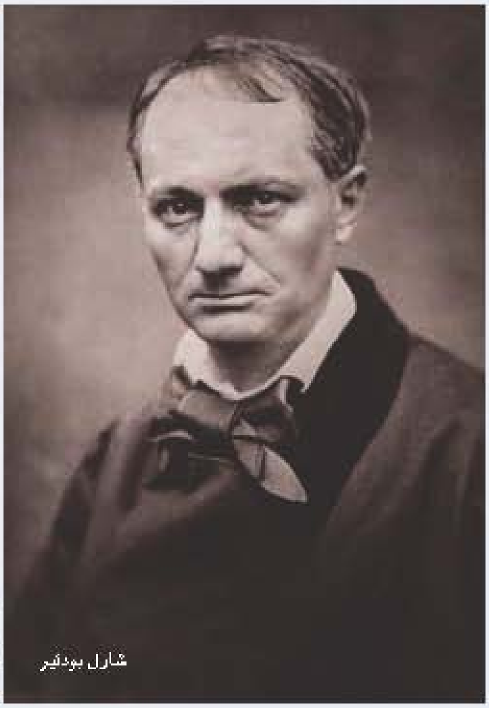

من شارل بودلير إلى مارسيل دوشامب



د. بدر الدين مصطفى

أستاذ علم الجمال- آداب جامعة القاهرة


مارسيل دوشامب


شارل بودلير

في مقالنا السابق ناقشنا المرحلة الأولى من مراحل تطور الفن الحديث بداية من الانفصال الذي أحدثه مع فن العصر الوسيط، مرورًا باكتشاف الطبيعة في عصر النهضة، ووصولاً لمرحلة الحداثة العليا التي تنامى فيها الاتجاه الرمزي والشكلي، وقد أدى الإغراق في الرمزية إلى صعوبة لغة الفن وعدم قدرة الكثيرين على فهمه، لذا أصبحت فنون الحداثة العليا فنونا للصفوة Lélitisme، وهي الفئة القليلة المختارة التي لديها الثقافة الكافية، والوعي بتاريخ الفن وتطوره. في هذا المقال سنتتبع المرحلة الثانية التي انتقل فيها الفن من مرحلة الحداثة إلى ما بعدها.

بين نهاية القرن الـ19 والنصف الأول من القرن العشرين، عرفت الحداثة الفنية تحولات كبيرة وجذرية، نتجت عن مجموعة التغيرات التكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي سادت آنذاك. غير أن ظهور ما يسمى بحركة "الطليعة" Avant- Garde في الفن، كان إيذانًا بتحول كبير على مستوى مفهوم الفن، وعلى طبيعة الإنتاج الفني.

انتقدت حركة الطليعة استقلال الفن وانكفاءه على ذاته، وانفصاله عن النشاطات الإنسانية، والمؤسسة الاجتماعية، كان الهدف الرئيسي لهجوم الطليعة على الحركات الفنية المنتشرة آنذاك، ارتباط هذه الحركات بالطبقة البورجوازية "الفن بوصفه ملجأ آمنًا وأنيقًا للطبقة البورجوازية التي تتميز بالذوق الرفيع"، وفي المقابل دعت الطليعة إلى إلصاق الفن بالواقع، وإزالة الحدود بين ما هو "نخبوي" وما هو "شعبي"، واستخدام الفن لتوعية الجماهير وتثقيفهم، وكل هذا لن يتأتى إلا إذا جعل الفنان من موضوعات الحياة العادية موضوعات لفنه.

وتتوازى هذه الدعوة التي أطلقتها الطليعة مع دخول متغير جديد في المعادلة الفنية: المال. هذا المتغير كان موجودًا من قبل، بصورة أو بأخرى، لكنه كان يتوارى أمام رغبة الفنان الصادقة في إنتاج عمل فني حقيقي ومميز. أما في القرن العشرين- ومع دعوة الطليعة لإزالة الحواجز بين ما هو "شعبي" وما هو "نخبوي"- فقد دخلت بعض المؤسسات الرأسمالية ميدان المنافسة لتسويق الأعمال الفنية المختلفة، والنتيجة الانتقال التدريجي للفن من عالمه إلى عالم السلعة "ما يحدد الفن الصناعي ليس الإنتاج الآلي، وإنما العلاقة التي غدت داخلية مع المال"، وبداية ظهور مصطلحات من قبيل "تسليع الفن" و"تسليع الثقافة"، والمشكلة التي تنشأ هنا هي أن الذوق ليس بمقولة سكونية، إنه دائم التغير، فقوى السوق المهيمنة تبني الأذواق في الفن، كما في سائر المنتجات الأخرى، والهدف النهائي هو كيف تستفيد هذه القوى من ذلك كله.

مع دخول التكنولوجيا- التي اعتبرها البعض قد أخذت مكانة ووظيفة الدين في القرن العشرين- اكتمل الثالوث (إزالة الحدود بين الشعبي والنخبوي- دخول رأس المال في ميدان الفن- التطور التكنولوجي) الذي سيوجه ضربة قاضية للفن الحداثي، وقد ظهرت بوادر هذه الأزمة مع ظهور تيارات فنية جديدة عضدت من هذا الوضع (المستقبلية- الدادئية- السريالية).

في مقالته الشهيرة التي صدرت عام 1936 "العمل الفني في عصر إعادة إنتاجه تكنولوجيا" يتأمل بنجامين- على حد تعبيره- "تقلص" و"ذبول" و"تدمير" ما يسميه بـ "هالة الفن" أو "الإحساس بخصوصية وتفرد العمل الفني"، مفترضًا أن هذه الهالة لا يمكن فصلها إطلاقًا

"ومع دعوة الطليعة لإزالة الحواجز بين ما هو "شعبي" وما هو "نخبوي"- فقد دخلت بعض المؤسسات الرأسمالية ميدان المنافسة، لتسويق الأعمال الفنية المختلفة، والنتيجة الانتقال التدريجي للفن من عالمه إلى عالم السلعة "ما يحدد الفن الصناعي ليس الإنتاج الآلي"

"كان فن الرسم المعاصر أكثر تأثرًا- مقارنة بالفنون الأخرى- بالقيم ما بعد الحداثية، ربما يعود ذلك إلى قابليته السريعة لاستيعاب التغيرات المتلاحقة، وربما أيضًا لكثرة مدارسه وتنوعها، وقدرتها الكبيرة على التفاعل مع الجديد"

"من الآثار العميقة التي خلفتها الحربان العالميتان على الفكر الأوروبي فقدان الثقة في الإنسان وفي مبادئ الحداثة، فكان من أهداف الأدباء والفنانين أن يعبروا عن هذا الوضع، وقد أدركوا أنه من الصعب التعبير عن هذا من خلال الأشكال الفنية التقليدية كالحبكة والعقدة والحل، ومن هنا ابتكر هؤلاء شكلا جديدًا للتعبير، يخلو من هذه المكونات ومن الأفكار المعقدة، والهدف من ذلك الكشف عن الوجود الإنساني الممزق في هذا القرن"

عن كونها جزءًا لا يتجزأ من نسيج التقاليد الفنية والحضارية غير أن معنى العمل الفني راح يتغير في عصر إعادة الإنتاج الآلي الحديث. فتقنيات وآليات إعادة الإنتاج تعمل على فصل "المنتج المعاد إنتاجه" وانتزاعه من أبعاده التاريخية، ومن ثم يتهاوى هذا الشذى أو تلك "الهالة" ويتلاشى التفرد والخصوصية التي كانت للأعمال الفنية.

في أطروحته الناقدة "ما بعد الحداثة، أو المنطق الثقافي للرأسمالية المتأخرة" 1984 يرى جيمسون أننا ومنذ مطلع الستينيات قد دخلنا حقبة جديدة بحيث أصبح إنتاج الثقافة مندمجًا في الإنتاج السلعي عمومًا. هذا التحول يستدعي- فيما يرى جيمسون- تغييرًا محددًا في عادات وموقف المستهلك ودورًا جديدًا في التعريفات والتحديدات الجمالية. وقبل أن نعرض لانعكاسات هذه التطورات التي لحقت بمفهوم الفن على الفنون المختلفة، سنحاول أن نحدد بعض السمات العامة التي تشترك فيها

فنون ما بعد الحداثة:

أ. إزالة الحدود بين الثقافة النخبوية والثقافة الجماهيرية: فإذا كان الفن قديمًا حكرًا على طبقة بعينها، فإن الفن في الحقبة ما بعد الحداثية متاح للجميع. فالسطحي والعميق، في نظر ما بعد الحداثي، كلمتان يستعملهما النخبويون، لا كحكم جمالي، إنما للتمييز الطبقي. لذا ترفض ما بعد الحداثة تراتبية الأذواق والثقافات. من هنا يرى روشنبرج أن عالم الفن الشعبي هو "عالم الفن المتسع".

ب. تسليع الفن: وهو ما حاول الحداثيون تجنبه، ولكن ما بعد الحداثة استطاعت أن تمد سلطة السوق على سلسلة طويلة من المنتجات الثقافية ومن ضمنها الفن. وأيًا ما كان الدور الذي لعبه رأس المال في فن الحداثة، فإن المدى الذي بلغته الظاهرة الآن قد تجاوز كل حد، فقد غدت الشركات هي الموجه الرئيس للفن بكل المقاييس.

ج. الارتباط بالتكنولوجيا: فالتكنولوجيا والإعلام الآن هما الحامل الحقيقي للوظيفة المعرفية، والمشكلة الآن أن التكنولوجيا أضفت على بعض الفنون عوامل إبهار لا حدود لها: دون وجود موضوع فني حقيقي، وأصبح المتلقي العادي يبحث عن الإبهار والمفارقة في كل ما يشاهده.

د. التشظي: لم تعد الأعمال الفنية خارج قانون الزمن، بل أصبح هذا القانون يسري عليها بعنف وصرامة "لقد تشظت الممارسات والأحكام الجمالية إلى نوع من "القصاصات الجنونية" الملونة بأنواع لا تحصى من المداخل الملونة التي لا رابط بينها، ولا يجمعها إطار محدد، عقلاني أو اقتصادي".

هـ. الحنين إلى الماضي: وهي سمة حاضرة بقوة في معظم الأعمال الفنية ما بعد الحداثية. فما بعد الحداثة لا ترفض الماضي وتنبذه، إنما تعيد توظيفه وإنتاجه، بصورة ربما تبدو للبعض "مشوهة". تأكيدًا منها على الروح الديمقراطية التي تتعامل بها مع التراث.

هذه هي أهم السمات الحاضرة بقوة في الأعمال الفنية بما بعد الحداثية، وهناك سمات أخرى تتفرع عنها ربما يكون أهمها: التقطيع cutting، المزج collage، المحاكاة الساخرة parody، الميل لزخرفة السطوح surfaces decorated ... إلخ.

* * *

إذا حاولنا أن نطبق ذلك على الفنون المختلفة، فيمكن القول:

1 - إذا بدأنا بفن العمارة، وهو الفن الذي يرى البعض أنه أولى الفنون تأثرًا بصيحات ما بعد الحداثة، يقول جيمسون "ليس هناك حقل من الحقول المعرفية شعر فيه رجاله بموت الحداثة، وأعلنوا عن ذلك بصورة حادة، مثلما حدث في فن العمارة". لقد ذهب جانكس في كتابه "لغة العمارة ما بعد الحداثية" The Language of Postmodern Architecture إلى أن النهاية "الرمزية" للحداثة يمكن تحديدها عند الساعة 3:20 من يوم الخامس عشر من يوليو عام 1972 عندما جرى نسف مبنى برويت- إيجوي Pruitt- Igoe لسكن ذوي الدخل المحدد في سانت لويس باعتباره بيئة غير صالحة للسكن فيها بالنسبة لفن العمارة. إن الأبنية ما بعد الحداثية، لا ترى ضيرًا مثلاً في مزج الأفكار المعمارية الجديدة مع الأشكال والرموز التقليدية الغابرة بهدف إحداث نوع من الصدمة والاندهاش، وربما المرح والتسلية للرائي، وهو ضرب من الإيمان بأن الجمال قد يتولد من التنافر مثلما يتولد من الاتساق، ومن الفوضى مثلما يتولد من النظام. لقد انعكس التحول الذي حدث في المجالات الثقافية على الناتج المعماري وعلى اهتمام المعماريين، وساهم كل منهما في إثراء الفنون الأخرى، لأن الحواجز بينهما قد سقطت "فاستوعب الخطاب المعماري المعاصر اتجاهات مختلفة نحتية وتشكيلية تنهل من طرز عديدة.



2 - كان فن الرسم المعاصر أكثر تأثرًا- مقارنة بالفنون الأخرى- بالقيم ما بعد الحداثية، ربما يعود ذلك إلى قابليته السريعة لاستيعاب التغيرات المتلاحقة، وربما أيضًا لكثرة مدارسه وتنوعها، وقدرتها الكبيرة على التفاعل مع الجديد. والحال أن سمات ما بعد الحداثة يمكن ملاحظتها في مدة مبكرة عند النزعة المستقبلية والدادئية، ولعل أعمال مارسيل دوشامب Marcel Duchamp تعطينا نموذجًا جيدًا للإرهاصات الأولى لتيار ما بعد الحداثة في فن التصوير، اشتهر دوشامب (1968.1887) بالنزعة العدمية، التعبير عن اللاشيء، أو كما يقول بودريار "لقد تمثل فعل دوشامب في تقليص الأشياء إلى اللامعنى". وكان يراهن في فنه على أن الفنان لديه القدرة على تغيير أذواق المتلقين، وكانت قولته الشهيرة "نستطيع أن نجعل الناس تتقبل أي شيء" هي المحرك له. والسر الذي يكمن خلف كل أعماله الفنية الصادمة وغير المستساغة، قام بإدخال ما يسمى بـ "الأشياء جاهزة الصنع" ready-made إلى مجال الفنون التشكيلية، وهي أشياء كان يقوم بتصنيعها بنفسه أو بمساعدة آخرين، ثم يضيف عليها بعض من لمساته، وتعرض كما هي في صالات العرض، وقد تنامى هذا التيار على يد إندي وارهول Andy Warhol 1928-1987 الذي بدأ حياته كفنان دعاية، اشتهر بشعاره "أريد أن أكون آلة" وهو شعار يعبر عن حالة من الخواء وعدم الانفعال، والمسألة هنا لا تتعلق بالاغتراب أو الشعور بالغربة، إنما يمكن تلخيصها في عبارة وارهول "ما لا يمكنك التغلب عليه، فعليك الانضمام إليه، ولو أنه استغرقك، فلابد أن تكون انعكاسًا له". ولم يدخر وارهول جهدًا من أجل تنفيذ هذه المقولة. (على سبيل المثال رأى



إحدى لوحات مارسيل دوشامب



كوكا كاكولا احدى أعمال إندي وارهول



إندي وارهول



حساء كامبيل Cambil احدى أعمال إندي وارهول

وارهول أنه قد استغرق طوال عشرين عامًا في تناول نوع واحد من الطعام على وجبة الغداء- وهو حساء كامبيل" Cambil؛ لذا جاءت إحدى أعماله نسخ عن طريق تقنية الشاشة الحريرية لإحدى عبوات هذا الحساء).

3 - بالنسبة لفن المسرح، إذا وضعنا مسرح العبث أو اللامعقول ضمن هذا السياق من تطور الفن في القرن العشرين، فإننا نجد أنه ملائم تمامًا لروح العصر والتغيرات الثقافية التي حدثت، لقد عبر البير كامو في "أسطورة سيزيف" عن أزمة الإنسان الحديث، موضحًا أن عالمًا يمكن تفسيره بمعايير عقلية منطقية يمكن أن يكون عالمًا باعثًا للألفة في قلوب من يعيشوا فيه، أما عالم انتفت فيه المعايير فإن الإنسان يحس بغربته فيه، وعندئذ يصبح العالم منفى لا مفر منه يفقد الإنسان فيه ذكرياته ولا يقوى على الأمل، ولا يملك الإنسان إزاء هذا سوى الإحساس بالعبث.

والواقع أن كثيرًا من كتاب المسرح الوجودي تحديدًا قد بنوا أعمالهم المسرحية على بطلان المعنى في الحياة، وانعدام القيم والمثل، غير أن هؤلاء الكتاب لا يعتبرون من كتاب اللامعقول، لأن هؤلاء يقدمون فكرتهم عن لا منطقية الوضع الإنساني في شكل منطقي محكم البناء، في حين نجد أن كتاب مسرح اللامعقول يحاولون التعبير عن إحساسهم بلا منطقية الوضع الإنساني عن طريق التخلي عن البناء المسرحي التقليدي، فيأتي الشكل عندهم على درجة كبيرة من اللامنطقية.

إن العبث أو اللامعقول هو انعدام الترابط والتناسق، وهو ما يثير الضحك، وأحيانًا يثير الأسى، إنه الخلو من الهدف، والانفصام عن الأصل مما يجعل التصرف غير مبرر والكلمات بلا معنى، وفي حين يعبر المسرح الوجودي عن المضمون الجديد بنفس الأسلوب القديم، فإن مسرح العبث قد عبر عن المضمون الجديد من خلال شكل جديد، وهذا الترابط بين الشكل والمضمون هو الذي ميز مسرح اللامعقول على وجه التحديد.

من الآثار العميقة التي خلفتها الحربان العالميتان على الفكر الأوروبي فقدان الثقة في الإنسان وفي مبادئ الحداثة، فكان من أهداف الأدباء والفنانين أن يعبروا عن هذا الوضع، وقد أدركوا أنه من الصعب التعبير عن هذا من خلال الأشكال الفنية التقليدية كالحبكة والعقدة والحل، ومن هنا ابتكر هؤلاء شكلاً جديدًا للتعبير، يخلو من هذه المكونات ومن الأفكار المعقدة، والهدف من ذلك الكشف عن الوجود الإنساني الممزق في هذا القرن، ولهذا فقد واجه كثير من كتاب مسرح اللامعقول الإنسان مجردًا من طبقته الاجتماعية أو بيئته التاريخية أو تجاربه الجزئية اليومية.. فترى الإنسان في مواجهة الزمن منتظرًا الخلاص كما في مسرحية بيكيت الأشهر في انتظار جودو، أو يفر من الموت فيصعد جبلاً شامخًا ويغوص إلى أعماق سحيقة، ثم يرتضيه ويسلم أمره إليه.. كما في القاتل بلا أجر ليونسكو، أو يلعب لعبة المرايا فيهرب من الحقيقة، ويستبدل الأكذوبة بالصدق، كما في مسرحية الخادمتان لجان جينيه.. أو يقاوم الإخفاق بلا جدوى.. وحيدًا أعزل غير قادر على التجاوب والاتصال مع الآخرين، كما في مسرحية الغزو لأرثور اداموف.

4 - المجال الفني الرابع الذي تبرز فيه مقولات ما بعد الحداثة بقوة هو "السينما"، "فالسينما" هي الفن الذي يتمتع بشعبية لا محدودة، وهي بصورة أو بأخرى مرتبطة بالمنطق الرأسمالي- سواء على مستوى الإنتاج أو التوزيع، كما أنها تستخدم التقنيات الحديثة بصورة تفوق استخدام كل الفنون الأخرى لها، مما يجعلها في حالة تطور وتحول مستمرين، وبصفة عامة، نستطيع أن نلحظ حضور التيمات ما بعد الحداثية في السينما المعاصرة على مستويين: الأول، أفلام أراد صانعوها التعبير من خلالها عن قيم المجتمع ما بعد الحداثي، كالتجاور والاختلاف والتعددية، وعن التغيرات المتلاحقة التي أصابت المجتمع ما بعد الصناعي، والثاني، أفلام تنطلق من رؤى ما بعد حداثية للعالم، رؤى مفككة ومتشظية، تستند في الأغلب على الانتقاء، والمزج، والرؤية غير المنفعلة بالعالم، وغالبًا ما تعتمد هذه الأفلام على توظيف التاريخ وتحويره لخدمة السياق العام للفيلم.

✹ ✹ ✹

في ظل هذا الوضع الملتبس للفنون في المرحلة ما بعد الحداثية، هل يمكن الحديث عن علم للجمال؟ أو نظرية للفن؟ أو حتى ما هو معياري؟

لقد رأى بعض النقاد، من أمثال فريدريك جيمسون وتيري إيجلتون وديفيد هارفي، أن هناك صعوبات عديدة أمام إمكانية تأسيس نظرية جمالية تواكب التطورات، التي لحقت بمفهوم "الفن"؛ خلخلة مفهوم الإبداع والتجربة الجمالية، مع تفشي القيم الاستهلاكية والتطور التقني، وتكنولوجيا الواقع الافتراضي و تغليب عناصر الشكل على المضمون (عناصر الإبهار في الصورة) بالإضافة إلى محاولة تقديم عمل فني يفهمه الجميع، ويخلو من الرمز حتى يحقق الانتشار المطلوب، مع الوضع في الاعتبار مفهوم "موت المؤلف" وآثاره على النظرية الجمالية، والاحتفاء بالنص، وفقدانه لخصوصيته من خلال مفهوم "التناص"، كل هذه التغيرات سيصطدم بها أي منظر للفن يحاول الحديث عن تجربة جمالية للمبدع أو للمتلقي؟ ويرى جيمسون أن نهاية الحداثة تعني من ثم نهاية الجمالي نفسه أو علم الجمال بصفة عامة؛ إذ هو برهن وجود علم للجمال باستقلال وذاتية العمل الفني، لكن أن يصبح العمل الفني مزيج أو امتزاج لأعمال أخرى، فإن العمل الفني نفسه سينحل إلى صور متعددة، صور ثقافية مختلفة عن التصور التقليدي لمفهوم الفن.



النزعتان الإنسانيتان[1]

بقلم: إدغار موران



ترجمة: د.سعيد بوخليط

مراكش - المغرب

أخذت الإنسانية، ضمن مسار الحضارة الغربية، وجهين متناقضين .يتمثل الوجه الأول، في شبه تأليه لإنسان، منقطع للطبيعة. إنه، في الواقع ديانة إنسان، حل محل إله متقادم، وتعبير عن مزايا الإنسان الحديث المتطور بيولوجيا، الصانع، الاقتصادي. بهذا المعنى، الإنسان مقياس كل شيء، ومصدر لكل قيمة، يبتغي التطور. يُطرح بصفته، ذاتًا للعالم، والأخير بالنسبة إليه، عالمًا–موضوعًا، تشكله موضوعات. هو سيد، على هذا العالم، يتمتع بسلطة لانهائية على كل شيء،ضمنها حقه اللانهائي في التدبير.

بناء على أسطورة (الإنسان المتطور بيولوجيًا) قدرات تقنيته ثم استئثاره بالذاتية، أرسى دعائم الشرعية المطلقة لتمركزه الأنثروبولوجي. وجه كهذا للإنسانية، يلزمه الاختفاء، ثم نتوقف عن التحمس للصورة البربرية، المشوهة، المعتوهة، عن إنسان مكتفيًا بذاته، فوق الطبيعة، محورًا للعالم، وهدفًا للتطور، متسيدًا على الطبيعة.

أما الثاني، فقد صاغه مونتين بجملتين: 'أكتشف في كل إنســان، مواطنًا لي، و"نُعت بالمتوحشين، شعوب الحضارات الأخرى". لقد مارس مونتين، إنسانيته عبر الإقرار لسكان أمريكا الأصليين، بمنتهى إنسانيتهم، والـذين تعرضوا لغزو أليم واستعبادهم، ثم انتقاده لمستعبديهم.

هـذه النزعة الإنسانية، أغناها مونتسكيو، بمكون إتيقي، مفاده، أنه إذا استلزم الأمر الاختيار بين وطنه والإنسانية، فيجب الانحياز للإنسانية.

أخيرًا، صارت هـذه الإنسانية مناضلة لـدى فلاسفة القرن الثامن عشر، وعثرت على تعبيرها الكوني في الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن سنة 1789. هذه النزعة الإنسانية، أقرت في مبدئها أوج الخاصية الإنسانية، لدى كل كائن ينتمي لنوعنا. تجد في كائن بشري، هوية مشتركة، وراء التباينات، مرتكزة ضمنيًا، على المبدأ الـذي طرحه إيمانويل كانط : تعامل مع الآخرين، مثلما تتوخى، أن يتعاملوا معك. أيضًا، تضمر تصور هيغل: كل كائن بشري، في حاجة إلى الاعتراف بأقصى درجـات إنسانيته، من طرف الآخـر. يطلب احـترام، مـا نسميه "كرامة" كل إنسـان، بمعنى أن لا تعرضه لمعاملة فظة. هذه النزعة الإنسانية، غذتها فيما بعد، طاقة للأخوة والحب، خاصية إنجيلية اكتست طابعًا علمانيًا.

بما أن هذه النزعة الإنسانية، تهم مبدئيًا جميع الكائنات البشرية، فقد احتكرها الرجل الأبيض، الراشد، الغربي. هكذا، أقصي البدائيين، المتخلفين، الطفوليين، الذين لم يدركوا كرامة الإنسان المتطور بيولوجيًا، فعوملوا كأشياء واستعبدوا، إلى غاية الحقبة الحديثة، جراء التحرر من الاستعمار.

لسنا في حاجة إلى نزعة إنسانية جديدة، بل أخرى تستعيد أصالتها ومتجددة.

تحوي النزعة الإنسانية في ذاتها، فكرة التقدم، وتهتدي بـه. لقد اعتُبر التقدم، منذ كوندورسي Condorcet، قاعدة يخضع لها التاريخ البشري. بحيث، يبدو أن العقل والديمقراطية والتطور العلمي والاقتصادي والأخلاقي، كانت غير منفصلة.اعتقاد، ولد في الغرب، تكرس، ثم عمم عالميًا، بالرغم من التفنيدات المرعبة، الناتجة عن التوتاليتاريات، وكذا الحروب العالمية في القرن العشرين. سنة 1960، وعـد الغـرب بمستقبل متناغم، والشرق بمستقبل مشرق. هـذان المستقبلان، انهارا قليلًا قبل نهاية القرن العشرين، وحلت محلهما الشكوك والمخاوف، كما أن الإيمـان بالتقدم، لم يعد قابلاً لإدراجـه ضمن مستقبل للوعود، بل الممكنات. بهذا المعنى، تقترح النزعة الإنسانية الجديدة، متابعة تطور الإنسان نحو أنسنة، بتبني المقتضيات الأنثروبو- إيتيقية (لنخلق الإنسان).

بالضرورة، النزعة الإنسانية المتجددة، هي كونية، بينما تضمنت السابقة كونية محتملة، وغاب هذا الترابط الملموس بين جميع البشر، فصارت رابطة للمصير، خلقت ووسعت العولمة، بغير توقف.

بما أن الإنسانية مهددة حاليًا، بأخطار قاتلة (ازدياد الأسلحة النووية، الحروب الأهلية التي اتخذت بعدًا دوليًا، هيجان مختلف أنواع التعصب، التقهقر المتسارع للمحيط الجوي، أزمات واختلالات اقتصاد تهيمن عليه مضاربات غير مراقبة)، فحياة النوع الإنساني المتلازمة مع حياة المحيط الجوي، أضحيا قيمة أولية، ومقتضى مبدئيًا. علينا أن ندرك، أنه إذا توخينا للإنسانية البقاء، فيلزمها أن تعرف تحولاً، وهو ما عبر عنه كارل ياسبرز مدة قليلة، بعد الحرب العالمية الثانية: 'إذا ابتغت البشرية مواصلة الحياة، فعليها أن تتغير من ثم، فالقضية الأولى للحياة اليوم، صارت أولوية وعي جديد، يستدعي مسارًا مغايرًا.

ترتكز بوعي، الأنسنة المتجددة، على المنابع الأنثروبولوجية للإيتيقا. منابع، حاضرة لدى كل مجتمع

"وعد الغرب بمستقبل متناغم، والشرق بمستقبل مشرق. هذان المستقبلان، انهارا قليلًا قبل نهاية القرن العشرين، وحلت محلهما الشكوك والمخاوف"

"فهذا الكوكب عالم، إنه عالمنا. كوكب، يشكل في ذات الآن، منزلنا وحديقتنا، نكتشف أسرار شجرة جينيالوجيتنا وكذا بطاقة هويتنا الأرضية، والتي تجعلنا نكتشف أمّنا الأرضية، في لحظة صارت معها المجتمعات المتناثرة حول الكرة الأرضية، مستقلة ثم يراهن جماعيًا على المصير البشري"

"إننا في مغامرة عجيبة، مع تلك الإمكانيات العلمية، الأكثر إدهاشا ورعبًا في الوقت نفسه. الإنسانية، بحسبي، لا تحمل فقط في ذاتها الشعور بالتضامن الإنساني، لكنه أيضًا الشعور، بأن تكون ضمن مغامرة مجهولة ومذهلة، والرغبة كي تواصل، صوب تحول، حيث يولد مستقبل جديد."

بشري، وتتمثل في التضامن والمسؤولية. التضامن نحو الجماعة، يحث على المسؤولية، والأخيرة توقظ التضامن. تبقى، هذه الروافد حاضرة، لكنها في قسم منها قد نضبت وجفت بالنسبة لحضارتنا، نتيجة تأثير الفردانية وسيادة منطق المنفعة، وكذا البيروقراطية المعممة. يجب، على النزعة الإنسانية الجديدة، أن تظهر إحياء التضامن والمسؤولية، بهدف مواصلة تطور الأنسنة، في إطار نزعة إنسانية، أي من أجل كل تقدم بشري.

لكن بينما تبقى الثنائية، تضامن – مسؤولية، منحصرة ضمن جماعات محدودة أو منغلقة(أسرة، وطن)،وقبل ذلك، فالنزعة الإنسانية عند مونتين ومونتسكيو، اتخذت معنى إنسانيًا كونيًا. غير أن هذه الكونية، لم تصبح ملموسة إلا مع جماعة المصير الكوني. أن تصير النزعة الإنسانية كونية، يقتضي إذن، من ثنائية تضامن – مسؤولية، الاستمرار في الاشتغال دون توقف، داخل الجماعات المتواجدة، وأن تتضخم، لدى جماعة المصير الكوني.

أيضًا: يلزم البشرية أكثر، أن تتحمل على عاتقها بوعي، الطموح الكبير الذي يخترق كل التاريخ الإنساني، فبقدر نزوع الجماعات إلى خنق الأفراد، تبتغي الفردانية، تفتيت الجماعات: تنمية شخصيته وسط جماعة، ثم تفتّح الأنا، بين طيات تفتّق النحن.

أخيرًا، هل يصل الوعي الكوني من تلقاء ذاته، إلى فكرة الأرض- الوطن، كما كتبت في مؤلف يحمل نفس العنوان[2]:«ها نحن بشر جد صغار، حول القشرة الصغيرة جدًا، للحياة المحيطة بالكون الصغير جدًا، التائه وسط الكوكب العملاق. مع ذلك، فهذا الكوكب عالم، إنه عالمنا. كوكب، يشكل في ذات الآن، منزلنا وحديقتنا، نكتشف أسرار شجرة جينيالوجيتنا وكذا بطاقة هويتنا الأرضية، والتي تجعلنا نكتشف أمّنا الأرضية. في لحظة صارت معها المجتمعات المتناثرة حول الكرة الأرضية، مستقلة ثم يراهن جماعيًا على المصير البشري»، ينبغي، أن يشكل امتلاك وعي جماعي، عن مصير الأرض، الحدث المفتاح لعصرنا.إننا، متآزرين في هذا الكون، بوصفنا كائنات أنثروبو- طبيعية- فيزيائية، أبناء لهذا الكون. إنها، أرضنا- الوطن.

إن اكتمال الإنسانية عند إنسانية، الجماعة الجديدة المندمجة في الأرض–الوطن، ثم تحول البشرية، يمثلان وجهي المغامرة الإنسانية الجديدة، المتوخاة والممكنة. بالتأكيد، تراكم الأخطار وسباق السفن الفضائية، حيث ترتكز محركاتها على التطورات غير المضبوطة للعلوم والتقنية والاقتصاد، تجعل المنفذ بعيد الاحتمال. لكن، ذلك لا يعني الاستحالة. حتمًا، يبدو من غير الممكن، تغيير السبيل، غير أن مختلف المسالك الجديدة التي عرفها التاريخ البشري، لم تكن منتظرة، بل هي وليدة انحرافات استطاعت التجذر، ثم صارت نزوعات وقوى تاريخية. تبدو، ضرورة عدد من التحولات، بنفس ذات إيقاع مطلب الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية والشخصية والإيتيقية[3].

لكن قليلاً على امتداد كل العالم، يظهرعدد لا يحصى من الإنبات، كما يجري عدد لا يحصى من المجاري الصغيرة ، بحيث تتلاقى كي تشكل جداول، يمكنها أن تصب في أنهار، ستلتقي عند نهر كبير.هنا، يكمن الأمل، ورغم هشاشته يبقى أملاً، يلزمنا أن نفهم ضرورة أخذ الرهان والأمل، مكان اليقينيات.

تطوي في ذاتها، صيرورتنا الحالية، لبنات تحولين. الأول، أشرنا إليه، وهو حاليًا بعيد الاحتمال، ينفتح على مجتمع–عالَم، بصير الأرض- الوطن. أما الثاني، فيتعلق بما بعد الإنسانية transhumanisme، والتي تقوم على احتمالات قوية، كانت مجهولة قبل عشرين سنة: إطالة الحياة الإنسانية، دون شيخوخة بفضل الخلايا الجذعية، الماثلة في الجهاز العضوي لكل واحد منا. ثم، تطوير تعايش حميمي أكثر فأكثر،بين الإنسان ومنتوجات تقنيته، لا سيما الأجهزة الإعلامية، والقدرة الكبيرة أكثر فأكثر، لآلات تكتسب مزايا بشرية، ضمنها الوعي ربما. كل هذا، يفتح وعيًا للخيال العلمي، حيث يتحول فعلاً المعطى الإنساني، إلى ما بعد الإنساني،بل، يمكن لما بعد الإنسانية هاته، التحول إلى أسطورة، من خلال نبوءة كون الإنسان، سيكتسب الخلود.

لكن هذه التطورات العلمية والتقنية، لن تكون لها خاصية إيجابية، إلا إذا صاحبها تقدم إنساني، هو في الآن ذاته، ذهنيًا وإيتيقيا وسياسيًا ومجتمعيًا. إذا لم يكن تحول المعطى البيولوجي والتقني، مصحوبًا بالتطور الإنساني، فسيؤدي إلى استفحال مشكلات، متفاقمة أصلاً. من جهة، اتساع الفوارق الطبقية، بين الأغنياء والأقوياء، أول المستفيدين الوحيدين من إطالة عمر الحياة، ثم الفقراء والمحرومين. قضية، الإقرار بحقوق بشرية، لروبوتات robots مفكرة، حين إثرائها بالوعي. إن إمكانية التحول العلمي- التقني، المستشرف لما بعد الإنساني، يستدعي حتمًا وبالضرورة، تحولاً سيكولوجيًا وثقافيًا واجتماعيًا، ينبثق من سبيل جديد، تغذيه إنسانية متجددة.

أريد أن أنهي مع مكون آخر للوعي الإنسي، مثلما ينبغي في اعتقادي أن يكون حاضرًا، لدى كل واحد منا. فأن تكون إنسانيًا، لا يعني فقط الاعتقاد، أننا نشكل جزءًا من جماعة المصير هاته، وأننا بشرًا جميعًا، قدر اختلافنا، وليس فقط الرغبة في التخلص من الكارثة واستشراف عالم أفضل، ولكن الشعور ثانية، في عمق الذات، بأن كل واحد منا هو لحظة وقطعة صغيرتين جدًا، ضمن مغامرة عجيبة ومدهشة، ونحن نواصل مغامرة الحياة.بدأت مغامرة تطور الأنسنة، منذ سبعة آلاف سنة، مع تعدد للأنواع وهي تتابع وتتلاقى، وصولاً إلى الإنسان المتطور بيولوجيًا. خلال، حقبة إنسان كرومانيون cro-magnon، ورسوماته الصخرية الرائعة، فقد امتلك سلفًا دماغ ألبير أينشتاين، وليوناردو دافينتشي، وأدولف هيتلر، وكل الفنانين الكبار والفلاسفة والمجرمين، دماغًا متقدمًا على فكره وكذا حاجاته. اليوم، لازال دماغنا يمتلك بلا شك كفاءات، لم نكتشفها بعد، ومن ثم توظيفها.

إننا في مغامرة عجيبة، مع تلك الإمكانيات العلمية، الأكثر إدهاشًا ورعبًا في الوقت نفسه. الإنسانية، بحسبي، لا تحمل فقط في ذاتها الشعور بالتضامن الإنساني، لكنه أيضًا الشعور، بأن تكون ضمن مغامرة مجهولة ومذهلة، والرغبة كي تواصل، صوب تحول، حيث يولد مستقبل جديد.

أنا فرد- ذات، بمعنى كل شيء في حوزتي تقريبًا، ولا شيء بالنسبة للكون. كِسرة صغيرة جدًا وعاجزة ضمن العلاقة مع الكون، وكذا الفكر البشري، حيث أساهم، ثم شيئًا قويًا، كغريزة تصل ما هو أكثر حميمية في ذاتي، بهذا الكون والفكر البشري، أي المصير البشري. أساهم، في هذا اللانهائي واللا–اكتمال والحقيقة التي نسجها الحلم بقوة، وكائن الألم هذا والسعادة والارتياب، الذي يسكننا، مثلما نسكنه.

وسط هذه المغامرة الجميلة، أمثل جزءًا ضمن كائن كبير، كما يتجلى مع سبعة مليار التي بلغها عدد البشرية، مثل خلية تنتمي إلى جسد بجانب مئات مليارات الخلايا، ألف مرة زيادة للخلايا عند شخص، كي نكون كائنات بشرية على الأرض.

أجسّد جزءًا ضمن هذه المغامرة الخارقة، المندرجة في قلب مغامرة الكون ذاتها المذهلة. تحمل بين طياتها، جهلها ومجهولها ولغزها، ثم جنونها في عقلها، لا وعيها في وعيها، مثلما تطوي ذاتي الجهل والمجهول واللغز والجنون وعقل المغامرة.

المغامرة، أكثر من ذي قبل، مريبة ومهولة ومثيرة، لكن: ليس لك من طريق أيها المشاء، بل تتأتى لك الطريق، وأنت تمشي.

الهوامش:

1- le monde diplomatique :octobre ;2015.
2-terre-patrie ;points ;coll essais ;paris2010.
3-Edgar Morin ;la voie ;fayard ;paris 2011.



يا حاديَ الظلّ..!!

سارة بنت سليمان العثمان الدريهم
الرياض
(سحاب الرياض) @sahab160

"**لازلتَ في ظلين ..**
ظلّ سَحابَةٍ وَطَفاءَ دانيةٍ ..
وظلّ حَنُون .."

حين تخذلك الحُجبُ، فتتوارى أفياء ظلك اللصيقة يومًا ما ...عن ناظريك، دونما أن تلمح لها أثرًا يقيك هاجرة الحرّ والقرّ.. أحدثك حينئذٍ عن تعاضد انكفاءات ذاتك على ذاتك وبكل وحشية.

فلا تقف ولا ... ولا تلتفت وامض كأنك تراه، عش به ومعه، وإن انحلّ شيئًا فشيئًا فلن يتلاشى ..

نعم وإن اضْمَحَلّ عن سابق تشكيلاته بطوله حتى التحف، وقصره حتى اكتنف، وبمحاذاته حتى عانق وضمّ وشمّ .. متشكلًا في قالب مقنن من تراسل حواس الظلال، رحل وتداعت له سائر الروح بالوله والولع..

حينئذ .. أعد تشكيل ذاتك، وعذرًا منك أيتها الظلال ..إن اخترتِ الرحيل، فلن أقف تحت قسوة انتظار انجلاء الحُجب، وسأرتحل، فكما بدأتُ سأعود، متجردة! إلا ما حملتْ ظهور الرُّحل المثقلة بالوفاء وضجيج الذكريات ..

إي والله، ضجة أسمع حسيسها .. وأشهد احتياساتها العاطفية الملتهبة، فما والله عدتُ متهيأة للمعاودة، ثم العيش بقارص زمهرير فراقان كافيان للتفيء بالتذكر فيما بقي من العمر..

ولله ما أرق الشعراء حين أستعير رضاب الشهد من بين لسع الوخز، فألثم ثغر حروفهم!!

وبالله ما أقساهم إن كانوا ظلًا ..
شكلوا لازب الغياب، فتركوه صلدًا ..!!

"**أوليس لي في ظل حبك موضع**
أحبو إليه وأرتمي مستنصرا!!
ما كنت أصبر عن لقائك ساعةً
كيف اصطباري عن لقائك أشهرا؟
من بدّل الثغرَ الجميلَ عبوسةً
ومضى إلى وجه السماء فكدرا؟!
يا هاته الأقدار! عينك لا ترى
تحت الدجى سأمان ممتنع الكرى
ظمآن، لو باع الأحبةُ قطرةً
بالعمر.. والدنيا جميعًا لاشترى
يرنو إليك على البعاد ويمتلي
فيجره الجرحُ المميتُ إلى الثرى
قد عاش وهو معذبٌ بإبائه
ولقد يلاقي يومَه مستكبرا"

***

فيا غائبًا؟ لم يَؤُبْ بل غائبَين معًا
هل يلام متجرد ... إلا من بقايا معاطفكم؟!

أحدثك عن أولى محطات الحجب ومعازف الرحيل، إذ كان أقسى الظل حين انخلع فخلع روحي، وتجرد فجردني عارية بحزني فصرت يومًا كصدقة في طريق الأوفياء من السيّارة، يجودون لها وعليها، لم أفق مما هالني من قسوة ارتحال الظل ونتوءاته المتشققة إلا وظل (أكثر) دفئًا في لصوقه يرتحل، وهذا التفضيل لا يقلل من أفياء ظلال روح (أبي) الآمنة، ولكن لتدرك أن دفئًا التحفك بعد عُريّ، وسجفًا يحرسك ويؤانسك في ديجور الاستيحاش، يكون ذلك الآخر (أكثر) حضورًا حين ستر ولملم شعث لوثة الفجع، ورمم بثور الوجع، وإن كان الأول (أولى) إذ بالآخر في لطفه بقايا فتيت مسك وضعها (أبي) في آخر سجدة له قبل معزوفة رحيله – رحمه الله.

فلا ظل بعد ظلين، وإنْ! فالقلب لا يُلسع من جرحٍ مرتين:

فيا حميميّ الحضور .. قارصا الشعور.

ويا أيتها العوالم المتوهمة ..كسراب بقيعة يحسبه الظمئُ رواءً ..حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا !!

"ويا ما عسى منّي أُناجي ..توهمًا .. بياءِ النّدا .. أونست منك بوحشةِ"

رحم الله الغائبين، وردّ بعض أفياءهما ...

فـ"**لي كبد مشطورة" في يد الأسى ..**
فتحت الثرى شطرٌ
وفوق الثرى شطر"

تعريب العلوم ..
ضرورة حتمية في الألفية الثالثة

ا.عام

تواجه المنطقة العربية وهى على أعتاب القرن الحادي والعشرين بتحولات جذرية, سياسية واقتصادية واجتماعية حادة على المسرح العربي والعالمي. وترجع هذه التحولات إلى الثورة التكنولوجية والمعلوماتية التي تعد هي أساس التقدم الاقتصادي والرقى الاجتماعي.

ويعد دور التعريب – للعلوم – بشتى صوره الرافد الأساسي لهذه الثورة الوليدة، فبقدر إسهام العرب في نمو وازدهار العلوم بقدر ما يحصلون على رفع مستويات معيشتهم ورفع معدلات التنمية في دولهم.

ولم تخف القوى المناهضة للعروبة والإسلام نياتها ضد العرب، بل أفصحت عن ذلك جهارًا، وها هي الحروب تحاك ضد العرب والمسلمين في شتى أرجاء المعمورة.

ولقد كانت في الماضي تقاس قوة الدول بما تملكه من إمكانيات اقتصادية وقدرات عسكرية ألا انها أصبحت اليوم تقاس بالقدرات العلمية وما تعرفه من علوم العصر.

إن اللغة العربية قادرة على استيعاب روح العصر وفتح آفاق جديدة لدور البحث العلمي العربي ووضعه فى المكان اللائق به في عالم اليوم.

بل إن استخدام لغات أخرى غير العربية فى العملية التعليمية والبحث العلمي يضر بالقطع ولا يفيد مما يسبب انخفاض المستوى العلمي للدارسين وعدم الاستيعاب الكامل بل وفوق ذلك عدم الانتماء القومي بما يمثله من حب أصيل لدى المواطن العربي.

بل وتلعب اللغة العربية دورًا بارزًا في تنمية الثقافة العربية فهي ليست وسيلة للتعبير والاتصال بقدر ما هي فى المقام الأول نظام متكامل يربط الفرد بالجماعة وتوحيد الكيان العربي ضد الثقافات الواردة.

ولاشك أن ظهور الإسلام كان دفعة قوية للفكر العلمي، لكي يتفتح وينتشر ويزيد من معارف الإنسان ورفاهيته.

أليس معجزته الخالدة هي القرآن الكريم؟

أليست أولى آياته هي أقرأ؟

أليس يقول الحق في أكثر من آية حاثًا ومشجعًا، ويحض على العلم والتعلم؟

ألم يفضل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مجالس العلم على مجالس الذكر؟

ألم يوازن بين مداد العلماء بدماء الشهداء ؟

كل هذا لما للعلم من أهمية في دولة الإسلام يجب الاستزادة منه والتعمق فيه كيف هذا؟



لواء أ.د.عبدالمقصود حجو

أستاذ زائر بالجامعات المصرية والعربية

مصر

والعربية هي الوسيلة المثلى للعلم والعلماء، وما إن استقرت الدولة الإسلامية وامتد سلطانها من مشارف الصين شرقًا إلى فرنسا غربًا، حتى أخذ المسلمون ينهلون من موارد العلوم في مختلف المجالات.

بل إن الخليفة العباسي هارون الرشيد قبل الجزية كتبًا، كما دفع المأمون وزن الكتب المنقولة والمترجمة ذهبًا.

لهذا الحد والمكانة كانت قضايا التعريب فى العصور الزاهية للحضارة الإسلامية.

وابتدع الخوارزمي استعمال الحساب بدلاً من حساب الجمل، الذي كان سائدًا واختار سلسلتين من الأرقام الحسابية، ما زالتا مستخدمتين حتى الآن.

ويبلغ تعداد العلماء المسلمين الذين غذوا الحضارة الإنسانية حدًّا كبيرًا يصعب حصره – كما اعترف بذلك علماء الغرب المنصفون – مثل ابن سينا وابن رشد والبيرونى وابن الهيثم وابن حيان وغيرهم.

وعندما فتح المسلمون البلاد التى كانت مسرحًا للحضارات القديمة كاليونانية والإغريقية والفارسية والرومانية أقبلوا على تراجم التراث الإنساني والعلمي لهذه الحضارات أضافوا إليه الكثير.

وكان من أبرز المترجمين ابن المقفع والحسن بن سالم وغيرهم.

2.التعريب وقضايا التعليم

يعد التعليم وما يتصل به من نواحي فنية وعلمية وإدارية هو محور التنمية فى بلد من البلدان.

ويقاس التقدم التكنولوجي – عادة – بعدد التخصصات العلمية من مهندسين وأطباء وعلميين مقارنا بالعدد الكلى للسكان.

بل إن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن لترتاد الفضاء إلا بما تملكه من كوادر علمية فى مجال الأقمار الصناعية وسفن الفضاء والجيولوجيا.

ولاشك أن الدراسة لأي طالب بلغته الأم أكثر فائدة وأسهل وأيسر استيعابًا من الدراسة باللغات الأخرى.

ويمكن إيجاز فوائد التدريس والتعلم والبحث العلمي – بالعربية – على المستوى العربي فى الآتي:

- سهولة ويسر نقل المفهوم العلمي.
- الحصول على كفاءة علمية تعليمية عالية.
- الإسهام ولحدّ كبير في ارتفاع مستوى البحث العلمي.
- توحيد المفاهيم والمقررات الدراسية للدول العربية مما يتيح إيجاد قواعد بيانات علمية عربية.
- التقدم السريع وازدهار مناخ التدريس والتعلم بالعربية.
- تعميق حضارة العربية، وجعلها لغة بحث علمي عالمي.
- إمكانية ازدياد حركة التأليف والنشر للمراجع العلمية بالعربية.

3.دور الجامعات ومراكز البحوث

إن دور الجامعة ومراكز البحوث في قضايا التعريب جدّ خطير، فهما المنوط بهما تنفيذ العملية التعليمية والبحث العلمي والإسهام الفعلي في رقي وتحضر المجتمع العربي بواسطة خطة مدروسة، تواكب احتياجات وتطلعات المجتمع.

ولعله من المفيد هنا أن نورد هذا الدور في الآتي:

- التزام الجامعات ومراكز البحوث بالتدريس بالعربية طبقًا لقانون تنظيم الجامعات رقم 49 لعام 1972م.
- تدريس العلوم في الكليات والدراسات العليا بالعربية.
- تشجيع حركة التأليف والنشر بالعربية.
- جعل العربية هي لغة التخاطب بين الكليات والجامعات والاتحادات الجامعية العربية.
- جعل العربية هي اللغة الرسمية في المؤتمرات والندوات.
- الاهتمام الأولي بتدريس العربية للنشء الصغير منذ البداية.

إن جعل العربية – اللغة الأم – هي السائدة – في التدريس ومراكز البحوث سوف يعود بالفائدة الكبرى من ناحية التقدم العلمي ونشر المعرفة والرواج الثقافي.

إن تدريس العلوم الحديثة باليابانية أو الصينية وغيرها من اللغات لم يمنع من التقدم العلمي لتلك البلاد وحصول الطفرات العلمية فيها.

4. دور مؤسسات الدولة

لكي تصبح العربية لغة سائدة يجب أن تصدر القرارات الملزمة حتى يتقيد الأفراد وتلتزم المؤسسات في الدولة بجعل العربية اللغة الرسمية تخاطبًا وتعليمًا وبحثًا علميًّا وأسلوبًا للحياة وذلك باتباع الخطوات الآتية:

- إصدار تشريع بواسطة مجلس الشعب بجعل العربية لغة الاتصال والتخاطب بين الوزارات والهيئات والإدارات.
- فرض العقوبات ضد استخدام لغة خلاف العربية أو لغة خليطة من العربية واللغات الأخرى.
- فرض القيود الخاصة بالتزام القطاع الخاص والمؤسسات التجارية بكتابة العناوين واللوحات بالعربية.

ولقد كان من أهم قوانين ثورة يوليو 1952 م أن أصدرت تشريعًا فى عام 1954 م بجعل العربية اللغة الرسمية وعدم استخدام لغة أخرى.

وحديثًا فإن دولة الإمارات العربية المتحدة فرضت قيودًا على عدم استخدام لعربية، بل وفرضت الغرامات عند التحدث أو الكتابة باللغات الأجنبية.

5. التوصيات

- إصدار التشريعات القانونية الملزمة باستخدام العربية كلغة أساسية في جميع مؤسسات الدولة.
- المتابعة المستمرة والدورية على التزام هذه المؤسسات بتنفيذ استخدام العربية.
- إثراء حركة التأليف والنشر للكتب والمطبوعات بالعربية.
- إنشاء مناخ عام بالتقيد باستخدام العربية داخل الدول العربية.

6 - الخلاصة

يدخل العالم العربي – الألفية الثالثة – في عالم يموج بالعديد من المتغيرات والمفاهيم

ويزخر بالكثير من التحديات والعقبات ويتعرض العرب– الآن – لصراع حضاري قاس، وتلوح في الأفق نذر حرب ضروس خاصة من النواحي التكنولوجية.

ويموج عالم اليوم بثورة معلوماتية ونهضة تكنولوجية وطفرة علمية واسعة وهائلة، ونتيجة لثورة الاتصالات أضحى العالم شبه قرية صغيرة.

ويرجع السبب الأساسي في هذه الثورة الفريدة للتقدم العلمي والبحوث الأكاديمية والتطبيقية في شتى العلوم بمعناها العام.

وها هي نذر التغيير الكامل ليس فى النباتات والحيوان، بل في الإنسان أيضًا تلوح في الأفق بفضل علم الهندسة الوراثية والجينات.

وتنفق الدول المليارات من العملات المختلفة على مراكز البحوث والمعاهد المتخصصة لاستنباط سلالات جديدة واختراع آليات حديثة تدفع بالبشرية للأمام.

والمتأمل يجد أن إسهام العرب على المستوى القومي يسير إلا أنه على المستويات الفردية يعد هائلاً وكبيرًا.

ومن أهم معوقات التقدم العلمي العربي هو قضية التعريب، فالتعريب أصبح ضرورة ملحة وواجبًا وطنيًّا بل أكاد أقول أنه قضية أمن قومي بالدرجة الأولى.

إن تعلم العلوم – باللغة الأم – له من المميزات والفوائد القدر الكبير، وليس له أيه مثالب أخرى.

ولقد أجريت العديد من الدراسات والبحوث الميدانية لبيان فائدة تعريب العلوم، فكانت النتائج باهرة ومشجعة، وحري بالعرب اليوم أن تتوحد جهودهم في اتباع خطة زمنية يجب على الدول العربية الالتزام بها في قضايا التعريب، لكي تتكامل بذلك منظومتي الدراسة والبحث العلمي.

بل إن قضية التعريب قد تكون أهم روافد وحدة العرب فى ظل المتغيرات الدولية.

ويحتل التعريب– بؤرة الاهتمام – في هذه القضية، حيث إنه العامل الرئيسي ليس في التنمية، بل في الإسهام في الحضارة الإنسانية.

المراجع:

1 – تقارير التنمية البشرية لمنظمة الأمم المتحدة عام 2012م.

2 – تقارير التنمية البشرية لجامعة الدول العربية عام 2010م.

3 – معدلات النمو في بعض الأقطار العربية.



عبودية الواقع الافتراضي.. نبوءة أفلاطون

✸"القطيعة مع الأمور الواقعية أمر سهل، ولكن مع الذكريات!
فالقلب يتقطع لهجر الأوهام، لقلة ما في الإنسان من حقيقة"



جلال العاطي ربي

المغرب

يستعرض أفلاطون في الكتاب السابع من كتاب الجمهورية أليغوريا الكهف، وأليغوريا الكهف هاته (يحبذ البعض وصفها بالأسطورة أو الأمثولة) هي أقصوصة رمزية تحكي عن رجال قبعوا في كهف تطل فتحته على النور، ويليها ممر يقود إلى الكهف. هناك حيث ظل هؤلاء الرجال منذ نعومة أظفارهم والقيود والأغلال تطوقهم فلا يستطيعون لا حراكًا ولا التفاتا إلى ما يقع وراء ظهورهم، ولا الفكاك من هذه القيود. ومن ثمة فإنهم لا يرون إلا ما يقع أمام أنظارهم، وما يعكسه نور النار من أشياء، يتفنن بعض اللاعبين أو الحراس في تمريرها عبر جدار يشبه حاجز مسرح العرائس، فتتحول تلك الأشياء إلى ظلال منعكسة على صفحة الجدار أمامهم. مع مرور الوقت سيعتبر رجال الكهف هؤلاء أن تلك الظلال وتلك الأشباح حقيقية، وأن ما تنقله إليهم حواسهم من أوهام يقين مطلق لا يأتيه الباطل لا من أمامه ولا من خلفه. والويل والثبور لكل من سولت له نفسه أن يقول العكس، أي أن تلك الظلال هي محض أوهام.

الأسئلة المشروعة التي تتولد عن هذه الأسطورة هي كالتالي: ألا تجعل هذه الأليغوريا من أفلاطون أول سينمائي في التاريخ؟ ألم يتنبأ أفلاطون منذ ما ينيف عن 2500 سنة عمًّا نسميه اليوم أدبيات ما بعد الحداثة بالواقع الفائق hyperréel أو عصر اختفاء الواقع؟

وبالعودة إلى أليغوريا أفلاطون فإن سدنة الكهف يمثلون أول من ابتدع فن التوهيم والتضليل والخداع البصري، الذي يقيد السجين فيجعله يرفل في سلبيته، ويبرح دائم التعلق بواقع إسقاطي réalité projetée غريب عنه أو قل محجوب عنه.

إن ما نعانيه اليوم في زمن العولمة النيوليبرالية والرأسمالية الزاحفة والإنسان- الشيء هو أن العوالم الافتراضية تشهد تدفقًا بلغ الآفاق لسلسلة لا نهائية من الصور وصور الصور والسيمولاكر (المصطنعات)، التي باتت تنوم مغناطيسيًّا المتلقي فتحاصره من كل صوب وحدب، فتنتزع منه كل رغبة في التخلص من سطوتها، وتسلب منه أغلى ما يملك وهي الحرية أو إرادة الفعل الحر، بكلمة واحدة. فنبوءة أفلاطون تحققت فعلًا في وقتنا الراهن، العصر الذي أريد له أن يكون عصر الانفجار المعلوماتي والثورة المعلوماتية. لقد أضحينا بالقوة وبالفعل أسرى الأوهام والألغوريتمات وزمر من الرموز، إننا، وهنا سأستعير عبارة صاحبي كتاب الإنسان العاري: الدكتاتورية الخفية للعالم الرقمي، كما لو أننا سجناء داخل مرايا مشوهة وبدون مادة قصديرية وراءها، لكي تعكس الحقيقة بصورة أمينة. لقد أصبح انعكاس الواقع في رؤوسنا أهم من الواقع ذاته، والظل أهم من النور، واللاواقع واقعًا. إن الواقع قد أخذ في الانسحاب شيئًا فشيئًا، تاركًا محله لصالح اللاواقع أو ما يسميه بودريار ما فوق الواقع أو ما أحبذ ترجمته بالواقع الفائق، الذي ينسف العلاقة الحميمية بين الدال والمدلول، بين الرمز وما يرمز إليه، فيصبح الواقع لا يجد مرجعيته إلا في ذاته، إذ إنه كلما اكتفى الرمز بذاته وجسرت العلاقة بينه وبين ما يرمز إليه، يصبح ما يدل عليه الرمز من خارج الواقع، وبذلك يختفي الواقع ويظهر بالتبعة الواقع الفائق، وبذلك فقد اختزل الواقع في الصورة، وأصبح العالم مجموعة من عمليات الاصطناع والصور، بل إن هذه الصور نفسها أصبحت هي الواقع الذي توارى إلى الخلف محجوبًا. إن الرمز (اللغة، الصورة، الشيفرة...) يقضم الواقع ويطرده تدريجيًّا إلى أن يحتل مكانه، وبلغة جيوسياسية، يمكن القول إن ما فوق الواقعية إمبريالية توسعية، هكذا يصبح الواقع هو الرمز والرمز هو الواقع، مما يعني تدمير التصور اليوناني للحقيقة بوصفها مطابقة للواقع، بعبارة أخرى، فالرمز تحول إلى ديكتاتور يسطو على الحقيقة ويستفرد بها لوحده.

إن أحد أعراض الفاجعة التي تتكبدها اليوم هو هذا السعار العام والجري اللاهث وراء الصورة الذكرى image souvenir ، إنها شراهة مرضية عززتها الهواتف الذكية، التي تتيح تصوير وتخزين عدد لا محدود من الصور، ومشاركتها تلقائيًّا مع الجهات الأربع للعالم، ومن ثمة فقد أصبح العالم يقوم على هذا المبدأ/ الصيغة: "لا قيمة للحاضر إذا لم يأخذ شكل ذكرى مبكسلة "souvenir pixellisé، فما الفائدة من بلوغ قمة كيليمنجارو إذا لم يتحول الحدث إلى صورة تؤثث الفايسبوك أو تويتر؟ وما قيمة مشاهدة مباراة فريقك الأثير إذا لم تخلد ذكرى الحدث في صور؟ وقس على ذلك أحداث ووقائع ومناسبات خاصة وعامة، أصبحت تؤثث العوالم الافتراضية.

> إن أحد أعراض الفاجعة التي تتكبدها اليوم هو هذا السعار العام والجري اللاهث وراء الصورة الذكرى image souvenir . إنها شراهة مرضية عززتها الهواتف الذكية التي تتيح تصوير وتخزين عدد لا محدود من الصور ومشاركتها تلقائيًّا مع الجهات الأربع للعالم

بالفعل لقد أدت عملية رقمنة العالم إلى انتزاع الواقعية عنه، إنها ظاهرة من العسير التحكم فيها، إنها مثل ثقب أسود يبتلع الواقع المحسوس، قبل أن تصبح اليوم الحواسيب والهواتف الذكية هي ما يمثل هذا الخطر



الزاحف الذي يتهدد جغرافيا العالم الواقعي. وعندما كان التلفاز في بداية انتشارها توقع الفيلسوف الألماني غونتر أندرس في إحدى تأملاته هذا الخطر القادم من صندوق العجب هذا، قائلاً: "عندما يصبح الشبح حقيقيًا، يصبح الحقيقي شبحًا".

لكن لماذا نلح إلحاحًا على تخليد كل شاذة وفاذة من حياتنا العامة والخاصة؟ لماذا نصر أيما إصرار على أن نحول واقعًا ثلاثي الأبعاد، أو ربما أكثر إلى واقع ثنائي الأبعاد؟ لماذا نتعنت من أجل مقاسمة لحظاتنا الحميمية مع غيرنا؟ لماذا نولي بالغ الأهمية للواقع الرقمي بدل الواقع المعيش؟

إن نمط السيلفي selfie يحيل على نحو مستتر إلى الظلال المنعكسة على جدران كهف أفلاطون، ولا تترجم ولا تعكس أبدًا الحقيقة. إنها بعبارة أخرى، مقاومة ضد الزمان وسعي حثيث إلى الخلود. إنها بمثابة ذلك الذي يتوهم إيقاف عدّو كرونوس. إن كمال الافتراضي الذي يغوي أسراه يدفعهم إلى كراهية الواقع الحقيقي بتعقيداته وعيوبه وصروفه ومصادفاته اللامتوقعة.

لقد غدا الواقع الرقمي الذي يفرضونه علينا كل حين هو الواقع الحقيقي. فبترميز العالم برمي الكم المعلوماتي الهائل le big data بشباكه بيننا وبين الواقع، فيمتص مشاعرنا ووجداننا التي تعد بحق منتجات إنسانية محضة، غير قابلة للنمذجة أو القولبة. وهي وحدها التي تجعل من الإنسان كائنًا لا يمكن توقع ردود أفعاله على النقيض تمامًا من الحاسوب المبرمج. إن هذا الواقع اللامادي الغريب ينتزع من الإنسان أصالته الإنسانية التي اعتبرت قيمة جوهرية بالنسبة للإغريق القدامى. فأن تكون أصيلاً يعني أن تعرف نفسك بنفسك، وأن تقبل بوعي الوجود كما هو.

تقضم الافتراضية بسادية كل يوم مساحة من مساحات المجتمع، وتخترق نشاطًا من أنشطة الإنسان، سواء كانت نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو فنية... فعلاقاتنا أصبحت لا تتم إلا بوساطتها، ومشاعرنا أصبحت لا تتم إلا عبر وسائل التواصل هاته (الحب الافتراضي، الشخصية الافتراضية، التجارة الافتراضية، الإرهاب الافتراضي، المتحف الافتراضي...)

لقد تغير حتى معنى الواقع من الواقع الذي أراده أرسطو ماديًا إلى الواقع الافتراضي، الذي يريد أن يقول "إن الواقع وهم والواقع ليس هو ما يوجد، بل هو ما يسجله عقلك" وهذا ما يؤدي رأسًا إلى ضياع جوهرانية الواقع، وهو ما يحتم ضرورة إعادة النظر في عدد من المفاهيم الفلسفية من قبيل مفهوم الشخص ومفهوم الهوية ومفهوم الحرية وغيرها.

يصف صاحبا كتاب الإنسان العاري عملية الولوج إلى الشبكة بتحالف أو ميثاق مع الشيطان، حيث نقايض هويتنا الرقمية بعدد من الخدمات المجانية، لنقرأ ما يقوله رئيس إدارة غوغل "بالنسبة لمواطن الغد، تشكل الهوية أغلى السلع، ستكون الهوية أساسًا متصلة en ligne. إن سلطة ثورة المعلومات هذه رغم بعض مظاهرها السلبية تستدعي في المقابل خيرًا أساسيًا" بعبارة أخرى، فالاستغلال الذي يطال متصفحي الشبكات العنكبوتية سيكون أيضًا مصدرًا من مصادر سعادتهم.

يجعلنا الاتصال إلى أن نستشعر، متوهمين طبعًا، أننا مستقلون وأحرار، لكننا في الحقيقة عبيد هذه الآلة الجهنمية. إن تواصلنا يخضع لعدد من القواعد. الرسائل يتم مسحها نهائيًا، والعلاقات الاجتماعية تتم برمجتها. إن الألغوريتم يحدد كذلك مسارات هويتنا الرقمية. إن توأمنا الرقمي يتصفح العوالم الخفية في مدن ومواقع الشبكات والجغرافيات المحلية (ma) والمؤسساتية (org.) والأجنبية (fr.) والكونية (com.) برغم مساحة الحرية التي يوفرها الواقع الافتراضي والفائقة للحدود بين الأوطان والثقافات واللغات، غير أنه وكما يشير إلى ذلك الأنثربولوجي الأمريكي توركل في مؤلفه "عزلة جماعية" «أننا بالفعل نجتمع كلنا غير أننا وحيدون». إنه على عكس ما يبدو عجزت الشبكة في أن توجد التضامن والتآزر بين الأفراد، فكل واحد يسبح داخل فقاعته، والكل لا يهمه إلا ذاته. إنها الفردانية المتوحشة، وهي ترقص وحيدة في العالم الافتراضي!

هناك مساوئ عديدة لهذه الظاهرة، إلا أننا سنكتفي بالإشارة بإيجاز إلى بعضها، فبالإضافة إلى اختراق الحميمية واستباحة الخصوصية، ولا معيارية الحقيقة، ومشهدية الواقع، وتدمير مبدأ التناقض، فتصير الحرب سلمًا والسلم حربًا (جورج أورول). هناك أيضًا مثالب أخرى نفسية واجتماعية، ففي اليابان مثلاً، ظهرت شريحة من الشباب المتقوقع على ذاته، والعاجز في أن يحيا خارج عالمه الافتراضي. إنه ما يسميه السوسيولوجي دومينيك فولتون في كتابه "العولمة الأخرى" باستلاب التفريغ aliénation de branchement. في مقابل ذلك يقول: "إن الأساسي بالنسبة للإنسان ليس هو الصورة وإنما الاتصال contact". كما ثبت أيضًا أن إدمان الواقع الافتراضي يؤدي إلى مجموعة من الأمراض النفسية، التي تبدأ بالبارانويا وصولاً إلى العصاب الوسواسي، إضافة إلى الكبح الزائد للتعاطف مع الغير، والتعود على مشاهد العنف، مما قد يتسبب في مآسي وكوارث مثل الجرائم الجماعية، التي يرتكبها القاصرون في المدارس الأمريكية على سبيل المثال لا الحصر.

للعقل أوهامه والكهف أحدها، وبرغم أن هذا الوهم ذاتي وشخصي، ويتصل وثيق الصلة بأفكار الشخص الفرد، إلا أن ما نعايشه اليوم هو سعار جمعي أو قل هو بلغة فرنسيس بيكون مرة أخرى وهم للقبيلة جمعاء. إذ إنه بعد كل شمس تبزغ علينا تتناسل أعداد عبيد التقنية والعالم الافتراضي، أمام سطوة هذه الأوهام يفرض علي واجب الوعي بالوهم أن أصيح عاليًا: استفيقوا قبل أن يفوت الأوان، ويصير كل إنسان مجرد أيقونة افتراضية!



المراجع:

* شاتوبريان، حياة رانسيه، القسم الثاني. نقلا عن المصطنع والاصطناع، جون بودريار، ص 7.

- جون بودريار، المصطنع والاصطناع، ترجمة جوزيف عبد الله، المنظمة العربية للترجمة، 2008.

- Marc Dugain et Christophe Labbé. L'homme nu. la dictature invisible du numérique. 2016

إبداع

قصة قصيرة

امرأة على موعد مع عرقوب

عبدالقادر بغاديد

الجزائر

في لحظة من لحظات العمر اللاهث لا نجد سوى الفرار مركبًا نمتطيه هربًا من متاعب الزمن.

في لحظة من لحظات العمر لا نجد سوى الظلام، نتوارى خلف جدرانه، هربًا من واقع يرفض كل حلم نراه جميلاً.

ما زلت أذكر ذلك المساء الحزين حين بدت لي كعصفور بلله قطر المطر، جاءت تلتمسُ بعضًا من الدفء في ثنايا روحي العليلة، كانت مهزومة، مكسورة الجناح والوجدان، شاكية من لوعة الجراح، تبحث عن مأمن يأويها.

بريئة جرها الألم إلى مخالب الشرود، سفرية أخذت بها حيث لا استقرار ...لا سكون.

تتدفق من ثغرها نسائم العبير الثُملى، تبدو كالنجم الشريد، الذي يبحث عن ثناياه، وعن ليل جديد في كبد السماء، وعن ومض يُنير الظلام، وعن أمل يهدم الحصار.

تبدو كفراشة الربيع تنتظر من يزيح عنها رتابة الأيام، ويطلق سراحها من يداوي أوجاع هذا القلب العليل.

هي امرأة ككل النساء، تبحث دومًا عن قلب صادق يمنحها الحب والحنان.

لقد اعتادت أن تزور هذا المكان، تأخذ الركن نفسه، وتجلس حيث الطاولة نفسها.

اعتاد الكل رؤيتها في زاويتها الخاصة، أصبح لوجودها رباطٌ بين رواد هذا المنتجع السياحي. كان الكل ينظر إليها باستغراب، يسأل عن هويتها وعن طبعها.

جلست أنا هناك أرقب حزنها المتواري خلف أحلام متناثرة، وفي جوفي ألف سؤال وسؤال.

لماذا هي على الدوام هنا؟ لماذا تأتي في الموعد نفسه؟ لماذا تغادر في نفس الموعد؟.

كنت أكثر المتواجدين فضولاً، اقتربت منها، كانت سابحة في السماء من أقصاها إلى أقصاها، ترفرف كطائر طليق شارد عن سربه.

ألقيت التحية .. نظرت إلى الأفق البعيد نظرة تائه، وهامت بسحر عيونها، تمخر عباب السماء، ثم غادرت المكان.

تعدو الفصول تجر بعضها البعض في سفر طويل، مازال كل شيء يراوح مكانه.

حدث ذات أمسية أن هبت ريح عاتية فجأة، وعم الغمام كل شيء، وأطلقت السماء العنان لحبات البرد وزخات المطر.

انتفض الجميع جريًا، يهرولون إلى أي مكان، بقيت هي في مكانها هائمة في دهاليز الحيرة والهيام، دنوت منها .. سيدتي إن النوة شديدة وأنت مبللة، هيا لترحلي، فلقد غادر الجميع.

ضحكت ضحكة ندية كأغصان الياسمين وقامت، ولأن المطر كان غزيرًا، قبلت الذهاب معي بالسيارة.

على امتداد الطريق، تنهدت تنهيدة، ثم قالت إيه .. يضيق الأفق حين يُدبر ضوء القمر، وقد يتيه منك الطريق.

ثم غابت شاردة وعادت قائلة: كان يحب المطر... ورددت (حبيبتي والمطر)

أخاف أن تمطر الدنيا ولست معي.

فمنذ رحلت وعندي عقدة المطر.

نظرت إليها قائلاً: أتحبين شعر نزار؟

قالت: لكل امرأة نزارها.

ثم كررت قولها، نعم كان يحب زخات المطر، ويعشق الحشيش الأخضر...

كان صوته يشدو رقراقًا كهمس الغسق، كان مثل الطبيعة نقيًّا طاهرًا يعبق أريجًا.

نظرت إليها باستغراب ثم سألتها:

عمن تتحدثين؟ ومن أنت؟

قالت: من أنا.

أما تدري؟ أنا قلب يحترق ويشقى، حتى يسعد من حوله.

أنا لست أنا، نفسي ليست نفسي، تحيا لغيري.

فلا تعجب سيدي من فلسفتي.

ثم غابت شاردة: نظرت إليها.

تملأ مقلتيها الدموع، ربما هي ترجمان لأحاسيس الشوق والحنين، أو البعد والجفاء.

بصوت رخيم ينبع من صدر عشعش فيه ركام الحزن.

قالت: عاد الثائرون، حل الغائبون، ولم يعد هو؟.

كان ومضي في سحر المرايا، كان سحرًا في عمق الحكايا، حلت مواسم الغزل ولم يعد. عادت مراكب الأمل، أما مركبه فخرقتها مسامير الألم ولم تعد.

فهمت منها بعد وقت بأنها رفضت دورها في مسرحية الرياء، وانسحبت بكل كبرياء، وفضلت أن تُقتل على أن تَقتل نفسًا واحدة.

هي التي أحبت كل الأنفس، واحتضنت كل الصدور.

حدثتني: سيدي أرفض أن أزرع الشوك في لب الرحيق.

قلت: أهو حب أزلي وعشق جارٍ بداخلك؟

في لحظة غبن حاصرتها الدموع.

قالت: إنه لا يعرف السكون، ولأن الوعد جميل في القلب يكبر مثل البرعم، مثل النداء يرفع كالأذان في السماء..

بعدها انهارت لتصبح عيونها نهرًا من الدموع المتدفقة كالسيل الجارف.

عدت ليلتها أحمل في ذهني عنوانًا لامرأة، تبحث عن بداية وعن موعد.

امرأة بداخلها قصص مملوءة بالحديث، محاطة بكثير من الغموض.

بنت حولها حصون من الوحدة الصماء، وعزفت بداخلها سيمفونية من الآهات والأحزان.

تنظر فيالق من الحنين قد تأتي ذات يوم، امرأة انعزلت في دير جلالها متعبدة في محراب فؤادها.

تتمنى أن يرسمها حلمًا، وشمًا على رمال الفيافي، ويجعل منها عنوانًا للقوافي، لم تكن امرأة تعيش نزوة حب ولد، ليموت في المهد بعد أن يرتوي من نبعها أيًّا كان.

بل أدركت بأنها امتداد لروح ظمئة تنتظر حبًّا غائبًا يعود ليصلي لها صلاة الناسك الباحث عن سر الليالي.

تنتظر رجلاً أحبته يعود، ليفجر كامل ثوراتها الساكنة، ويلهبها ويطفئ شوق التلاقي، الذي يسكنها بين الفينة والأخرى.

تنتظر من يطوقها بخصر، من يعانقها بقوامه. لكن عرقوبًا تأخر، أو ربما لن يأتي أبدًا!!



السنوسي .. شاعر الجنوب

يحيى محمد بن علي السنوسي

جازان



هناك في جنوب المملكة العربية السعودية حيث تكمن الفصاحة والأدب والشعر، الذي دوّى صداه بين جنبات جبال تهامة.

كان من بين هؤلاء الشعراء هو الشاعر الكبير محمد السنوسي، فكان مثالاً على بلاغة العرب الذي ظهر في شعره.

فهو من الرعيل الأول من شعراء العصر الحديث في المملكة، وله بصمات مضيئة على الأدب السعودي وبخاصة في الجنوب.

ولد الشاعر محمد بن علي السنوسي يرحمه الله في مدينة جازان عام 1343هـ، وقد تتلمذ على مشايخ جازان في ذلك الوقت، ومنهم الشيخ عقيل بن أحمد، والشيخ علي أحمد عيسى، والشيخ علي محمد صالح عبد الحق، كما تعلم أيضًا على يد والده قاضي جازان في ذلك الوقت السيد/علي بن محمد السنوسي، وقد أجاد اللغة العربية والحساب والنحو والصرف مبكرًا، ودرس أيضًا في الكتاتيب الموجودة في جازان في ذلك الوقت، وقد التحق بالوظائف الحكومية في سن مبكرة، وذلك لكي يقوم بمساعدة والده في الإنفاق على الأسرة.

عمل كاتبًا في جمرك جازان عام 1363هـ، استمر في الجمرك حتى وصل مديرًا للجمرك عام 1373هـ، ثم عمل بعد ذلك رئيسًا لبلدية جازان عام 1385هـ، وعمل عضوًا في المجلس البلدي في جازان.

في عام 1390هـ أحيل على التقاعد بناء على طلبه، وذلك للتفرغ للشعر والأدب، في عام 1392هـ عمل بعد ذلك مديرًا لشركة كهرباء جازان، وكانت حين ذاك شركة أهلية.

تأسيس نادي جازان الأدبي:

في عام 1395هـ تفرغ للأدب وأسس مع صديقه الشاعر محمد العقيلي نادي جازان الأدبي بموافقة صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد يرحمه الله.

استمر في النادي الأدبي نائبًا للرئيس، ثم رئيسًا للنادي حتى عام 1407هـ، وهو العام الذي توفي فيه يرحمه الله.

اهتماماته الكتابية:

بحكم أن والده السيد/ علي بن محمد السنوسي كان شاعرًا في منطقة جازان، فقد اهتم الشاعر محمد بن علي السنوسي يرحمه الله بكتابة الشعر مبكرًا، وقد كتب أول قصيدة وعمره 16 سنة، ومنذ ذلك التاريخ بدأ السنوسي في تأليف القصائد الشعرية تحت إشراف وتشجيع والده، وكان زميله الأستاذ المؤرخ محمد بن أحمد العقيلي، كان أكبر سنًا منه، كما اهتم الشاعر السنوسي بالكتابة النثرية وكان يكتب للإذاعة السعودية في المواضيع الدينية والتاريخية، وكان له برنامج خاص يسمى (رجال ومثل)، وقد جمعت كل هذه المقالات في كتاب خاص للأديب الأستاذ/عبد العزيز الهويدي عضو النادي الأدبي في جازان في ذلك الوقت.

واجهت السنوسي بعض الصعوبات في نشر مؤلفاته من أهمها عدم وجود المطابع، وكذلك أجهزة الاتصالات الحديثة، وكان يطبع مؤلفاته خارج المملكة في لبنان ومصر، وقد قام النادي الأدبي بطباعة أعماله الشعرية في كتاب واحد بعنوان المجموعة الشعرية الكاملة، وهو يحتوي على خمس دواوين شعرية.

وتعد مكتبة الشاعر السنوسي مرجعًا لشعراء وأدباء منطقة جازان، وقد وصى رحمه الله بإهدائها إلى جامعة الملك عبد العزيز، ليستفيد منها الباحثون وطلبة العلم.

سُميت باسمه (جائزة السنوسي الشعرية)، التي ينظمها مجلس التنمية السياحية في منطقة جازان.

شعره:

شاعر وجداني نظم في عدد غير قليل من أغراض الشعر: كالوصف والغزل والمناسبات الاجتماعية، تشف عناوين دواوينه عن روح رومانسية الطابع، تميل إلى الاتكاء على مظاهر الطبيعة، معبرة عن نسق أسلوبي، يمثل ظاهرة أسلوبية، تتبدى في إيثاره استخدام جموع التكسير بكثرة، تميل لغته إلى الاقتباس من القرآن الكريم، له ملح وفكاهة طريفة في بعض قصائده، أما وصفه لجازان فمشبع بالإعجاب والجمال، لُقب بشاعر الجنوب.

كان السنوسي مصابًا بداء الماء الأزرق، مما أضعف بصره، وجعله يبث طبيب العيون لواعجه المضنية، فيقول:

يا طبيب العيون شكوى عيوني
من لحاظ حورية التكوينِ
فترفق بها ففي لونها لكن
ونِ أسرارُ عالمٍ مكنونِ

ويختمها بتوسل روحي ووجداني:

يا إلهي أسلمت للطب عيني
ولأنت الطبيب فالطف بعيني



من اليمين: الأستاذ محمد حسين زيدان فالأستاذ الشاعر محمد بن علي السنوسي فالأستاذ كنعان الخطيب فالأستاذ غالب أبو الفرج فالأستاذ ياسين طه (إثنينية عبدالمقصود خوجة)



الأستاذ محمد أنس مخدوم فالأستاذ نبيه الأنصاري فالأستاذ عبد الفتاح أبو مدين فالأستاذ شكيب الأموي فالأستاذ محمد حسين زيدان فالأستاذ محمد بن علي السنوسي فمعالي الشيخ عبد الله بلخير فالأستاذ غالب أبو الفرج فالأستاذ ياسين طه فالأستاذ صالح جمال (إثنينية عبدالمقصود خوجة)

وكان السنوسي رافضًا للشعر (الحرّ) حيث يقول:

لا العود عودي ولا الأوتار أوتاري
ولا أغاريدكم من شدو أطياري

من أين جئتم بهذا (الطير) ويحكمو؟!
لا الريش ريشي ولا المنقار منقاري
إني أرى في جناحيه وسحنته
سمات (أليوت) لا سيماء (بشارِ)
قصيدة النثر مثل المشي جامدة
والشعر كالرقص في ترنيم قيثار
إن كان لا بد من فن لجدده
فجددوا في مضامين وأفكارِ

ويصفه الدكتور عمر الطيب الساسي بقوله: كان محمد علي السنوسي من الشعراء الذين يمتلكون حسًّا رقيق العواطف، وكان أديبًا مثقفًا واسع الاطلاع، قرأ روائع الأدب العالمي بعقل متفتح، فتجاوب مع ما فيها من جوانب إنسانية نبيلة، ونظمها في شعره، ومن ذلك قصيدته (أنشودة الصقر) - قال السنوسي وهو يمهد لها: هذه قصة للكاتب العالمي (مكسيم جوركي)، وضعناها في هذا الإطار الشعري، بعد أن أضفنا إليه لمسات فنية، تقربها من الذوق العربي الشفاف، والقصيدة موجودة في ديوان الشاعر السنوسي الموسوم بـ (القلائد)، ومطلعها:

زخر البحر ذو العباب وحيا
شاطئًا حالمًا وأفقًا بهيا
ولزرقاق السماء يضفي على الكو
ن جمالاً مهفهفًا شاعريًا
والسنا ذائب يشعشع في الموج
رحيقًا ويستثير حميا
وعلى صفحة الفضاء شعاع
أبيض يسكب الصفاء نقيا

والقصيدة جميلة وطويلة على هذا الغرار من التصوير الكوني والتصوير الرقيق البديع للصقر في أنشودته.

آخر أيام حياته:

كان السنوسي يعاني من مرض السكر منذ مدة طويلة ولم يكن مطيعًا للأطباء، بل كان يحب الحلويات، الأمر الذي أثر على حالته الصحية؛ حيث بدأت متاعبه الصحية في عام 1402هـ حينها سافر في رحلة علاجية إلى بريطانيا، وقد نصحه الأطباء الإنجليز بالمحافظة على صحته، وفي أواخر عام 1405هـ أصيب السنوسي يرحمه الله بجلطة في المخ نتيجة لمضاعفات السكر حينها كان رئيسًا لنادي جازان الأدبي، وصدرت توجهات صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد يرحمه الله بعلاجه في مستشفى الملك فيصل التخصصي، وهناك وجد كل العناية والاهتمام من الأمير فيصل، الذي زاره شخصيًّا بالمستشفى، ووجه الطاقم الطبي المعالج بعمل كل ما يلزم لشاعر الجنوب كما يسميه، وإنه لا يمانع في نقله إلى أي مكان في العالم إذا كان هناك فائدة من ذلك، وقد مكث بالمستشفى قرابة الشهر، وقد تحسنت صحته خلال هذه المدة، ولكن كان يعاني من ضعف في الذاكرة وصعوبة في الحركة وبرغم كل ذلك فقد عاد لمزاولة عمله الأدبي في النادي وكتابة الشعر كان يرحمه الله مولعًا بالقراءة لدرجة لا تصدق، فلا زلت أذكر أنه كان إذا بدأ في قراءة كتاب بعد صلاة العشاء، فلا يتركه حتى يتمه عند صلاة الفجر كان ينسى نفسه في الكتابة والقراءة، ولا يهتم بصحته وراحته.

كان السنوسي صديقًا ووالدًا لجميع أبناء المنطقة الشباب في ذلك الوقت، منهم الأستاذ حجاب الحازمي

والأستاذ الهويدي وعمر طاهر زيلع وغيرهم الكثير في أبو عريش وصبياء وبيش وصامطة وغيرها من المدن والقرى.

المقربون إليه رحمه الله:

كثيرون هم المقربون منه، فقد كانت لديه صداقة خاصة مع الأستاذ ناصر مصطفى، وهو من أصدقاء الطفولة والشباب، وكذلك الأديب عمر طاهر زيلع والأديب طاهر سلام والأستاذ صالح عمر، وهاشم المهدي، وعبد الرحيم عقيل، والأستاذ الأديب محمد العقيلي.

رأي بعض الأدباء فيه رحمه الله:

يقول الأستاذ عبد القدوس الأنصاري (صاحب مجلة المنهل): «ما أروع الشعر ينبع من عاطفة شاعر متمكن في اللغة، جامع مع الأسلوب العربي الرائع مع سعة أفق وذهن وإخلاص جيدًا وصدق عاطفة وصحة بيان، وهذه الصفات اللامعة احتشدت كلها في هذا الديوان الأغر (القلائد) الذي يخرجه للناس اليوم شاعر ضليع ذو قوة في البيان، وإشراقة في الفكر، وروعة في المنطق، هو شاعرنا الذي تعتز به المملكة العربية السعودية، وتضعه في الصف الأول من بين شعرائها الأبرار، شعراء الأدب الرفيع، واللسان العفو والضمير النقي من الشوائب».

ويقول الأستاذ عبد المقصود خوجة: «إن شعره يملأ نفسي، ويشعرني أنه يخرج من نفس عربية مؤمنة صادقة قوية اليقين بعروبتها وإسلامها».

ويقول الدكتور محمد العيد الخطراوي: «إن للسنوسي مشاعر دينية قوية، يهتز للمناسبات الإسلامية الخالدة، ونفسه تستجيب لمعانيها المتجددة».

ويقول عنه الدكتور يوسف نوفل: «إن الصورة الفنية عند السنوسي تتسم بسمتين أساسيتين، هما البساطة والتلقائية، وهما أساس التصوير عنده».

الجوائز:

تحصل الشاعر محمد بن علي السنوسي على العديد من الجوائز:

ميدالية الملك عبد العزيز في مؤتمر الأدباء السعوديين، وميدالية "المتنبي" من وزارة الثقافة العراقية لمشاركته في مهرجان المربد وغيرها من الجوائز.

الإنتاج الشعري:

- له عدد من الدواوين، منها: «القلائد» - دار الكتاب العربي - القاهرة 1960، «الأغاريد» - مطابع الأصفهاني - جدة 1966، «أزاهير» - بيروت 1972، الأعمال الشعرية الكاملة - نادي جازان الأدبي - جازان 1983.

وله كتاب (مع الشعراء) دراسات وخواطر أدبية.

ترجمت له بعض قصائده إلى اللغة الإيطالية، وتم نشرها في مجلة الشعراء بروما.



محمد بن علي السنوسي

ما كتبه شاعرنا السنوسي عن أحمد أمين العالم والأديب المصري الكبير:

ثمن المجد أن تعيش غريبا ... فيلسوفا أو شاعرا أو أديبا
تتحدى عواصف الفكر والرأ ... ي وتلقى سلم النهى والخطوبا
كالشهاب الوضئ يحلو لك الجو ... فيزداد شعلة ولهيبا
في سماء من الشعور وقلب ... نابض يصرع الأسى والكروبا
لك روح فسيحة تسع الدنيا ... إذا ضاق ساكنوها قلوبا
وفؤاد مضمخ بالأحاسيس ... يشيع السنا ويهدي الطيوبا
يستمد الحياة من أفقها السا ... مي ويستوعب الفضاء الرحيبا
رن في مسمعي نعيك والبرق ... حزين الدجى يشق الجيوبا
فتوقفت استشف على البعد ... فؤادا نوى طريا خصيبا
وتصورت عبقريا تردى ... من سماء العلى قويا مهيبا
وتنورت كوكبا صدع الليل ... سناه وخر يهوى معيبا
يا (حياة) كانت على العلم أزكى ... من حياة الربيع خصبا وطيبا
فجرت في مسارب الكون نبعا ... وهي تستقطر الحياة حبوبا
وأعلنت سلافة الروح روحا ... عصرتها الشجون كوبا فكوبا
(فجرها) و(الضحى) على الأفق العل ... مي مجدا يخلدان الغروبا
حملت من رسالة الفكر نورا ... ومضت تنشر اللواء القشيبا
ومرت كالشهاب ينصدع الل ... يل على جانبيه واه كئيبا



الأعمال الشعرية الكاملة



نشوة الفكر وسطوة التفكير



ترجمة : عبدالحكيم برنوص

المغرب

ان سوفنيارك ❋ Anne Sauvagnargues
Le Magazine littéraire N 496, Avril 2010

تستهوي أعمالُ بروست الفلاسفة، ليس لأنها توضح أفكارهم، بل لأنها تصف تولّد الأفكار في خضم الانطباعات الحسية.

يُبهر بروست الفلاسفة، ليس لأنه مثقف وتجريدي، أو حتى مزعج...! بل لأن تعرجات الجمل البروستية تفجّؤك عندما تحاول القبض على ومض الحقيقة: صوتُ جرسٍ يدق، النسج الرهيف بين السقف والسماء، إنه الوجود الآسر، الرائحة المنبعثة من قشارة الهليون وهي تُدمع عيني فتاة في المطبخ، أو حتى أشرعة المراكب المرصعة ببياض الحليب وهي تنطلق...قوة الملاحظة تلك تجعل من بروست ما يشبه جهاز استشعار كهربائيّا، يلتقط أصغر الموجات بدقة متناهية.

كثافة الوصف المادي للأشياء تثير فضول الفلاسفة: كل شيء يغرق في سكون متجمد، مُضاء بإبطاء مبهر للحركة." لم يذهب أحد، أبعد مما ذهب إليه بروست" في بسط تفاصيل الإحساس بالكلمات" يهتف ميرلو بونتي[1].

حتى جان بول سارتر الذي ينزله منزلة البرجوازي المتجاوز، سجين الغرفة السوداء لذاكرته، يقرؤه بافتتان و جحود.

والتر بنيامين كان أكثر تنبهًا، وهو يلاحظ أن القرن التاسع عشر لم يُسلّم مشعله إلى أسماء من العيار الكبير أمثال بلزاك أو زولا، بالعكس لن يكون ذلك إلا لـ "بروست الشاب" ،"هذا البرجوازي العديم القيمة، عاشق الحفلات والصالونات"[2] ، الذي أفصح عن أسراره الأكثر دهشة وعجائبية.

استطاع بروست أن يتسلل إلى هذه الصالونات، ويطور، إلى درجة كبيرة، حسًّا لاهوتيًّا بما يجري داخل هذه الأمكنة من فضول وتملق، وبإيماءاته صعق الادعاءات الباطلة للبرجوازية، والطقوس المتآكلة للنبالة الواهية، وهم يكاد ينفجر من الضحك.

مؤكدًا أن نظرة بروست إلى الفن تُلهم الفلاسفة بالقدر الذي تلهمهم شخصيات أعماله: موسيقى "فينتوي"[3]، الأنف المدوّر لبِرْكُوت، وشِقّ جداره الأصفر[4] ... فهم لا يترددون في إلحاق اكتشافاته بأنساقهم الفلسفية. ولكن هل بهذه الطريقة، يستطيع الأدب تحوير الفلسفة وتحويلها؟

"كل الذين يفتقدون الحس الفني، أي القدرة على الإنصات إلى الحقيقة الداخلية، فإنهم يبسطون نظرتهم العقلانية للأشياء على الفن الممتد. إن لم نقل زيادة، إنهم إما دبلوماسيين أو أصحاب أموال" يقول بروست باقتضاب، ويضيف: " لا محيد للفن الحقيقي عن التصريح والملاحظة، على أن يتم ذلك في صمت وهدوء"[5].

في رواية "البحث عن الزمن المفقود" نجد بالضرورة آثارًا لنظريات، كما نجد بقايا لوجهات نظر فلسفية، مثال ذلك برغسون الذي نماثله ببروست ظلمًا . يتشاركان في قرابة عائلية بعيدة من دون شك، وكان عليه أن يعمل الكثير لتوضيح آراء قريبه . برغسون هذا كان لا يستسيغ قيمة الذكاء، زد على ذلك، أن برغسون كان واهمًا تمامًا وهو يهنئ بروست على "نظرته المباشرة والدائمة للحقيقة الداخلية".

فعلى العكس يوضح بروست بدقة، أن الإبداع هو عملية إعلاء، هو قراءة مبدعة (بالمعنى التصويري) تكشف "انطباعاتنا الداخلية جراء الواقع نفسه" ويقارن تطور الشعور لدى الكاتب بالتجربة لدى العالم: الأثر الفني هو أداة بصرية يمنحها الكاتب للقارئ، تجعل "قوة الإدراك" لديه بمثابة تلسكوب، و ليست القضية قضية ذكاء إطلاقًا.

قد يبدو أن "بركوت" أقل ذكاء من كتاب آخرين معاصرين له، طالما أننا لم نفهم كيف استطاع تشغيل الآلة التي اخترعها، وطالما أننا لم نغنم من سلوكه وطريقة تصرفه" أولئك في سيارتهم "الرولس رويس" الجميلة، باستطاعتهم العودة إلى ديارهم وهم يشمئزون امتعاضًا من "آل بركوت"، و لكن برغوت نفسه، استنادًا إلى آلته المتواضعة التي حلّقت أخيرًا، استطاع أن يطير فوقهم عاليًا"[6].

من غير المجدي إذن أن نبحث في نصوصه عن فلسفة معروفة" غلطة كبيرة من الكاتب، أن يكتب أعمالًا فكرية خالصة، إنها فظاظة كبرى. إن أي عمل فني يحوي نظريات فكرية، شأنه شأن بضاعة، نترك عليها بطاقة الثمن ظاهرة"[7].

وقد أوضح "جيل دولوز" هذه الفكرة مغتنمًا الفرصة لتخليص الأدب من مهمته الكئيبة في توضيح الفلسفة، من بروست يأخذ هذه الصورة، صورة الفكر الغضوب المجرد، وهي صورة لطالما ينشدها الفكر بعد كل فكرة تجاوزه:

"نحن لا نفكر حينما نريد ذلك، وخصوصًا عندما نطمع لأن نكون أذكياء، ولكننا نكون كذلك حينما نقفز فرحًا جراء السطوة الخفية لعلامة ما ! ... حينها فقط يصبح الفكر إبداعًا، على هذا المنوال العفوي، والقاسي، الذي لو طُبق بسلاسة، لاستطعنا الوصول إلى الحقيقة !"

بفضل بروست . يقول دولوز. نستطيع الإفلات من الصورة المدرسية لتفكير يعيد إنتاج التقاليد، كان يجب على كاتب من الكتاب أن يُجلي صور الفكر المعطاة تلك، بروست ليس فيلسوفًا عندما يصف هذه الأفكار، ولكنه يكون كذلك عندما يلتقط الانطباعات والأحاسيس: إنها تقوم برصف العالم المُتشظي وترتيبه، وتومض بالعلامات وتلتقط أدق الإشارات: حمرة الألوان، الفُوّاق اللاإرادي، الشيفرة الاجتماعية، الإحساسات والمناظر الواقعية...

البحث عن الزمن المفقود، بنص دولوز[8]، يطور عوالم متعددة للعلامات: التفاخر داخل الصالونات ذات اللوحات الفنية المضحكة، ثم الزمن الذي نضيعه داخلها، علامات الحب وآلامه، وانفعالات الحساد وزمنها الضائع، العلامات الحساسة، التي تلتقط تفرد الأشخاص السطحي، والمناظر والمناقب، و كذلك الزمن الذي نجده مسجونًا داخل المشاعر المستجَدة، و أخيرًا عالم الفن بعلاماته المميزة، الراقية، القادرة على ترميم" قليل من الزمن في حالته الخام" تعبيرٌ سجينٌ داخل كلمة".

في سنة 1964 اقترح دولوز ما يشبه هرما بلوريا، مليئًا بالرموز والعلامات، رصفها ورتبها، وجعلها تنطلق من داخل ثنّيات المجتمع، لتتطلع جهة الفن، وفي سنة 1970، راجع قراءاته السابقة، ليختار تفصيلاً دقيقًا، شذرة نصية، تمتلك من قوة التشتت، ما يجعلها قادرة على تفجير بنائها الذاتي الشفاف.

لم يعد الأمر متعلقًا بتوجه ينطلق من الوجاهة الاجتماعية إلى الإبداع، ولكن الأدب أصبح أداة لاكتشاف ما هو حقيقي.

تتعلق هذه الشذرة النصية، بالرقصة التي تقوم بها الحشرة الطنانة، وهي تحوم حول زهرة الأوركيد، في إشارة إلى استطلاع اللقاء بين "جوبيان"، الزهرة الخجولة، والرجل ذو الكرش الكبيرة، البارون" شارليس"[9]. هذا العرض الشاذ، واللقاء المنفصل بين زهرة وحشرة، يفيد كبرتوكول للأدب، أكثر منه بالنسبة للأجسام المتحابة. نموذج التكاثر هذا نفسه لن يصلح أبدًا، إذا ما حاولت حشرة أخرى مختلفة تلقيح زهرة الأوركيد.

على طريقة "سبينوزا" يصف بروست التأثير الذي تمارسه شخصياته، سرعتهم وبطؤهم، تحولاتهم وتغيراتهم الجنسية، بحياد عالم الحشرات.

يلاحظ "لوفيناس" بامتعاض: "عند بروست تنقلب الروح إلى حيز "اللاقانون" إلى درجة أن العلاقات التي تنشأ بين شخصيات الرواية، هي الأكثر إثارة للدوار والغثيان.

لا يتعلق الأمر في الحقيقة بقضية أخلاق، ولا بدعوة إلى ممارسات جنسية هامشية (انقلاب أخلاقي)، و لكن الأمر متعلق بالكف عن استكشاف الرغبات انطلاقًا من أنماط معطاة.

يلتقط الأدب ويستكشف أنماط تفرّدنا المجردة، ويقبض على قوى الفن داخل المجتمع، مقترحًا طرقًا عديدة للفعل والإحساس. استطاع بروست أن يكتشف نظرية النوع، لأنه عوض التموقع على صعيد هويتيّ الجنس المعروفتين، عوض ذلك فإنه يصف أنماطًا لانهائية للإغراء، حيث ينسجم الجانب المؤنث عند رجل ما، مع الجانب المذكر عند امرأة أخرى، أو حيث توجد سيناريوهات أخرى أكثر تعقيدًا.

هذا ما يجلبه الأدب إلى الفلسفة: أنماط جديدة لاستكشاف ما هو حقيقي، أو حين تلتقط الكتابة القوى الحقيقية العاملة، دون أن نُترك عرضة لمكابح الأفكار الموروثة. إن الأدب لا ينقل الواقع على منوال المحاكاة، ولكنه يقترح طرقًا جديدة للشعور حول نمط الصيرورة.

✵ آن سوفنيارك Anne Sauvagnargues مفكرة فرنسية، ازدادت بتاريخ 16 مارس 1961، متخصصة في فكر "جيل دولوز"، أستاذة بجامعة باريس العاشرة، منذ 2010.

الهوامش:

1 - "المرئي وغير المرئي" (1964) موريس ميرلو بونتي، طبعة جديدة " تيل"1993، ص.195.
2 - "أعمال" مجلد 2. "والتر بنيامين" ط. فوليو، 2000، ص. 145.
3 - تُذكرصوناتا "فينتوي" vinteuilعلى مدار رواية " البحث عن الزمن المفقود"، وتمثل بالنسبة لبروست مثالاً جماليًا ينعش قوة الذاكرة وتفرض على الأفراد الوعي بذواتهم. (المترجم)
4 - بركوت bergotte من شخصيات الرواية ، يمثل بالنسبة لبروست الكاتب . النموذج، " إضافة طبقات أخرى من الألوان، يجعل جملي أكثر قيمة، مثل الشق الأصفر لهذا الجدار" بروست (المترجم)
5 - البحث عن الزمن المفقود. ط.ب. كلاركو أ. فيري.ط. كاليمار "مكتبة لابلياد" 1954. مجلد 3 . ص. 881.
6 - مجاز استعمله بروست للإشارة إلى موهبة الكتابة عند بركوت. (المترجم).
7 - "البحث عن الزمن المفقود" م. س. المجلد 1. ص. 554.555.
8 - "بروست والعلامات"(1964). جيل دولوز .ط. معادة ."PUF Quadrige"2010.
9 - البارون charlus من شخصيات الروائية، يدخل في علاقة شاذة مع الخياط "جوبيان".



بين حضارتين:

(شهادةُ طبيبٍ عربيّ في الغرب)

بين دفءِ الشرق وبرودةِ الغرب



أ.د. مهند الفلوجي

أستاذ الجراحة والمشرف على:
معهد تاريخ الطب والعلوم
عند العرب والمسلمين
(www.ihams.org)
لندن

قد يحسب المرءُ شمسَ المشرق أمرًا عاديًا روتينيًا لا يستحق عناءَ البحث، فلا يكاد يوغل في أهميته وآثاره على المزاج البشري والسلوك الإنساني بل وعلى الحضارة الإنسانية برمّتها. ليس اعتباطًا أن تنشأ أولى حضارات العالم في وادي الرافدين ثم في وادي النيل حيث دفء الشمس واعتدال المناخ ووفرة المياه وموارد الحياة الأخرى.

وفي سومر (في أور جنوب العراق تحديدًا) قرابة ٩٠٠٠ سنة قبل الميلاد، كان أول تجمّع بشريّ اجتماعيّ منظّم ليشكّل معلمًا تاريخيًا لأول مدائن العالم التي قامت بأول وأعظم ثورة في العالم: الثورة الزراعية (Agricultural Revolution) (التي ما كانت لتقوم لولا شعاع الشمس ودفئها). هذه الثورة الزراعية هي التي غيّرت مفاهيم وسلوكيات العالم آنذاك من الإنسان القديم الذي يجدّ في جمع طعامه (جمّاع الطعام Food Gatherer) ويكدّ في اصطياد الحيوان (صيّاد Hunter) إلى هذا الإنسان المتحضر الذي يجتهد لإنتاج الطعام (وذلك بحرث الأرض وتحضيرها لأجل بذر البذور وزراعتها وسقايتها ورعايتها، ثم حصادها، ومن ثم تخزين البذور اليابسة منها لزراعتها مستقبلاً في دورة حياة النبات) (Food Producer and Land Cultivator)، والذي يبدع ويبتكر طرائق تدجين الحيوان وتكثيره (ليسخره في النقل ويستوظفه في الصيد ويستخدمه للأثاث ويأكله كطعام) (Animal Domesticator).

هذه الثورة الزراعية تُعدّ أول طفرة هائلة في التقدم البشري الحضاري في تاريخ العالم كلّه، لأنها أدت للتأمين الغذائي وتخزين الحبوب وتربية الدواجن والحيوان وديمومة الجنس البشري أمام الكوارث الطبيعية والأزمات.

ولقد وجدت الحفريات في جنوب العراق بقايا من حبوب القمح والشعير والدخن لتدلل على أول تصنيع سومري للخبز، وأول ابتكار لثريد الطعام في مدينة أور، والذي نرى بقايا آثاره في الأطباق العراقية: كالثريد مع مرق اللحم، وتشريب الدجاج (الخبز المغموس في مرق الدجاج)، والدليمية (خبز مطبوخ مع الرز واللحم)، وفي ثريد البامية.

ولقد قام قدماء العراقيين بتوظيف شعاع الشمس لأمور فريدة أخرى:

أولاً- استحدثوا أول كتابة في العالم (الكتابة المسمارية – Cuneiform Language)، فنقلوا العالم من عصور ما قبل التاريخ (Pre-History) إلى عصر بداية التأريخ المُدوّن للجنس البشري (Beginning of History)؛ والكتابة بالقصب على الألواح الطينية الطرية (التي تُجفف وتُفخر بالحرارة تحت أشعة الشمس) سهّلت عقود المال والأعمال آنذاك؛ وساهمت في صياغة القوانين على الألواح الطينية (حيث صار القانون مكتوبًا ومنحوتًا على اللوح – ومن هنا اشتقت الكلمة الإنجليزية Law من لوح)؛ كما ساهمت الكتابة في تعليم الحُكّام وعِلية القوم المثقفة (Educated Elite)، وتمايزها عن باقي طبقات الشعب الأُمّيّ (Illiterate Commoners).

وثانيًا – أدت الكتابة المفخورة على اللوح تحت الشمس لانتشار خدمات البريد (Postal Services) ولأول مرة، حيث استخدم السومريون في جنوب العراق لوحًا مربعًا ضلعه 3 إنج (مساحته 9 إنجات مربعة) كرسالة مفخورة تحت الشمس ووضعوها في شنطة طينية مقفولة ومفخورة أيضًا بالشمس كغلاف للرسالة البريدية الطينية، التي تُسلم باليد بعد أن يقطع ساعي البريد المسافات الطوال. ومن ثم استخدم العباسيون حمام الزاجل Baghdad Carrier Pigeons لنقل رسالة ورقية ملفوفة حول رجل حمام الزاجل كرسالة جوية.

وثالثًا- قام قدماء العراقيين أيضًا (لحاجتهم لصيد الكبير من وحوش الحيوان) باستحداث العجلة الدائرية التي دخلت في تصنيع العربة ذات العجلات الأربع wagon، والتي سهّلت نشاطات النقل والتجارة؛ كما قاموا أيضًا بتركيب العجلة وتجميعها مع الحيوان لاستحداث أول عربة في التاريخ ثنائية العجلات، تُقاد بالبغال والجياد Chariot، استُخدمت في الصيد والحرب مما أدى لتوسيع رقعة البلاد المفتوحة عسكريًا.

وهنا لا بد أن نتذكر إن حضارات الإنكا والأزتك والمايا في أمريكا الجنوبية إنما اندحرت وانقرضت لجهلهم بالعربات والحديد وعدم وجود الجياد في بلادهم مما أدّى لهزيمتهم الساحقة أمام الغزاة الإسبان المتفوقين عليهم باستخدام المدافع المحمولة المتحركة بالعجلات والعربات، وبالحصان سريع الحركة، والمُجهزين بالسيوف الحديدية.

هذا غيض من فيض، وقليل من كثير، وبعضٌ من آثار الشمس في حضارة الشرق.

أمّا الغرب فهو عبوس بظُلمته الدامسة، وبطول ليله الحالك السواد، وببرده وزمهريره القارس، بل وأمطاره وفيضاناته المتوالية، وغزارة ثلوجه المتراكمة، فلا تكاد المعاطف الواقية من المطر تفارق أجسام الغربيين بل صارت المظلّة الواقية (أي الشمسية) من مستلزمات الحياة اليومية هناك.

ومن الأقوال الإنجليزية الشائعة: (لا تثق أبدًا بثلاثة: المناخ والعمل والمرأة):

(Never trust the three W's: Weather, Work, and Women)

فلا عجب إذن أن يكون اسم أوروبا Europe مشتقّ من غروب أي من غروب الشمس.

ولا عجب أن يُسمّي العرب البحرَ الذي تقع الجزر البريطانية في شماله ببحر الظُلمات، أو المحيط الأطلسي (نسبةً لجبال أطلس السوداء بأقصى المغرب لكثافة أشجاره – والتي من بعيد تبدو سوداء).

حكى لي صديقي العميد العسكري والطبيب الاختصاص في الأنف والأذن والحنجرة (في مستشفى الهدا بالطائف – المملكة العربية السعودية) أنه بُعث للدراسة في ألمانيا وكان ذهابه في الصباح مظلمًا وعمله طوال اليوم في المستشفى مظلمًا وخروجه من الدوام مُظلمًا مما أدّى لكآبته وتغيير مزاجه وحياته هناك سلبًا.

ولعل أولى أساسيات البيت العربي الشرقي الدافئ- الحار هو التبريد، بينما في الغرب البارد فإن أولى الأساسيات هو التدفئة المركزية للبيت بأنابيب الغاز أو منظومة الماء الساخن أو بوساطة خزّان الوقود.

غروب الشرق وشروق الغرب

والنقلة من الشرق المُشرق بشمسه، الساطع بنوره، والدافئ بضيائه وحرارته إلى بلاد الغرب المتميّز بغروب شمسه وطول ظلامه وظُلمته وشدة برودته، لهي نقلة ثقافية صادمة مروّعة مفزعة للقادمين لبلاد الغرب لأول وهلة (Cultural Shock). والغربيون مغرمون بالأسفار، ويجمعون مالهم لأجل السياحة في بلاد الشمس المشرقة تخلصًا من برد وظلام الغرب.

> وهذا الجو البارد هو سبب لانعزال الناس عن بعضهم البعض، حتى صاروا يعيشون لأنفسهم، وتغيرت أهداف حياتهم. وبرودة لمناخ تنعكس في برودة مزاج الغربيين، وانعدام الغيرة عندهم، وقلة حرارة الجيرة والصداقة، والأنانية وعدم الإيثار، وقلة الرحمة في سياساتهم الخارجية

لكن الأعجب هو استمرار توافد الوافدين الحثيث من طلبة العلم والشهادات، وتزاحم العمال ورجال المال والأعمال، بل وتقاطر السيّاح والزوار، وحتى اللاجئين سياسيًا من الشرق إلى الغرب!

تكمن عبقرية الغرب في تحويل بيئة الغرب الباردة المظلمة إلى بيئة جاذبة مثيرة مشرقة، تحرص على خدمة البلاد والعباد في المقام الأول، وذلك بتطبيق العدل بين سكانهم، وهيمنة القوانين الهادفة لنشر الأمن ومحاربة الفساد ولحماية حرية الكلمة والفكر والاعتقاد والديمقراطية الحقة لأفرادهم. ومن ثم جاء التقدم العلمي في شتى مناحي الحياة مع التقنيات العالية، التي أتت لتسهيل الخدمات وسرعتها وسلاستها، مع إنشاء المؤسسات الضخمة وابتكار العمران المدهش، إضافة للتنظيم الإداري المبهر، والذي جعل سكان الغرب يفخرون دومًا بانتمائهم وبلادهم وأرضهم.

وفعلاً لهو عجيب مدهش أن ينتقل الإنسان بإرادته ومحض اختياره من المشرق الوضّاء الدافئ إلى الغرب العبوس الدامس. إنها نقلة بعيدة عجيبة غريبة ومعكوسة.

ولكن بلاد الشرق اليوم صارت غير مستقرة سياسيًا، ظالمة لسكانها قانونيًا، بخيلة على أبنائها اقتصاديًا، والأسوأ من ذلك كله أنهم صاروا يقتلون بعضهم البعض باحترابات طائفية بغيضة. وكل أصابع الاتهام تتجه للغرب الذي قوض سلام الشرق بالتدخلات السياسية لإحلال الفوضى المبدعة أو بالضغط لإحلال ديمقراطيتهم المزيفة أو بالتدخل العسكري السافر والتلاعب ببنية الوطن طائفيًا (سياسة فرّق تسُد – كما حصل في العراق). والنتيجة المثمرة لذلك كله هو استمرار توافد الوافدين للغرب، مع استمرار هجرة الدماغ العربي للغرب، وتخطيط تهجيره الممنهج لأجل سدّ ثغرات انقراض سكان أوروبا الأصليين!!!

لا شكّ أنّ البرد القارس يؤدي للوحدانية والعزلة، فلطالما كان تواصل الغربيين بالهاتف والإيميل فيتبجّحون بمقولتهم الشهيرة: أنا وحيد ولكنّني لست وحدانيًا (I am alone but not lonely). وبسبب هذا البرد كانوا قومًا خجولين أيضًا فلا يكسر جليد وجمود علاقاتهم



حدائق بابل المعلقة Hanging Gardens of Babylon مع برج بابل Tower of Babel في الخلفية، لوحة ملونة رُسِمت يدويًا في القرن الـ 16 بريشة مارتن هيمسكيرك Martin Heemskerck



الحدائق النباتية الملكية في (كيو) لندن تأسست عام 1759م Royal Botanic Gardens, Kew -London

> ومن يأتي من الشرق الدافئ للندن الباردة يَلفت انتباهه انزواء الناس وحبهم للمشي بالجانب المشمس من الطريق، وصار الولع بالشمس خصوصًا عند البريطانيين ولعًا جنونيًا هستيريًا تراه في انتظارهم وبفارغ الصبر وتشوقهم المعلن وبحثهم الدؤوب لسماع نشرة الأحوال الجوية

الباردة إلى النوادي الخمر والسُّكر، فيذهب الخجل، وتنفتح القريحة، وتحلو أحاديث السمر، (وترتكب معها الفواحش ما ظهر منها للعيان، وما استتر في مساكنهم)، وتنعكس برودة المناخ على برودة الغربين، خصوصًا في مُصابحتهم لبعضهم البعض صبيحة كلّ يوم بقولة: صباح الخير (Good Morning) فيأتي الجواب أحيانًا: لا، إنه بالحقيقة صباحٌ ممطرٌ كئيب (Not really, it is a rainy cloudy miserable Morning).

الجو البارد الطويل الظلام له تأثير نفسيّ طبّيّ على النفوس فهو سبب الكآبة (Depression or Depressive Illness) لـ 25% من أهل الغرب مع نسبة انتحار تتفاوت مع تفاوت المناخ؛ وهذا الجو البارد هو سبب لانعزال الناس، عن بعضهم البعض حتى صاروا يعيشوا لأنفسهم، وتغيرت أهداف حياتهم، وبرودة مناخ تنعكس في برودة مزاج الغربيين، وانعدام الغيرة عندهم، وقلة حرارة الجيرة والصداقة، والأنانية وعدم الإيثار، وقلة الرحمة في سياساتهم الخارجية، لكن المشكلة الكبرى هناك هو استشراء الكآبة في الغرب.

بينما تندر الكآبة والانتحار في الشرق بسبب عاملين أساسين:

أولاً: الإيمان بالله وما يتبعه من إيمان بقدر الله في الخير والشرّ.

وثانيًا: ضياء شمس الشرق الدائمة، حتى إن أطباء الغرب تنبهوا لهذه الحقيقة أخيرًا فصاروا يعالجون مرضى الكآبة في الغرب بالعلاج الضوئي (Photo-therapy).

ومن يأتي من الشرق الدافئ للندن الباردة يُلفت انتباهه انزواء الناس وحبهم للمشي بالجانب المشمس من الطريق، وصار الولع بالشمس خصوصًا عند البريطانيين ولعًا جنونيًا هستيريًا تراه في انتظارهم وبفارغ الصبر وتشوقهم المُعلن وبحثهم الدؤوب لسماع نشرة الأحوال الجوية (weather forecast)؛ وتراه في أغانيهم التي تتغنى بحب الشمس والرمال وشاطئ البحر (Sun, Sands, and Seashore)، ولعل من أشهر أغانيهم، الأغنية الساخرة:

(الكلاب المجنونة والإنجليز يخرجون في شمس الظهيرة)

(Mad Dogs and Englishmen go out in the midday sun) - Song by Noel Coward

ومن هنا كان تقديس الشمس في أوروبا وعشقهم اللامحدود لضياء وحرارة الشمس والاسترخاء تحت أشعتها، وهم عراة أو أشبه بالعراة؛ بل وحسد البريطانيين البيض من لون الأجانب الوافدين السُّمر بأن لونهم البرونزي إنّما هو لون الصحة والعافية، فقاموا بإنشاء مراكز مزودة بالضياء، بر نوها لتلوين بشرتهم البيضاء باللون البرونزي الشرقيّ، وهناك مساحيق ومراهم طبية، لتغيير السحنة للون البرونزي الجذّاب!!!

ولله الحكمة البالغة فلعل برودة الغرب مقصودة ربّانيًا ليستر الله على عوراتهم بالبرد (فالله يَغيرُ وهو أغيرُ منا على عورات عباده)؛ لأنه بمجرد مجئ الصيف ترى الغربيين من أمريكيين وأوروبيين يتعرّون ويسترخون وينامون في الساحات العامة وفي حدائق المستشفى دون ساتر للعورة لتسخين الجلد وحرقه للتلون باللون البرنزي تحت ضوء الشمس (لأنهم يعتّون لوننا البرونزي هو اللون الصِّحّي)، ولقد سبب التعرض الكثير واللاصحي لذوي السحنة البيضاء والحمراء تحت ضياء الشمس الحارقة وخصوصًا في أستراليا، سبّب الكثير من سرطان الجلد ذي صبغة الميلانين (Malignant Melanoma Skin Cancers).

واستطاعوا أن يبتكروا الحديقة النباتية (Botanical Garden)، وهي مؤسسة محكمة بموظفيها تعمل للحفاظ على تجميع النباتات الحية تحت الإدارة العلمية لأغراض التعليم والبحوث، جنبًا إلى جنب مع المكتبات، والمُعشّبات، والمختبرات، والمتاحف كما تعتبر ضرورية لأهداف معينة، كل حديقة نباتية تطور حقولها الخاصة بها طبيعيًا اعتمادًا على موظفيها، وموقعها، ومداها، الأموال المتاحة، وشروط ميثاقها، قد تكون الحديقة النباتية مؤسسة حكومية أو تابعة لإحدى الكليات أو الجامعات، لكونها ذات صلة تعليمية لبرامج التدريس، وهي ليست مجرد حديقة ذات مناظر طبيعية أو حديقة زينة، بل قد تكون معرض فني أو محطة تجارب نباتية.

يقال: إن أوروبا الغرب استوحت مشروع الحديقة النباتية من حدائق بابل المعلقة (من أيام نبوخذنصر).

وقاموا بتطوير مشاريع لإنتاج الفواكه والنباتات المختلفة تحت بيوت الزجاج والبوليثين.

وفي خضم هذه الحقائق الواضحة، فمن السخرية إذن أغنية أسمهان الشهيرة (ليالي الأنس في فيينا)، حيث إنها لا تذكر غروب الشمس عنها، لكنها تتكلم عن ليالي أنسها فقط، ولكن في مخيلتها جمال المدينة وحدائقها الغنّاء ونظافة شوارعها، ومتعة النظر لمساكنها وفوتيلاتها، لكنها العبقرية الغربية التي حولت هذا المناخ البارد إلى بيئة مثيرة للسواح والزائرين.

ولعل البرد القارس وديمومته في الغرب هو أحد أسباب العزلة الاجتماعية وعدم ترابط شرائح المجتمع ببعضها

البعض، مما أدى لهيمنة جهازي التلفزة والراديو في السيطرة على عقول الغربيين وتوجيه أفكارهم؛ كما أدّى البرد لكثرة وسائل الترفيه عندهم لقتل الملل والضجر، ولامتصاص السآمة والكآبة بكثرة المسارح ودور السينما والنوادي والمتاحف وحدائق الحيوان والمتنزهات إضافة لكثرة المقاهي والمطاعم والبارات، وسلاسة التعامل في الأسواق والبنوك.

بل إنّ ازدواجية البرد مع العمل الدؤوب خلال أيام الأسبوع جعل البالغين العاملين منهم يتلهفون لعطلة نهاية الأسبوع (ابتداءً من مساء الجمعة ويومي السبت والأحد) بقتل فرصة الفراغ هذه واستغلالها في قضاء عطلة أنس مثلى بشرب الخمر وممارسة الزنا والعلاقات الجنسية في البارات والنوادي وغرف سكنهم الخاصة وبجرعات مكثفة جدًّا: (Weekend's sexology)!!! وأما البالغون الآخرون من باقي الشباب، ومتوسطي الأعمار، وكبار السنّ فإنهم يقضون عطلة نهاية الأسبوع بألعاب الرياضة، أو بالتسويق وحراثة الحدائق، أو بالتشويق في المطاعم والمسارح والنوادي الاجتماعية.

الآثار الصحية المفيدة من التعرض للشمس:

لقد دفعنا ثمنًا كبيرًا للعيش في البلاد المظلمة الباردة مثل أمراض بسبب عدم التعرض للشمس مثل سرطان الجلد الفطري Mycosis fungoides وحاجة مرضى البهق Vitiligo للتعرض للشمس.

قال لي صاحبي وصديقي مؤسس شركة الليزر (سيمارون) البريطانية بأنه أصيب ببقع جلدية دائرية حمراء مركزها غامق (الصورة)، فكان التشخيص إصابته بسرطان الجلد (سرطان خلايا T الليمفاوية)، وعندما سافر سائحًا للبلاد المشمسة مثل تونس، لاحظ اختفاء السرطان تدريجيًّا!!!!



للشمس فوائدها الصحية الجمة على الإنسان؛ وفعلاً البيت الذي تدخله الشمس لا يدخله الطبيب.

تتمحور الفوائد الصحية من التعرض لأشعة الشمس عادة حول فيتامين D، الذي يمنع مرض الكُساح Ricketts في الأطفال ونظيره مرض وهن أو هشاشة العظام Osteomalacia في البالغين. وأبرز وظائف فيتامين D هي دوره في توازن الكالسيوم والفسفور.

يُنتج فيتامين D في بشرة الجلد استجابةً لأشعة الشمس فوق البنفسجية UVB، والتعرض UVB لديه بالفعل عدد من الآثار الصحية الأخرى (لا علاقة لها بإنتاج فيتامين D).

وهناك أدلة علمية جديدة وكثيرة تؤكد أن التعرض لأشعة الشمس في الأطر الملائمة تؤدي لفوائد صحية مثل:

- تحسين الحالة المزاجية والطاقة من خلال إطلاق الاندورفين.
- حماية ضد أعراض التصلب المتعدد (Multiple Sclerosis).
- علاج الأمراض الجلدية مثل الصدفية، البهاق، التهاب الجلد التأتبي، وتصلب الجلد.
- كما تعزز الأشعة فوق البنفسجية وظائف الجلد عبر أوكسيد النيتريك (NO)، مما يساعد على حماية البشرة من أضرار الأشعة فوق البنفسجية، ويوفر حماية القلب والأوعية الدموية، ويعزز التئام الجروح من خلال تأثيرات الأشعة المضادة للميكروبات، مع النشاط المضاد للسرطان.
- وللشمس وظيفة تنظيم الميلاتونين من خلال "العين الثالثة" من المستقبلات الضوئية للغدة الصنوبرية.
- تخفيف الآلام والعلاج القياسي لمرض السل قبل 100 سنة كان بالتعرض لضياء الشمس، قبل فترة طويلة من ظهور المضادات الحيوية.
- وأيضًا، علاج اليرقان الوليدي (التعرض لضوء الأشعة فوق البنفسجية).
- يمكن استخدامها للتعقيم والقضاء على معظم روائح الجسم.
- علاج الاضطرابات العاطفية الموسمية (الحزن) بإطلاق هورمون السعادة (سيروتونين).
- حماية ضد سرطان الجلد أي علاج سرطان خلايا T الليمفاوية وتقليل الوفيات الناجمة عن ذلك.

العلاج بالضوء هو خيار قيم في علاج العديد من الحالات الصدفية وغير الصدفية non-psoriatic، بما في ذلك التهاب الجلد (الحساسية)، الأمراض الجلدية التصلبية مثل المورفيا، تصلب الجلد scleroderma، البهاق vitiligo، وسرطان الجلد: الفطار الفطراني mycosis fungoides، والعلاج بالضوء هو علاج بعض اضطرابات الجلد بالأشعة فوق البنفسجية التي تنتج من الشمس، ومصابيح الفلورسنت، ومصابيح القوس قصيرة مع مرشحات الأشعة فوق البنفسجية وأشعة الليزر.

وقد استخدم العلاج بالضوء فوق البنفسجية واسع النطاق لعلاج الصدفية، وهو مرض جلدي التهابي، شائع بنسبة 1-2 % في عموم السكان.

ويبدو أن حمامات الشمس أو أسرّة الضياء فوق البنفسجي لديها القدرة على تقليل الألم في المرضى الذين يعانون من فايبرومايالجيا (مرض وهن العضلات والألياف - Fibromyalgia).

التغيرات الموسمية للوفيات: هناك أدلة وافرة على أن معدل الوفيات في المرضى المسنين يزيد في أشهر الشتاء، ففي دراسة حديثة عن الوفيات الموسمية في المرضى بالسرطان في الولايات المتحدة، تبين أنه بالمقارنة مع المرضى الذين لقوا حتفهم خلال يونيو ويوليو وأغسطس، وعدد الوفيات من المرضى ارتفع بمعدل 20% في يناير وفبراير ومارس.

وفيات في عموم السكان هي الأدنى في أواخر الصيف أو أوائل الخريف، وقعت أقل عدد من الوفيات في اليابان في يوليو، في السويد وأمريكا الشمالية أقل عدد من الوفيات وقعت في أغسطس/ آب وفي بلدان البحر الأبيض المتوسط، وقد لوحظ أدنى متوسط الوفيات اليومية في سبتمبر/ أيلول، في نصف الكرة الجنوبي، وقعت أدنى معدل للوفيات في نيوزيلندا في فبراير وفي أستراليا وقوع أدنى معدل للوفيات في شهر مارس.

والتعرض للشمس له فوائد في تقوية القلب وجهاز الدوران، والجهاز التنفسي، وتقوية جهاز المناعة.

في اسكتلندا، والمرضى الذين يعانون قُصار القلب (قلة تزويده بالدم) في فصل الشتاء لديهم احتمال أقل بكثير من الباقين على قيد الحياة، كان الناس الذين عانوا من سكتة قلبية في فصل الشتاء 19% أقل عرضة للبقاء على قيد الحياة مقارنة مع أولئك الذين عانوا من سكتة قلبية في الصيف، حالات الارتجاف الأذيني (Atrial Fibrillation – AF) وقعت أكبر بكثير في حالات دخول المستشفيات في الشتاء مقارنة مع فصل الصيف.

الوفيات الناجمة عن تزيف الدوائي في فرنسا وقعت دوريًّا سنويًّا، وبلغت ذروتها في فصل الشتاء (ديسمبر، يناير).

ونستطيع أيضًا امتصاص فيتامين D من الطعام، وأفضل مصدر له هو الأسماك الزيتية، كما أنه موجود أيضًا بكميات صغيرة في اللحوم الحمراء وفي البيض.

لكن أكثر الناس يحصلوا على فيتامين D من حبوب المُكمّلات الغذائية، وتحتوي حوالي 10 ميكروغرام، وتوصي بها الحكومة للمجاميع التالية:

1. جميع النساء الحوامل.
2. الناس الذين تزيد أعمارهم على 65 عامًا.
3. ينصح أيضًا بحبوب المكملات الغذائية للأشخاص الذين لا يحصلون على الكثير من الشمس، إما لأنها في البيوت، أو لأنهم عادة يرتدون الملابس التي تغطي معظم أو كل بشرتهم - على سبيل المثال، النساء اللائي يرتدين البرقع أو النقاب.
4. ينصح الأطفال الرضع والأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ستة أشهر وخمس سنوات أيضًا إلى تناول المكملات اليومية بجرعة أقل قليلاً.



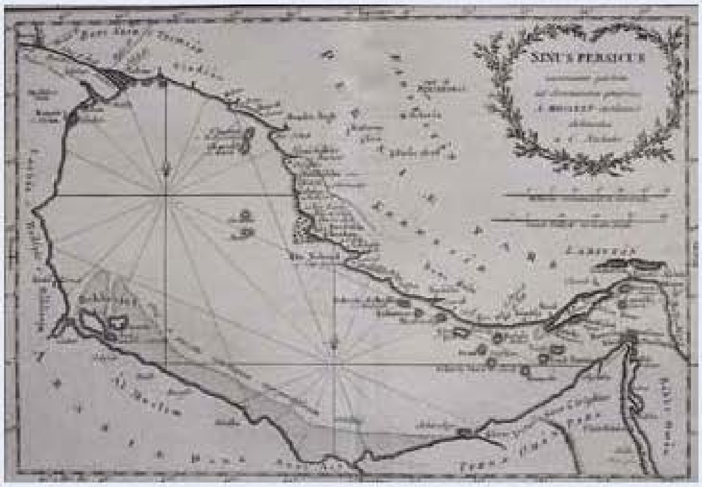
أرمن بغداد بأقلام رحالة



د. علي عفيفي علي غازي

أكاديمي وصحفي

يقيم أكثر من نصف أرمن العراق في مدينة بغداد، ويعود نمو الجالية الأرمنية فيها إلى أيام الغزو المغولي 1256، وفي القرن الرابع عشر الميلادي كانت لهم أبرشيتان في العراق إحداهما في السلطانية، والأخرى في بغداد، وتولى الأسقف سركيس مطرانية الأرمن في بغداد عام 1354، إلا أن الجالية الأرمنية في بغداد تعرضت للانهيار مرة أخرى، فيذكر البعض أنه في عام 1604 كانت توجد في بغداد وضواحيها جالية أرمنية صغيرة، وتذكر المصادر الأرمنية أن بغداد في هذه الحقبة كانت من أبرز مراكز نسخ المخطوطات الأرمنية في الشرق الأدنى[1] .



خريطة للخليج العربي، التي وضعها كارستن نيبور في الكتاب الذي وصف فيه رحلته للجزيرة العربية عام 1761، الذي نشرت الطبعة الأولى منه في الدنمرك عام 1772م.


كارستن نيبور

وفي القرن السابع عشر وقعت ثلاث هجرات جماعية إلى بغداد، فنشطت الجالية الأرمنية فيها. جاءت الموجة الأولى سنة 1605/1604 من الأرمن الذين هجرهم الشاه عباس إلى أصفهان، فهاجرت جماعة منهم إلى بغداد، وقدمت الموجة الثانية سنة 1616 من الأناضول هربًا من ظلم الجلالئريين، أما الموجة الثالثة فوقعت عام 1638 عندما دخل العثمانيون بغداد.

ولا توجد إحصائيات دقيقة عن الأرمن في بغداد في القرن الثامن عشر، ولا توجد معلومات مستفيضة عن حياتهم في العراق. إلا أنه خلال مدة الحكم العثماني للعراق تم التأكيد على حقوق البطريركية الأرمنية، وكذلك البطريركية اللاتينية واليونانية، وذلك في مؤتمر باريس للسلام عام 1856، ثم في مؤتمر برلين عام 1878، وفي مؤتمر فرساي عام 1919 حظيت تلك الحقوق بتأييد جميع المحافل الدولية.

إلا أن الجالية الأرمنية في العراق قد ازدادت في القرن التاسع عشر نتيجة للمجازر التي ارتكبها العثمانيون الطورانيون، ونتيجة للإبادة الجماعية التي تعرض لها الأرمن من الحكومة العثمانية، فقد تم إيواء المئات من الأيتام في الحي الأرمني ببغداد، حيث درس العديد منهم في المدرسة اللاهوتية الأرمنية، وأصبح بعضهم من رجال الدين البارزين.

وفي أعقاب الاحتلال البريطاني لبغداد 1917 ازداد عدد الأرمن في العراق نتيجة للهجرة المنتظمة إليه بحثًا عن الأمن والأمان في ظل الرعاية الإنجليزية، فهاجر نحو 25 ألف أرمني من المناطق الجنوبية الشرقية لأرمينيه، ومن منطقة أورمية في إيران إلى العراق. وفي سنة 1924 أحصت مطرانية الأرمن الأرثوذكس في العراق الأرمن فبلغ نحو 6539، ووفق إحصاء آخر بلغ الأرمن في العراق نحو 18 ألف أرمني[2].

وكانت الجالية الأرمنية في تلك الحقبة تضم: الأطباء، والمهندسين، والمزارعين، والخياطين، وصناع الأحذية، والخبازين، وأصحاب المحلات، والتجار، والممرضين، وغيرها. وفي المجال الصناعي كانت أكبر ظاهرة صناعية في العراق امتلاك مؤسسة "كُلبينكيان" الأرمنية أسهمًا في استثمار البترول العراقي.

وتوجد للأرمن عدة كنائس في بغداد منها كنيسة القديس "كرابيت" في منطقة كمب سارة، وكنيسة القديس غريغور في منطقة الباب الشرقي، وكنيسة القلب الأقدس في الكرادة الشرقية، وكنيسة سيدة الزهور في حي الكرادة، وكنيسة الأرمن في حي الجادرية، وكنيسة مريم العذراء في منطقة الميدان، وهي أقدم كنائس الأرمن في بغداد. كما توجد أربع مراكز ثقافية ورياضية أرمنية في بغداد، ويتم تعليم اللغة الأرمنية للأطفال الأرمن في بعض هذه المراكز. ويجب ألا نتناسى وجود العديد من ضحايا التهجير الأرمني المنتشرين في أكثر من مدينة عراقية، لأسباب شخصية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، ومنهم من اعتنق الديانة الإسلامية، ممن نجى من مجازر العثمانيين ليجد نفسه وسط القبائل البدوية العربية، حيث لم يكن لديهم خيار آخر. إلا أن الكثير منهم ظلوا متمسكين بقوميتهم الأرمنية بغض النظر عن الديانة.

وهدفنا هنا هو رسم صورة لأرمن بغداد بأقلام مجموعة من الرحالة الأوروبيين في العراق، من خلال كتاب معنون "بغداد بأقلام رحالة" صادر عن دار الوراق للنشر المحدودة بلندن عام 2007، يتضمن مجموعة ترجمات للأجزاء التي تصف مدينة بغداد في رحلات فئة من الرحالة، مختلفي الجنسيات، والتوجهات، والمدارس الفكرية، عكف على ترجمتها مجموعة من المترجمين.

كارستن نيبور

أول رحالة كتب عن أرمن بغداد، هو الرحالة الشهير كارستن نيبور Karsten Niebuhr، وهو عالم دانمركي من أصل ألماني، ولد بمدينة لدينغورث Ludingworthe من مقاطعة لاونبرغ Lauenberg، في 17 مارس 1733، لأب فلاح من سيليزيا، وبدأ حياته فلاحًا يساعد والده في الحقل، ثم بدأ تعليمه في سن الثانية والعشرين، حينما التحق بجامعة جوتنجن Gottingen، لدراسة الرياضيات وعلم الفلك.

وفي عام 1760 قرر ملك الدنمرك، فريدريك الخامس، بناء على مشورة يوهان ديفيد ميخائيلس أستاذ اللاهوت المسيحي، وفقه اللغة العبرية بجامعة جوتنجن Gottingen، إرسال بعثة علمية مشتركة إلى بلدان الشرق الأدنى، وجنوب الجزيرة العربية، لتقصي الأخبار والمعلومات العلمية عنها، فاستدعى نيبور للانضمام إليها.

وفي صباح اليوم الرابع من يناير 1761 ركب الباخرة الدنمركية جرينلند Greenland خمسة علماء متخصصون في مختلف فروع المعرفة، مع خادمهم الدنمركي، وقد جمعهم أمر واحد، وحفزهم هدف صمموا على تحقيقه مهما كانت الظروف والأحوال، مدفوعين بالأسطورة التي تحدثهم عن بلاد العرب السعيدة Arabia Felix، فاتجهوا نحو عالم مليء بالمجاهيل والأخطار، وقد وزعت أعمال وواجبات البعثة على أعضائها، فقد تألفت من خليط من الجنسيات، فضمت عالمين دانمركيين، وألمانيين، وسويديًا واحدًا، وجميع هؤلاء من الشبان اليافعين، إذ لم يبلغ أكبرهم سنًا الرابعة والثلاثين، بينما لم يتجاوز أصغرهم الثامنة والعشرين.

وهؤلاء العلماء الخمسة الذين تكونت منهم البعثة هم: البروفسور بيتر فردريك كريستيان فون هافن Prof. Peter Friedrich Christian van Haven (دنمركي) متخصص في فقه اللغات القديمة والدراسات الشرقية، والدكتور كريستيان كارل كرامر Dr. Cristian Carl Kramer (دنمركي) متخصص في الجراحة وعلم الحيوان، والمهندس كارستن نيبور Carsten Niebuhr (ألماني) وقد أنيطت به مسؤولية الدراسات الجغرافية والفلكية والرياضيات، والهر جورج ويلهلم بورينفند Herr Georg Wilhelm Baurenfeind (ألماني) وهو رسام أنيطت به مهمة الرسوم الفنية وحفرها على النحاس، والبروفسور بيتر فورسكال Prof. Peter Forsskal (سويدي) طبيبًا للبعثة، ومتخصصًا في علم النبات.

ولم يكن لأحد من هؤلاء الرئاسة على الآخرين، فكلهم له مؤهلاته ومكانته، وإذا كان لأحد منهم الفضل فهو لفورسكال وفون هافن لإجادتهما اللغة العربية، وبهذا قضت تعليمات الملك، الذي طلب من كل منهم أن يعاون زملاءه، ولكن على أن يظل له ميدان عمله الخاص، الذي سيقدم عنه تقريرًا عند عودته.

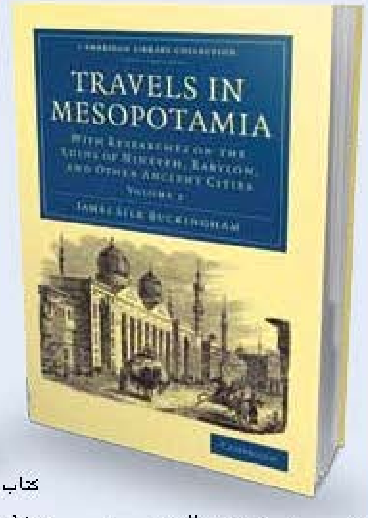
وأبحرت السفينة الدنمركية من ميناء كوبنهاجن، فمرت بميناء مرسيليا، ومنه إلى اسطنبول حيث وصلتها في 30 يوليو 1761، فالإسكندرية في 26 من الشهر نفسه، وأمضت البعثة حوالي السنة في مصر لدراسة أحوالها وآثارها، ثم بعد ذلك أبحرت من الإسكندرية عبر النيل



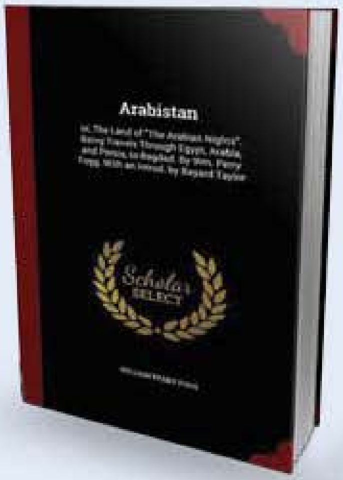
الرحالة الفرنسي أوليفييه



جي. اس بكنكهام



كتاب جي اس بكنكهام "Travels in Mesopotamia"



كتاب وليم فوك "عربستان، أو بلاد ألف ليلة وليلة
Arabistan: or the land of "the Arabian Nights"

متوجهة إلى السويس، وفي 5 أكتوبر 1762 أبحرت البعثة من السويس إلى جدة، ومنها إلى مخا في بلاد اليمن.

وقد أصيبت البعثة بصدمة بموت رئيسها فون هافن في مارس 1763، وفي 13 يوليو من العام نفسه لحق به العالم الطبيعي بيتر فورسكال في مدينة جرم Jerim، وقد زار نيبور مع من بقي من أعضاء البعثة صنعاء، وقابلوا أميرها، ثم عادوا إلى مخا لقضاء الصيف فيها.

ومن مخا أبحروا إلى بومباي في الهند، وهناك توفي رسام البعثة بورينفند، ثم لحق به فون كريمر في 10 فبراير 1764، فبقي نيبور العضو الوحيد الذي وقع على عاتقه مهام البعثة وواجباتها، إلا أن همته العالية، وثقافته الواسعة، ودأبه المتواصل، وإرادته الحازمة، كل ذلك دفعه إلى إتمام الرحلة، وإنجاز ما يترتب عليها من أعمال واسعة المقاصد متشعبة الأغراض.

وفي 24 مارس غادر بومباي إلى سورات Surat فدرس أحوالها وتجارتها، ثم قفل عائدًا إلى بومباي، وكانت لديه الرغبة في زيارة الصين، لكنه بينما كان بانتظار السفينة التي ستقله إليها، عاودته الحمى والمرض مما جعله يغير خطته في السفر إليها.

وبعد أن مكث في الهند أربعة عشر شهرًا، قرر العودة إلى بلاده، فمر بمسقط، ثم توجه عن طريق الخليج العربي إلى جمبرون (بندر عباس) ومنها إلى شيراز، فخرائب برسيبوليس، وبعد أن قضى بها أربعة وعشرين يومًا توفي فيها خادمه، غادرها في 7 أبريل 1765 إلى بوشهر، ومنها إلى البصرة، فسافر بسفينة هولندية صغيرة إلى جزيرة خارج Kharg فوصلها 31 مايو، على أمل أن تنقله سفينة إنجليزية إلى البصرة، في أوائل شهر يونيو.

لقد انقطعت أخبار كارستن نيبور منذ وصوله إلى البصرة، وقد ارتدى نيبور الملابس العربية منذ أن وطئت أقدامه مدينة البصرة، وانتحل اسم عبدالله، وغادر بغداد في 3 مارس 1766، متوجهًا إلى حلب فوصل الموصل فماردين، ثم إلى حلب، وذهب مع قافلة إلى إنطاكية ومنها إلى الإسكندرونة، حتى وصوله كوبنهاجن في 20 نوفمبر 1767.

وفي عام 1773 تزوج بكريستيان صوفي بلومنبرغ Cristiane Sophie Blumenberg، وهي فتاة تبلغ من العمر 33 عامًا، وكانت ابنة طبيب كان في خدمة الملك فردريك، وفي السنة التالية لزواجه نشر المجلد الأول من مذكراته.

تبتدئ حياة كارستن نيبور بالتدهور والاضمحلال عند مطالبته بوظيفة كتابية في مدورف التي سافر إليها مع زوجته وطفليه في صيف 1778، وبالرغم من أن نيبور كان ألماني الأصل والثقافة، إلا أنه كان يحمل جواز سفر دنمركي، وكان شعوره بدنمركيته قويًا منذ دخوله في خدمة الملك فريدريك الخامس.

عين عضوًا في المجمع العلمي الفرنسي، وفي أواخر أيامه اشترى أرضًا لفلاحتها، فعاد فلاحًا كما بدأ، ثم توالت عليه النكبات فأصيب بالعمى، وفي عام 1807 توفيت زوجته، ولم يكف القدر بسلب بصره، بل فاجأه بإصابته بكسر ساقه، فأصبح هذا الرحالة الجسور والسائح الجريء أعرج، وفي 26 أبريل 1815 انتهت حياة هذا العالم، في مدورف من مقاطعة ديتماركن Dithmarchen عن عمر ناهز الاثنين والثمانين عامًا مكللة بالأعمال العظيمة.

وقد التقى نيبور بكثير من الأرمن خلال رحلته البرية عبر العراق من البصرة إلى حلب على البحر المتوسط، فأول ما التقى في البصرة كان الأرمن، مميزًا إياهم من لغتهم وملابسهم وعاداتهم وتقاليدهم، مشيرًا إلى هجرة الكثير منهم من إيران إلى العراق بسبب الفتن والثورات المنتشرة فيها، وأن هؤلاء عملوا في الأعمال التجارية والصناعية في بغداد والبصرة فكانوا من عوامل نهوضهما اقتصاديًا، فيقول: "والأرض الخصبة الواسعة بالبصرة وبغداد لا تغل إلا التمر والأرز والحنطة، ولا تنتج إلا الحيوانات القرنة، أي ذوات القرون، والخيل، ولا تغل ولا تنتج ما يرغب فيه الغربيون، غير أن لمدينتي القطر العظيمتين هاتين مقامًا حسنًا، فإنهما موصل واصل بين الهند وإيران وتركيا، فالتجارة فيهما لا تزال عظيمة، وقد هاجر من إيران إلى بغداد والبصرة جماعات من الأرمن بسبب الفتن التي فيها، وقد أنشأوا في المدينتين معامل"[3] للصناعات المختلفة.

الفرنسي أوليفييه

قام الرحالة الفرنسي أوليفييه G. A. Olivier عام 1791 بإيعاز من حكومة الجمهورية الفرنسية الأولى بجولة تفقدية في الدولة العثمانية، وبلاد فارس، فزار سوريا والعراق وإيران ومصر، وفي العراق مر بكل من الموصل وبغداد والبصرة وغيرها من مدن العراق، وسجل انطباعاته في ثلاث مجلدات، طبعها في باريس عام 1804.

اتسمت مذكرات أوليفييه بوصف دقيق للحالة الطبيعية، الجغرافية، الزراعية، الاقتصادية، والتجارية للمنطقة التي زارها، حاول فيها رصد طرق المواصلات والحالة العسكرية للبلاد المذكورة، فكان موفقًا في الكثير من ذلك، وتطرق إلى أحوال السكان وعادات الأهالي ومعتقداتهم، فكان أقل توفيقًا.

ومنذ أن بدأ يطأ بقدمه أرض العراق، ومخر عُباب الرافدين، اعتقد أن نهر دجلة ينبع من أرمينيا، فقال: "يعين نيبور لدجلة من ست مئة إلى ست مئة وعشرين قدمًا عرضًا، لكننا نظن بأنه أكثر من ذلك إبان شدة المياه التي تكون في أواخر الخريف، وبخاصة في الربيع، إذ تختلط مياه الأمطار في هذا الفصل الأخير في جزء من كردستان وبلاد ما بين النهرين مع المياه الصادرة عن ذوبان الثلوج في بلاد فارس وكردستان الأعلى وأرمينيا.

وأعالي بلاد ما بين النهرين" .

ويذكر رواية أهل بغداد عن أن تعداد سكانها يبلغ أكثر من مئة ألف نسمة، ولكنه يفند هذه الرواية بأن العدد الحقيقي بناء على رواية القنصل الفرنسي فيها، ورجل أعمال إيطالي، لا يزيد عن ثمانين ألف. يشكل العرب غالبيتهم، ويليهم الأتراك، فالأكراد، ثم المسيحيون: الكلدان والأرمن، وفي نهاية هذا التدرج يأتي اليهود الأقل عددًا بين طوائف بغداد، فيقول: "يعتبر أهالي بغداد عدد سكان مدينتهم أكثر من مئة ألف نسمة، غير أن روسو الذي هو منذ زمن وكيل العلاقات التجارية (الفرنسية)، وليوني رجل الأعمال الإيطالي، الذي يسكن منذ أكثر من أربعين سنة في هذه الربوع، ورئيس دير الكرمليين الذين تحدثنا إليهم، لا يقدرونها بأكثر من ثمانين ألفًا، ويوزعونهم هكذا: خمسون ألف عربي (مسلم)، عشرون ألف تركي، بما في ذلك الحامية (الإنكشارية) وحرس الباشا، وحوالي ألف كردي، وخمس مئة مسيحي من الكلدان والأرمن، وألفان وخمس مئة يهودي"[5].

ثم يوضح أن الأرمن يسكنون بغداد لأغراض تجارية، فيقول: "كذلك سكن فيها العديد من اليهود والأرمن لأغراض تجارية مع تركيا والهند، فإن الباشا يشجع التجارة بكل ما في وسعه"[6].

الإنجليزي بكنكهام

ولد جي. اس بكنكهام J. S. Buckingham سنة 1786، ومات سنة 1855، وقد أمضى سنوات عدة من عمره في أقطار الشرق فزار العراق وسوريا وتركيا وإيران والهند وغير ذلك من البلدان، التي عني بوصف شعوبها وأحوالها في المؤلفات التي كتبها.

الجزء المترجم في هذا الكتاب من كتابه Travels in Mesopotamia، وقد زار العراق في أوائل القرن التاسع عشر، ولم يكن بكنكهام أول من زار بلاد الرافدين وكتب عنها، بل سبقه إلى ذلك جماعة من الرحالين، دونوا مشاهداتهم وانطباعاتهم في مؤلفات يعد بعضها مراجع نفيسة عن أحوال العراق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ويشير بكنكهام إلى قيام تبادل تجاري بين بغداد وأرمينيا "وتجارة بغداد تشتمل في الغالب على البضائع والمنتجات الهندية التي تصل عن طريق البصرة من البنغال، وتحمل منها إلى سوريا ونجد وكردستان وأرمينيا وآسيا الصغرى"[7].

وإلى قيام العراق وبغداد بدور الوسيط بين المنتجات الفارسية والأرمنية، فيقوم التجار بنقل البضائع الفارسية إلى بغداد لتحمل منها إلى أرمينيا، "وكانت بغداد، حتى زمن قريب، المخزن الرئيسي للمصنوعات والمنتجات الفارسية التي تحمل إلى الأسواق السورية والأرمنية والتركية، ولقد وجد الفرس طريقًا أمينًا عبر أرضروم وتوقات يفضي إلى استانبول، وأصبحت البضائع التي كانت تودع هنا تحمل رأسًا إلى العاصمة التركية فتؤتي بذلك ربحًا كثيرًا لتجار الفرس وخسارة بعكس ذلك الربح لتجار بغداد"[8].

إلا أن هناك أمرًا لفت انتباهه، وهو أن رئيس الكنيسة الأرمنية في بغداد من أصل فارسي، فيشير إلى أن "الحر الشديد حال دون إقامة الاحتفال بمناسبة ميلاد الأمير ولي العهد، ولكن حرس المقيم العام الهندي أقاموا استعراضًا، وأخذ الزوار والمهنئون بملابسهم الرسمية يتوافدون إلى الديوان حسب المراسيم المعتادة، وكان من بين هؤلاء الجماعة اثنان غريبان فقط، أحدهما طبيب جراح شاب جاء إلى هنا من دمشق سعيًا وراء عمله، والآخر سكرتير القنصلية الفرنسية المسيو M. Vigoroux وكان منحرف الصحة آنذاك، وراهب كبير السن هو رئيس الكنيسة الكاثوليكية، ورجل فارسي معمر يتذكر حصار نادر شاه لمدينة بغداد فقد ولد عام 1720، ودرس في روما وجاء هنا بصفة رئيس الكنيسة الأرمنية في هذه المدينة، وإلى هؤلاء فقد جاء عدد من المسيحيين واليهود وأفراد من الدراويش"[9].

الأمريكي وليم بيري فوك

وليم بيري فوك Wm. Perry Fogg أول سائح أمريكي يزور العراق، فقد غادر أمريكا في أوائل سنة 1847 قاصدًا مصر بعثة استكشافية اختارها الخديوي في مصر برئاسة الدكتور جيرارد رولفس للبحث عن الواحات في صحراء مصر الغربية، وجاء إلى مصر فوجد أن البعثة قد سبقته بأشهر، وعرض عليه السيد فيتيس، وهو شاب إنجليزي من (بيت لحم) تعارف معه على ظهر الباخرة التي أقلتهما إلى مصر، أن يسافر معه إلى بغداد، فسافرا معًا إلى بيت المقدس، ثم عادا فعبرا قناة السويس ونزلا في جدة، ثم في عدن، فمسقط فبوشهر حتى وصلا البصرة، ثم بارحاها إلى بغداد، وأقام هذا السائح الأمريكي في بغداد ردحًا من الزمن قام خلاله بزيارة كربلاء وأطلال بابل والمسيب، ولقي من والي بغداد رديف باشا (خلف مدحت باشا) عناية تامة، وبعث معه بأحد مرافقيه، فزار المؤسسات العامة في بغداد، كما زار الكنائس، ولكي يطلع على الحياة الاعتيادية، وكان يلبس الطربوش، ويسير منفردًا في الشوارع والأسواق، وقد وصف جميع ما شاهده وصفًا دقيقًا تغلب عليه مسحة من الفكاهة والظرف، ويحدثنا هذا السائح أنه وجد في بغداد إنجليزيًا يهوى التصوير الفوتوغرافي فاصطحبه إلى عدة مواضع في بغداد وصورها، فأضاف إلى وصفه الدقيق صورًا جميلة لجامع مرجان، وسور بغداد، وإيوان كسرى، فجاء كتابه من أنفس ما كتبه السائحون، وقد سماه "عربستان، أو بلاد ألف ليلة وليلة Arabistan: or the land of "the Arabian Nights"، وتم طبعه في لندن سنة 1875.

وقد قام وليم فوك بزيارة كنيسة الأرمن في بغداد، وقدم وصفًا لها قائلًا: "ثم ذهبنا منها (كنيسة اللاتين


وليم بيري فوك

الكاثوليك) إلى كنيسة الكلدان، وكنيسة الأرمن، وهما فرقتان مختلفتان، وكنيسة الأرمن الأرثوذكس، تشمل عددًا من أقدم العائلات المسيحية وأغناها، وهذه الكنيسة واسعة أنيقة، وبجانبها مسكن المطران، حيث زرناه أنا والدكتور (سي) صديقه الخاص، فاستقبلنا باحترام عظيم، والمطران رجل جميل الصورة، ذو لحية طويلة سوداء، ووجه أبيض لامع رقيق، وأخلاقه حسنة جدًّا، وكان مرتديًا رداء أرجواني اللون من الحرير، وطاقية وحذاء من نفس اللون، وكان قد زار روما قبل خمس سنوات، وقت انعقاد المجمع المسكوني، وهناك انخرط في سلك الكرادلة، وهو رئيس كافة الكنائس العائدة لملته في البلاد العربية، وقد قدمت لنا السجائر والقهوة العربية اتباعًا للتقاليد السائدة، وقام الطبيب بوظيفة المترجم، وكانت بيننا محاورة ذات أهمية، فقد قدمني الطبيب بصفتي أمريكيًا، فأبدى المطران رغبته الشديدة في زيارة أمريكا، ولكن الذي يمنعه خوفه من عواصف الأطلنطيك وخلال المحاورة كنت ألحظ أن كلمة (ينكي دنيا) تتكرر، وعلمت أن هذه الكلمة هي الكلمة العربية الخاصة التي تعني (الدنيا الجديدة)"[10].

المراجع:

1 - هوري عزازيان: الجاليات الأرمنية في البلاد العربية (لبنان، العراق، فلسطين، الأردن، مصر)، (اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، 1993)، ص 6.

2 - هوري عزازيان: مرجع سابق، ص 6.

3 - كارستن نيبور: "بغداد في رحلة نيبور"، مصطفى جواد (ترجمة)، بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق النشر المحدودة، 2007)، ص 34.

4 - أوليفييه: "الرحالة الفرنسي أوليفييه يصف بغداد عام 1791"، يوسف حبي (ترجمة)، بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق النشر المحدودة 2007)، ص 85.

5 - أوليفييه: مرجع سابق، ص 86، 87.

6 - المرجع السابق، ص 87.

7 - بكنكهام: "رحلة بكنكهام، وصف بغداد"، محمد علي حلاوي (ترجمة)، بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق للنشر المحدودة، 2007)، ص 119.

8 - بكنكهام: مرجع سابق، ص 121، 122.

10 - المرجع السابق، ص 132.

11 - وليم بيري فوك: "رحلة وليم بيري فوك إلى بغداد، أحوال بغداد في القرن التاسع عشر"، السيد عبود الشالجي (ترجمة)، بغداد بأقلام رحالة، (لندن: دار الوراق للنشر المحدودة، 2007)، ص 163، 164.



تاريخ الخط والكتابة العربيين



صلاح عبدالستار الشهاوي

باحث في التراث العربي - مصر

من الكهوف الأولى، مرورًا بالمسمارية والهيروغليفية فالعربية، كان شمال الجزيرة العربية مرتبطًا بالحضارات المجاورة، حيث انتشرت مجموعة من الخطوط من الأصل السامي (مصطلح السامية- مجموعة اللهجات العربية التي كان يتكلم بها سكان الجزيرة العربية وما بين النهرين وسوريا وفلسطين والحبشة ومصر وشمال إفريقي- هو واحد من شطحات المستشرقين الذين قاموا بنسبة اللغات العربية القديمة: المسندية، الأكادية، الكنعانية، الآرامية، والهيروغليفية، والتي هي لهجات عربية إلى العبرية. فإذا استعصى ذلك أعطيت اسمًا خاصًا وجمعت بوصفها عائلة لغوية تحت المسمى العام -اللغات السامية- لذا فإن مصطلح العرب الذي يقال للسامية أقرب إلى العلم فهو أدق وأصرح وأصدق من اصطلاح - الساميين-) مثل الآرامية والسريانية والنبطية. وقد لوحظ الكثير من التشابه بين الخطوط العربية والسريانية، وكذلك النبطية التي انبثقت عن الآرامية في القرن الثاني ق. م وقد عززت النقوش الأثرية العربية من القرن السادس الميلادي التي وجدت جنوب سوريا، شدة التطابق بين العربية والنبطية، وأهم هذه النقوش نقش زبد، نقش حران ونقش أم الجمال الثاني، وهذا ما أكد أن الكتابة العربية تنحدر من الخط الشمالي وليس من السريانية بل من النبطية التي هي متطورة من الآرامية.

أول من خط الخط العربي:

أول من خَطّ الخطّ العربي، كما قال ابن عباس، إسماعيل عليه السلام، وزاد أنه كان موصولاً حتى فرّق بينه ولده، وقيل: مُرامر بن مرّة، وأسلم بن جَدرة، وهما من أهل الأنبار، وقيل: أول من كتب بالعربية حرب بن أمية ابن عبد شمس، تعلّم من أهل الحيرة، وتعلّم أهل الحيرة من أهل الأنبار. ويقول ابن دريد في أماليه: عن عوانة قال: أول من كتب بخطّنا هذا وهو الجزم مُرامر بن مرّة وأسلم ابن جَدرة الطائيان، ثم علّموه أهل الأنبار فتعلّمه بشر بن عبدالملك أخو أكيدر بن عبدالملك الكندي صاحب دومة الجندل، وخرج إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان، فعلّم جماعةً من أهل مكة، فلذلك كثُر من يكتب بمكة، ولذلك يقول رجل من كندة يمنّ على قريش بتعليم بِشْر لهم: "لا تجحدوا نعماء بِشْر عليكمُ فقد كان ميمون النقيبة أزهرا أتاكم بخط الجَزْم حتى حفظتموا من المال ما قد كان شتى مبعثرًا".

الخط والكتابة في العصر الجاهلي:

الباحثون في الأدب العربي حين يحددون العصر الجاهلي لا يتسعون في الزمن بحيث يجعلونه كل ما سبق الإسلام، وإنما يطمئنون إلى التحديد التقريبي الذي ذهب إليه الجاحظ في كتابه الحيوان، حين قال: "أما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له – إلى أن جاء الله بالإسلام – خمسين ومئة عام وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام"



نقش عربة وأسد، وكذلك بعض الكتابات في منطقة وادي القرى يبعد حوالي 110 كم عن مدينة العلا

"والأمر الذي لا يقبل جدلاً حوله هو أن العرب في العصر الجاهلي كانوا يعرفون الكتابة (غير أن صعوبة وسائلهم جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية)، ومن ثم استخدموها فقط في الأغراض السياسية والتجارية"

وهي الحقبة التي تكاملت للغة العربية خصائصها، والأمر الذي لا يقبل جدلاً حوله هو أن العرب في العصر الجاهلي كانوا يعرفون الكتابة (غير أن صعوبة وسائلهم جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية)، ومن ثم استخدموها فقط في الأغراض السياسية والتجارية، هذا ما تشير إليه كثير من الدراسات (أن العربي في العصر الجاهلي كان يعرف الكتابة ولكنه كثيرًا ما استخدمها خاصة في الأغراض السياسية والتجارية).

والكتابة كانت معروفة في مجتمع المدن خاصة المدن التجارية، ومكة أوضح مثال لهذه المدن فقد كانت الكتابة أمرًا حيويًا لابد منه لقيام حياة اقتصادية منظمة بها، وعنصرًا أساسيًا من عناصر الحياة فيها. أما في مجتمع البادية (فإن الأدلة التي تثبت استعمال البدو للكتابة هزيلة) ولكن هذا لا يمنع أن يكون أفراد من هذا المجتمع قد عرفوها واستخدموها في بعض شؤون حياتهم على نحو ما نعرف عن النابغة الذبياني والربيع بن زياد العبسي والزبرقان بن بدر وكعب وجبير ابني زهير ولبيد. نستدل على ذلك بكثرة ألفاظ اللغة الدالة على القلم والورق في شعرهم مثل: اليراع والأنبوبة والقرطاس والطرس والرق والصحيفة، ومن الألفاظ الدالة على الكتب الصك – الزبور – و- الرقيم – و- السفر – و- الوصيرة- إلخ.. كما أن الشعر الجاهلي لم يحفظ عن طريق الرواية والسماع فقط، وإنما كانت الوسيلة الأولى لحفظه القلم والكتابة، ويستدل على ذلك بكثرة ورود كلمتي الكتابة والقلم في ألفاظ الشعر الجاهلي أو في بعض تشبيهاته وصوره، كما شاع عن شعرائهم تشبيه الأطلال ورسوم الديار بالكتابة والنقوش، فالمرقش الأكبر يقول مشبهًا بقايا أطلال منزل الحبيبة ببقايا آثار سطور خطها قلم:

الدار قفر والرسوم كما
رقش في ظهر الأديم قلم

وكما يقول الأخنس بن شهاب التغلبي:

لابنة حطّان بن عوف منازل
كما رقش العنوان في الرق كاتب

(والرّق: الجلد الرقيق يكتب عليه)

ويستهل لبيد معلقته بأبيات يصور فيها أيضًا بقايا أطلال الحبيبة تصويرًا أقرب إلى تصوير المرقش، حيث يقول:

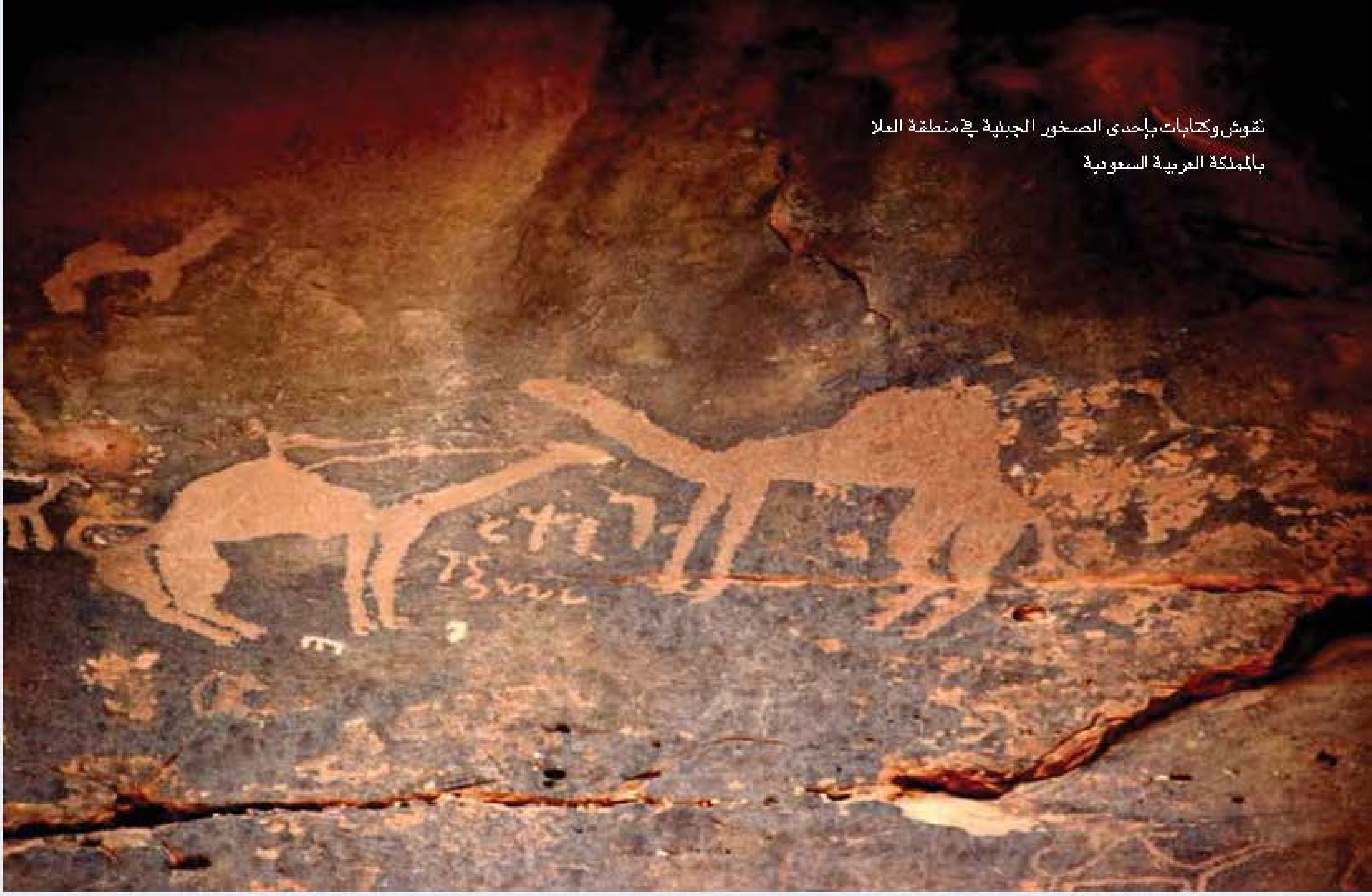
عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عري رسمها
خلقًا كما ضمن الوحيَّ سلامها

(الوحي: الكتابة، والسلام: الحجارة البيض التي كانوا يكتبون عليها، وكانوا يكتبون أيضًا في الأدم، أو الأديم الذي مر في بيت المرقش، وهو الجلد المدبوغ يكتب عليه، كما كانوا يكتبون في عسب النخل).

ويستمر لبيد في معلقته فيقول:

وجلا السيول عن الطلول كأنها
زبر تجدّ متونها أقلامها

(الزبر: جمع زبور وهو الكتاب)



نقوش وكتابات بإحدى الصخور الجبلية في منطقة العلا بالمملكة العربية السعودية

ويقول سلامة بن جندل وهو فارس جاهلي معروف:

لمن طلل مثل الكتاب المنمق
خلا عهده بين الصُّلَيب فمُطرقِ

(الصليب ومطرق: اسمان لمكانين)

كذلك نجدهم يذكرون الصحف والصحائف والكتب، التي تعني بالرسائل، كما ورد في قصة قتل طرفة بن العبد: روي أن طرفة بن العبد الذي كان يمدح الملك عمرو بن هند، أحد ملوك المناذرة (الذين أسست دولتهم عام 240م، واستمر حكمها حتى سنة 633م حين فتح عاصمتهم الحيرة – خالد بن الوليد-) قد انقلب على الملك وهجاه، فصمم – عمرو بن هند – على التخلص من طرفة ومن خاله الشاعر المتلمس، وما كان منه إلا أن حمل كلًا منهما كتابًا إلى عامله على البحرين، وفي كل كتاب أمر بقتل حامله، بينما الشاعران يظنان أن فيهما أمر بجائزة لهما، وفيما هما في الطريق ساور الشك صدر المتلمس، فارتاب في أمر كتابه، ففك ختمه، وجاء إلى غلام من أهل الحيرة، فقال له: أتقرأ يا غلام؟ فقال: نعم، فأعطاه الصحيفة فقرأها، فقال الغلام: أنت المتلمس؟ قال: نعم، قال: النجاة! فقد أمر الملك بقتلك. فأخذ الصحيفة وقذفها في جدول اسمه كافر، ثم أنشأ يقول:

وألقيتُها بالثني من جنب كافر
كذلك ألقي كلّ رأي مضلل
رضيت لها بالماء لما رأيتها
يجولُ بها التيار في كل جدول

وهرب المتلمس إلي الشام وعند وصوله أنشأ يقول:

من مبلغ الشعراء عن أخويهم
نبأ فَتَصْدُقُهم بذاكَ الأنفُسُ
أودى الذي عَلِق الصحيفة منهما
ونجا حذار حياته المتلمس

أما طرفة الذي لم يشك في أمر صحيفته، فقد مضى إلى حتفه.

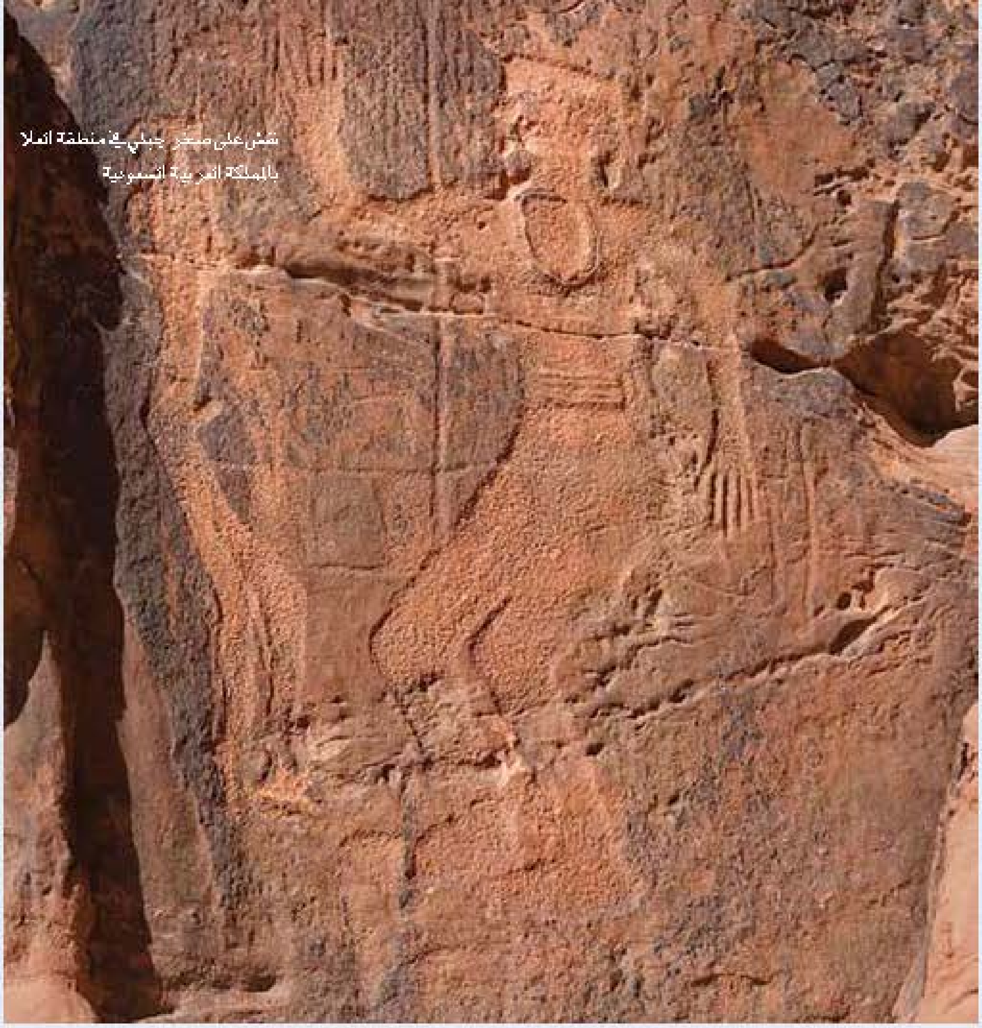
وقد ردد الشعراء مثل هذه الصورة كثيرًا في أشعارهم، وما من ريب في إنّ ذلك يؤكد أن الكتابة معروفة في العصر الجاهلي، كذلك كانوا يكتبون عهودهم السياسية، وكانوا يسمون تلك العهود المكتوبة "مهارق" وقد جاء ذكر هذه المهارق في معلقة – الحارث بن حلزة – مشيرًا بها إلى ما كتب من عهود بين بكر وتغلب، إذ يقول:

واذكروا حلف ذي المجاز وما
قدم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدي وهل
ينقض ما في المهارق الأهواء

كما نجد هذه الصورة لدى شعراء آخرين، وكان بعض الشعراء الجاهليين يكتبون أشعارهم، بل كتب بعضهم- كلقيط بن معمر الأيادي- رسائل شعرية إلى قومه، وكان بعضهم يعرف لغات أجنبية كعدي بن يزيد الذي كان يعمل في بلاط ملك الحيرة، وليس أدل على معرفة الجاهليين الكتابة والقراءة من أن معلقاتهم الطوال كانت تذاع وتشتهر بين الناس بسبب تعليقها مكتوبة على جدار الكعبة المشرفة.

الكتابة في مكة والحجاز قبل الإسلام:

كانت الكتابة قبل الإسلام تُعدُّ ترفًا، ولكنها موجودة بكثرة في المناطق التجارية أو التي تمر بها القوافل، وذلك لضرورات العقود والمواثيق والتحالفات، وخصوصًا في منطقة مكة، حيث وجدت الكثير من العقود والاتفاقيات المكتوبة بينها وبين القبائل والمدن الأخرى، كما أن الشعر الجاهلي لم يحفظ عن طريق الرواية والسماع فقط، وإنما كانت الوسيلة الأولى لحفظه القلم والكتابة ويستدل على ذلك بكثرة ورود كلمتي الكتابة، والقلم في ألفاظ الشعر الجاهلي أو في بعض تشبيهاته وصوره، كما شاع عن شعرائهم تشبيه الأطلال ورسوم الديار بالكتابة والنقوش، وهناك أدلة أخرى مهمة كوجود المعلقات السبع التي علقت على ستار الكعبة، فالمعلقات هي التي نقلت الشعر العربي من الشفاهة إلى التدوين والكتابة فمن المعروف أن العرب كان أغلبهم بدوا لا يقيدون شعرهم في كتاب أو نقش فإذا تقدم الزمن ضاع ما نطق به شعرائهم ولما وصل الشعر إلى ما وصل إليه في شعر امرئ القيس وأمثاله من أصحاب المعلقات من نظم منسجم، ونفس طويل، وتعبير محكم، ووحدة في القافية، خافوا


نقش على صخر جبلي في منطقة العلا بالمملكة العربية السعودية

على ضياعه من الصدور والألسن وعملوا على نقله من مشافهة الإرسال والاستقبال إلى الحضور الكتابي للخط والقراءة فحفظوا هذه المعلقات في صحائف نفيسة من قباطي مصر – القباطي بضم القاف وفتح الباء – ثياب رقاق من كتان مصر ناصعة البياض لا تشف ناعمة ملساء – كتبوا على نسيجها المعلقات بالذهب، فصارت مذهبات وصارت معها القصيدة المختارة (مذهبة)، وبعد كتابتها يعلم بذلك -عبد المطلب بن عبد مناف- حاكم العرب – الذي يجمع الصفتين الدينية والدنيوية، الذي تصفه السيرة بأنه -حاكم الحكام، والمتولي على البيت الحرام، شيخ الحطيم وزمزم، حاكم العرب، وجد النبي المنتخب -، فيأمر بنصب العرنوس (المنبر)، الذي كان يخطب عليه في زمن الجاهلية في سوق عكاظ – كان ذلك المنبر شاهقًا في الارتفاع، لأن طوله ثلاثة وعشرون ذراعًا – وتجيء القصيدة ملفوفة في ثوب من الديباج، فيأخذها عبد المطلب وينشرها بين يديه، ثم ينادي برجل من حكماء مكة يقال له- وائل بن العاص – فيقول له: يا ابن العاص، أرق هذا المنبر، واسمع الناس هذه القصيدة بأعلى صوتك، فينشد وائل القصيدة بصوته الذي كان أندى من وابل المطر، فيسمع كل من حضر من العرب – للحج – القصيدة، ويعود العرب إلى خيامهم، ليأخذوا أهبة الرحيل بعد أن زاروا بيت الله الحرام، وقرئت عليهم القصيدة التي اعترف بها كمذهبة أو معلقة، وأعلن الاعتراف بجدارتها شعرًا، وبجدارة قائلها شاعرًا.

قصيدة لقيط بن يعمر بن خارجة الإيادي:

وتاريخنا الأدبي يحفظ لنا ديوانًا من الشواهد على ذلك، ولعل قصيدة لقيط بن يعمر بن خارجة الإيادي، أقدم ما وصل إلينا من ذلك، فقد عاصر هذا الشاعر كسرى- سابور ذا الأكتاف- وكتب له وترجم، واطلع على أسرار دولته وقصيدته، التي سقطت في يد من أوصلها إلى كسرى، كانت سببًا في قطع لسانه وقتله، وفيها تحذير لقومه بني إياد من غزو فارسي وشيك، ودعوة إلى اتخاذ الأهبة.

وكان قد انتهى إلى علمه أن قبيلته مشغولة بالتجارة والزراعة والاستسلام لنعيم الحياة الجديدة الحضرية، التي أحرزتها على ضفاف الفرات (إياد هي إحدى القبائل الأربع، التي تفرعت عن نزار بن معد بن عدنان، كانوا يسكنون تهامة، ولكنهم اضطروا لمغادرة مستوطنتهم الأصلي والمهاجرة إلى مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، فنزلت إياد ناحية من نواحي العراق – منطقة بين البحرين وسنداد والخورنق والكوفة- وانتشروا على ضفاف الفرات، ثم أخذوا يهاجمون الفرس، وبلغت هجماتهم ذروتها حين سبى رجل منهم عروسًا فارسية نبيلة، فأثار ذلك غضب ملك الفرس، ودفعه إلى إرسال جيش كبير لمهاجمة إياد)، وما إن شاهد لقيط بن يعمر ابن خارجة الإيادي هذا الاستنفار العسكري الفارسي حتى استثيرت مشاعره، وعلم أنه مقدم على ركوب المركب الخشن، فلم يخاطر بمنصبه فقط، وإنما خاطر بحياته، فسرب إلى قومه قصيدة مكتوبة هي رسالة مفتوحة يحذرهم فيها في حياة النعيم في حين يعد عدوهم العدة للقضاء عليهم، وكان حديث الشاعر موجهًا إلى رؤساء القبائل من إياد، الذين كانوا منقسمين في الرأي قبل حدوث المعركة – معركة دير الجماجم- فقد كان فريق منهم يعد نفسه ضعيفًا عاجزًا عن القتال، وفريق يخاف سطوة الفرس، وأنه وقومه يجب أن يذهبوا للصحراء، لأنه ليست لديهم قوة يواجهون بها الجيوش الفارسية، وكذلك كان بنو حنيفة الذين لم يحضروا الاجتماع، ولم يكن في المجتمعين من يؤيد الحرب إلا – سيار العجلي- سيد إياد، وفي هذه اللحظة وصلت قصيدة لقيط يحذرهم غزو فارس، ويأمرهم بالاتحاد والتكاتف، وقد كان فجمعت إياد عدتها وعددها، وهجمت على جيش ملك الفرس، وقضت عليه، وتكدست جماجم القتلى في أرض المعركة بالقرب من دير هناك، سمي فيما بعد – دير الجماجم-، أما لقيط فإنه لما بلغ كسرى أن لقيطًا أبلغ قبيلته عن توجه الجيوش الفارسية لغزوهم قطع لسانه ثم قتله، وقصيدة لقيط هي القصيدة الوحيدة التي نعرفها من شعر لقيط، إذ لا يوجد في ديوانه إلا هذه القصيدة العينية، وقوامها خمس وخمسون بيتًا وأربعة أبيات دالية، هي بمثابة المقدمة التحذيرية لهذه القصيدة، وهي:

سـلام في الصحيفة من لقيط
إلى من بالجزيرة من إيـاد
بأن الليث كسرى قد أتاكـم
فلا يشغلكم سوق النِّقـاد
أتاكم منهم ستون ألفاً
يزجون الكتائب كالجـراد
على حنق أتينكم فهذا
أوان هلاككم كهلاك عاد

أما القصيدة فمطلعها:

يا دار عمرة من مُحتلِّها الجَرَعا
هاجت لي الهم والأحزان والوجعا

وتعد هذه القصيدة هي أول وأقدم دعوة للقومية العربية، وظل ذلك ديدن الشعراء والخطباء في العصور التالية، وديدن العرب في تأثرهم بالفصيح والبليغ من الكلام.

وكذلك وجود مجموعة من المسيحيين واليهود العرب، الذين كانوا يكتبون بعدة لغات منها العربية.

وبعد ظهور الإسلام انتشرت الكتابة بشكل كبير، حيث كان الوحي يتنزل شفويًا على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ليتم تدوينه بعد ذلك وجمعه، وكذلك الحديث الشريف، والعديد من العهود والمواثيق التي أملاها عليه الصلاة والسلام لتكتب، مثل صحيفة المدينة التي نظمت العلاقة بين المسلمين واليهود والعرب من غير المسلمين، كما كانت تسجل مستحقات قابضي الزكاة.



صرح (سومري)
على ضفاف كورنيش الدوحة



أ. د. منير يوسف طه

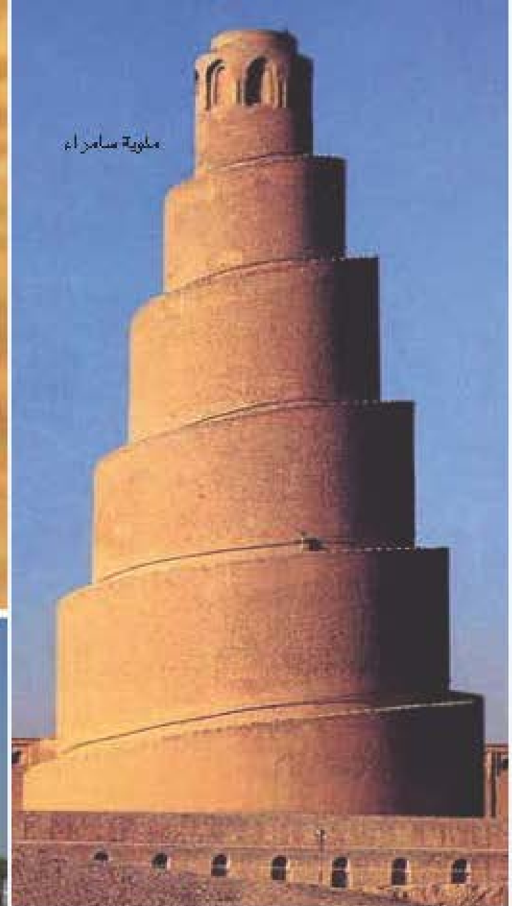
الدوحة

أعتقد جازمًا عندما طلب سعادة (المدير العام لإدارة) للمجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث في دولة قطر من المهندس المعماري المعروف (إيونك بيه) في بدايات القرن الحالي تقديم تصميم لمتحف (الفن الإسلامي) في الدوحة ليعرض فيه عددًا من التحف الإسلامية المتنوعة المواضيع والأماكن والعصور، ظل السيد (بيه) حينًا من الدهر حائرًا وهائمًا في مناطق مدينة الدوحة باحثًا فيها عن ضالته المنشودة المتمثلة بتصميم معماري جميل يربط الماضي بالحاضر.

وبعد أن أعياه البحث عن المكان والزمان اهتدى ودون أي سابق إنذار إلى منطقة نابضة بالحياة تقع في مركز الدوحة وعلى شاطئها مباشرة. وفي واقع حال هذه المنطقة الملموس هي تربط الماضي القريب بالحاضر السعيد. وعندما تطلع إلى الأفق البعيد القريب في المكان الذي هو فيه تراءى له بناءً حديثًا له أبعاد الأجداد الأقدمين.



زقورة أور وبناية المتحف الإسلامي



ملوية سامراء



"وحسب الدلائل والشواهد الأثرية والتاريخية فإن تصميم الزقورة قد ظهر لأول مرة في مدينة الوركاء مدينة (كلكامش) العريقة الواقعة جنوب وادي الرافدين خلال منتصف الألف الثالث قبل الميلاد واستمر طابع بنائها في مدن بلاد الرافدين الكبرى ما يقرب من ثلاثة آلاف عام"

يتمثل هذا (الصرح المعماري) العتيد بفندق (شراتون الدوحة) الذي صمم وأقيم وبدون أدنى شك على هيئة (هرم ناقص). وبعد أن استوعب بما هو فيه من الأبعاد والمسافات والثقافات والحضارات التي مرت على مياه الخليج العربي منذ أقدم العصور بحث في ذاكرته عن معلم يربط الخليج العربي بماضيه القديم كالمعلم الذي يتطلع إليه الآن. وبعد صمت عميق..

تمتم مع ذاته قائلاً:

هناك في الأفق القريب (هرمًا ناقصًا) يقف بكل شمم واعتزاز على ضفاف مياه الخليج العربي برغم أن تصميمه وإنشاءه يعودان إلى أكثر من أربع آلاف وخمس مئة سنة خلت ..فلا بد إذًا من معلم معماري آخر يضاهيه كي يكون (ندًا) له، كما يجب أن يكون للمعلم الجديد هذا أواصر وروابط وعلاقات مباشرة بثقافة هذه الأرض، التي شاركت ومن معها من أماكن أخرى تمتد على طول الساحل الغربي للخليج العربي بالعطاء التجاري والثقافي والحضاري والتاريخي عبر العصور والدهور.

وبينما كان غارقًا في ارهاصات الماضي الجميل تذكر ملحمة كلكامش التي قرأ فيها نصًا يقول: "كيف ناشد البطل السومري الخالد الذكر كلكامش جده (اوتنابشتم) قبل أكثر من خمسة آلاف عام طالبًا الخلود هنا في أرض دلمون"...ثم تذكر كيف أن مدينة أور مدينة (إبراهيم الخليل) في بلاد الرافدين لعبت دورًا مميزًا عبر العصور في حياة أرض دلمون التجارية والروحية. وبينما ما هو فيه رفع رأسه عاليًا في الفضاء ونادى الماضي البعيد والقريب قائلاً:

أجل سأقيم هنا على هذا الساحل الحي (زقورة سومرية) أي صرحًا مدرجًا على غرار زقورة (مدينة أور) التي أقامها الملك (أور-نمو) في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد. ثم تمتم مع ذاته قائلاً: ومدينة أور وكما هو مألوف ومعروف كانت لها علاقات وطيدة ومباشرة مع أرض دلمون المعطاء التي كانت (شبه جزيرة قطر) آنذاك جزءًا لا يتجزأ من تلك البلاد .... وبعد حين عرض المهندس المعماري الذائع الصيت تصميمه على ذوي الشأن في المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث القطري، ثم شرح لهم أبعاد تصميمه. وبعد مباركة اللجنة المختصة للتصميم بدأ تنفيذه، بكل فخر واعتزاز.

وحسب الدلائل والشواهد الأثرية والتاريخية فإن تصميم الزقورة قد ظهر لأول مرة في مدينة الوركاء مدينة (كلكامش) العريقة الواقعة جنوب وادي الرافدين خلال منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، واستمر طابع بنائها في مدن بلاد الرافدين الكبرى ما يقرب من ثلاثة الآف عام.

ومن تداعيات ظهور ما يقرب من مخطط الزقورة المتمثل (بالكتلة والفضاء) خلال العصور اللاحقة في بلاد الرافدين، وتحديدًا إبان الحقبة الإسلامية المبكرة، وحسب الدراسات المعمارية ظهور ما يعرف بملوية سامراء (مئذنة سامراء)، التي أقامها الخليفة العباسي المعتصم بالله خلال النصف الأول من القرن التاسع الميلادي، والتي يبلغ ارتفاعها الكلي 52 مترًا ومقامة على قاعدة مربعة أبعادها 33 X33 مترًا.

وقد امتد هذا النوع من العمارة المميز إلى (بلاد النيل) بدليل بعد تعين الخليفة العباسي المعتز بالله الوالي التركي (بابكيان) واليًا عليها في العام 868 للميلاد وقع اختيار هذا الوالي الجديد على أحمد بن طولون ابن زوجته، ليكون نائبًا عنه هناك وبعد أن شده الحنين إلى

مدينته (سامراء) أقام في القاهرة جامعًا عرف بجامع ابن طولون.

إن الشيء المميز في ذلك الجامع هو منارته التي بنيت على هيئة الطبقات الثلاثة العليا لمنارة سامراء المتأثرة معماريًا بما يعرف بالزقورة كما ورد أعلاه. ولا يخفى على أحد من أن تصميم منارة جامع ابن طولون يقف الآن شامخًا في أحد أركان مساجد (سوق واكف) في مدينة الدوحة أيضًا.

وما إن بدأ العمل الفعلي لمتحف الفن الإسلامي الواقع على ضفاف الكورنيش في منطقة قريبة من ميناء الدوحة القديم بدأت أراقب عن كثب وباستمرار ارتقاء ومراحل تطور ذلك البناء كلما مررت بشارع الكورنيش لدرجة كنت أشعر ببعض الأحيان أن شيئًا ما يربطني بهذا البناء وتكوينه ومضامينه الخفية.

في كثير من الأحيان كنت أدنو منه محاولاً إدراك ما الذي يشدني إليه، وكلما زاد البناء ارتفاعًا وارتقاءً زاد فضولي ورغبتي في الوقوف على شكله النهائي. وبعد حين من الزمن وبينما أنا أراقب التطورات البنائية للبناء أدركت كل الإدراك إنني الآن أمام (صرح) قريب من مداركي وهواجسي، وهنا تمتمت مع نفسي قائلاً:

ما يعلو هذا الصرح الواضح المعالم الآن ذلك (البناء المكعب) الشكل الكبير الحجم الذي يظهر أعلاه ويعرف عند السومريين (بخلو الإله)، والذي كان يقام على الطبقة العليا من صرح الزقورة، وبكل أبعاده المعمارية والدلالات الروحية السومرية، التي كانت تذكر أن في كل ليلة كانت تجلس فيه امراة يختارها الكهان من بين بنات المدينة، لتكون مع إله المدينة. وإن أشهر من اشتهر بتلك الدلالات الروحية مدينة (أور) وإلاهها (سن) إله القمر.

وهنا أدركت كل الإدراك إن هذا الصرح (مقتبسًا) من مخطط (زقورة) أو ما يعرف بالبرج أو الصرح المدرج الواقع في مدينة أور الواقعة في جنوب بلاد وادي الرافدين. التي أسس فيها الملك السومري (أور-نمو) سلالة عرفت بسلالة أور الثالثه، والتي كانت آخر مدينة سومرية دمرها العيلاميون، وقضوا على المدينة ومن فيها قضاء مبرمًا لدرجة لم تقم للسومريين، أي قائمة بعد خرابها المؤلم في العام (2006 قبل الميلاد). أما تأسيسها فيعود وحسب الدراسات الحديثة أيضًا إلى العام (3112 قبل الميلاد). وقد أسس ذلك الملك الذائع الصيت مدينته على غرار أسلافه على نهر الفرات، الذي كان يصب آنذاك في رأس الخليج العربي مباشرة القريب من مدينة أور آنذاك، والذي يبعد عنها الآن عشرات الكيلومترات. أما نهر الفرات فهو الآخر هجر المدينة وابتعد عنها تدريجيًا قرابة الخمسة عشر كيلومترًا.

نظرت إلى الصرح بكل إمعان ثم نظرت هنا... وهناك وفي الأفق البعيد ثم تساءلت مع نفسي:

قائلاً: كيف جمعت الأقدار ما بين الأعوام (2006 قبل الميلاد) عام نهاية مدينة أور وبين (2006 للميلاد) العام الذي سيكون فيه افتتاح هذا الصرح....؟! وما هي حسابات النسبة المئوية في هذه المضمار؟!.

وأنا ما بين هذا.. وذاك أدركت سر العلاقة التي ربطتني بهذا الصرح منذ بدايات إنشائه، حيث إني وفي بدايات حصولي على شهادتي الجامعية في قسم الآثار في جامعة بغداد في العام (1963) شاركت مع فريق من المديرية العامة للآثار العراقية لصيانة ما يعرف (بزقورة أور)، وتجربتي تلك ربطتني ومنذ ذلك الحين بتلك الزقورة الجميلة الشكل والأبعاد الروحية.

كما إن تجربتي تلك كانت الأساس الأول للتعرف على أبعاد فنون العمارة القديمة في بلاد الرافدين - سيما وإن الزقورة هي إبداع معماري من إبداعات بلاد الرافدين، وقد تزامن ظهورها مع أهرامات وادي النيل خلال نهايات النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد.

والزقورة هي في واقع الأمر عبارة عن بناء مربع متساوي الأضلاع، تتجه زوياه الأربعة نحو اتجاهات البوصلة، ويحتوي على ثلاث طبقات على الأقل تقدير، ونظرًا لميل جدرانه إلى الداخل فإنه يشكل مثلثًا (ناقصًا) أعلاه كان يقام معبدًا مكعب الشكل يدعى (خلوة الإله)، كما ورد أعلاه يقال إنه كان يطلى بلون أزرق، كي يتناغم مع لون السماء. وبالمعنى الدقيق كان تصميم الزقورة عبارة عن مثلث ناقص رباعي الأبعاد عكس أهرامات وادي النيل، التي كانت تمثل مثلثًا كاملاً رباعي الأبعاد أيضًا.

وقد خصص ذلك المعبد كما جاء آنفا لنزول (إله) المدينة الرئيسي في كل ليلة تشاركه تلك الليلة حسناء من حسنوات المدينة، يختارها كهنة المدينة أو ممن يقيمون على شؤون المعبد.

وهناك من يفترض إن المرأة كانت تجول مع الإله في أثناء الليل أو بالأحرى خلال الظلام في أحياء المدينة كي يطلع على شؤونها، ومهما يكن من أمر فإن نزول الإله من السماء إلى الأرض في كل ليلة يعني أن هناك عقابًا وهناك ثوابًا.

هذا وقد توصل علماء الآثار والباحثون من المعماريين بعد أن درسوا معالم الزقورات التي كشفوا عنها في كثير من المدن القديمة في بلاد الرافدين إلى أن زقورة أور كانت مفتاح التوصل إلى الأبعاد البنائية للزقورات القديمة اللاحقة، التي ظهرت في جنوب ومن ثم شمال وادي الرافدين، ثم امتدادها إلى جنوب غرب الهضبة الإيرانية فيما بعد.

وعلى ما يبدو فإن المعمار (ايونك بيه) Iong Pei قد درس مخططات زقورات ومعابد وقصور بلاد الرافدين القديمة كغيره من المعماريين المحدثين، الذين تأثروا بتلك الأبنية وخاصة الزقورة فعمد إلى (تقليد) أبعادها المعمارية، لتكون معلمًا بارزًا (لبناية المتحف الإسلامي) على ضفاف مدينة الدوحة، التي كانت لها أواصر وأوشاج روحية واجتماعية واقتصادية مع مدينة أور السومرية على وجه الخصوص وباقي مدن بلاد الرافدين على وجه العموم.

ومن خلال الدراسات المعمارية تبين أيضًا إن طبقات الزقورة أصبحت خلال ما يعرف بالعصر الآشوري والعصر البابلي الحديث أي ما بين منتصف الألف الثاني والأول قبل الميلاد سبع طبقات بدلاً من ثلاث طبقات.

وخير دليل على ذلك زقورة بابل أو ما يعرف ببرج بابل، الذي بلغت أبعاده 90X90 مترًا وارتفاعه 90 مترًا. وكما هو معلوم فقد سلب ذلك الصرح الباب كثير من الفنانين والمعماريين الغربيين، ومنذ عصر النهضة، بدليل عمد كثير من الفنانين البارزين إلى رسم لوحات تخيله لذلك البرج، الذي لا زالت معالم أسراه طي الكتمان، بينما عمد الكثير من المحدثين المعماريين المعاصرين إقامة طرز بنائية، وخاصة في المدن الكبيرة المترفة في أوروبا والولايات المتحدة، وتحديدًا مدينة نيويورك، التي يشاهد فيها أشكالاً وأنماطًا من الأبنية الحديثة المختلفة الاستعمالات لا تختلف في مضامينها التخطيطية في واقع الحال عن صروح بلاد الرافدين أو صروح وادي النيل القديمة.

أما فيما يخص (الصرح المدرج) أو بالأحرى بناية المتحف الإسلامي المقامة على ضفاف كورنيش الدوحة الآن، فقد أعطاه المعمار تقريبًا كل أبعاد زقورة أور، إلا إنه وحسب متطلبات العصر استبدل سلالمها الثلاثة الوسطية بمصاعد كهربائية. وعوضًا عن بنائها باللبن والطين، ثم كسائها بالآجر، كما هو الحال في الأزمنة الغابرة عمد المعمار (ايونك بيه) على بناء المتحف بالكتل الكونكريتية (بلوك) ثم كسى جدرانه بالمرمر المصقول. إلى جانب إظهار المتحف من الداخل بما يتناسب مع المضامين المعمارية للعصر الذي نحن فيه.

وبعد حين من إقامة المتحف الإسلامي على غرار مخطط زقورة مدينة أور أقيم صرح آخر قريبًا منه له علاقة مباشرة بعمارة بلاد الرافدين القديمة أيضًا. الصرح هذا عبارة عن بناية عملاقة جميلة الأبعاد. أبعادها ومضامينها المعمارية مستوحاة من (بوابة عشتار البابلية... وبرج بابل). ومما زاد من أبعادها المعمارية رونقًا وبهاءً تحوير زواياه الأربعة إلى أبراج قلاع مستقاة من التراث المعماري القطري.

وفي الأخير لا بد من الإشارة إن توارد تواريخ البنائين كما ورد أعلاه بهذه الدقة العام (2006 قبل الميلاد) سحق مدينة أور حسب ما ورد في المصادر التاريخية الحديثة الخاصة بمدينة أور... والعام (2006 للميلاد) سنة الانتهاء من بناء المتحف على هيئة (صرح سومري... على ضفاف كورنيش الدوحة) قد أعطى حسًا زمنيًا عميقًا لم يكن بالحسبان..



حفظ العطور وتركيبتها الأصلية في "أسموتيك"

العطور وروائحها الزكية، اكتست أهمية كبيرة لدى البشر منذ عصور بعيدة.

العديد من العطور القديمة جدًا، اختفت تمامًا ولم تُعرف تركيبتها الأصلية بتاتًا.

منذ العام 1990، يقوم مركز "أوسموتيك" في باريس، بحفظ كل أنواع العطور التي ظهرت في العالم سواء القديمة منها أو الحديثة.

تقول باتريشيا دي نيكولاي، إخصائية عطور في أوسموتيك أو سموتيك، هو مركز عالمي لحفظ العطور وهو مركز حيوي، لأنه لدينا عطور قديمة وأيضًا عطور أطلقت حديثًا".

"أوسموتيك" هو الأرشيف الدولي الوحيد للعطور، ويضم حوالي أربعة آلاف عطر، تمت صناعتها من العام 1800 إلى اليوم.

تضيف باتريشيا دي نيكولاي: "حاليًا نطلب من الشركات مدنا بالإصدارات الجديدة للعطور في أقرب وقت ممكن، لأنه عند وصول العطر إلى "أوسموتيك"، نقوم بحفظه. ونستمر في كتابة تاريخ العطور" "أوسموتيك" تحفظ أيضًا على التركيبة الأصلية لمئات العطور، التي تصل إلى عشرين أو ثلاثين مكونًا كيميائيًا، تمزج معًا للحصول على رائحة محددة، لكن شركات العطور هي من تُعدُّ طبعًا صاحبة التركيبة الأصلية.

تقول خبيرة العطور سيجولين رولان: "إنها تراث لا ينبغي أن يختفي، إذا حافظنا فقط على العطر في شكل سائل، سيتعرض للتلف وقد يختفي في يوم ما، ولكن ما يبقى هو تركيبة العطر، أي ما صنعه صاحب العطر".

يتم تخزين العطر في ظروف خاصة جدًا للحفاظ على رائحته الأصلية لطول مدة ممكنة، كما تخزن تركيبته الأصلية مع الحرص طبعًا على سريتها.

ودار الأسموتيك لمن لا يعرفها عبارة عن مكتبة للروائح، تضم بين رفوفها مجموعة حية من العطور، حيث يتمكّن الزائر من شمّ عطور قديمة لم يعد لها وجود اليوم، واكتشاف عطور أخرى تاريخية أعيد إحياؤها من جديد، دون التخلف عن معرفة آخر ما صدر في ميدان العطارة.

وظلت فكرة إنشاء دار لجمع وحفظ العطور القديمة، محل نظر ودراسة لمدة عشر سنوات من قبل «جون كارليو»، رئيس اللجنة التقنية للجامعة الفرنسية للعطارين، ولم تصبح الفكرة حقيقة ملموسة إلا بعد أن انضمت إليه الهيئة الفرنسية للعطارين، وغرفة التجارة والصناعة بمنطقة فرساي، ويعد العطار «جون كارليو» من بين المبدعين القلائل في ميدان العطور الفرنسية، وقد ظل ولا يزال منذ ما يزيد عن نصف قرن يتحف العالم بإبداعاته في مجال العطور الراقية، وقد ولدت على يديه أغلب عطور دار «جون باتو» الشهيرة مثل: «بارفيوم دو باريس» و«باتو و«لاكوست» و«فور افر»، كما قام بإحياء عطور أوروبية قديمة وعطور أخرى يعود تاريخها إلى العهد الإغريقي القديم، وتناول المعرض العديد من المحاور التي تخص تاريخ الطيب العربي، وخصص أبرزها للتحدث عن المواد الأولية التي تدخل في صناعة العطر العربي من أزهار ورياحين وأشجار وإفرازات حيوانية، إضافة إلى ما يعرف بـ«كيمياء العطر» ودور المسلمين في تأسيس علم الكيمياء، واختراع الآلات التي ساهمت في تطوير صناعة العطور، وانتشارها في العالم منذ العصور الإسلامية الأولى، وحتى نشأة الكيمياء العضوية في القرن التاسع عشر، والتي تم بموجبها تعويض الروائح الطبيعية بالروائح الاصطناعية، ومن ثم انتقال العطر من الشرق إلى الغرب، وإلى فرنسا تحديدًا التي تعد اليوم مركز صناعة العطور الحديثة في العالم.



فهرست الأفكار وتأريخ الفكرة

وأثر ذلك على تنمية التفكير لدى الفرد والمجتمع



محمد جمعة عبدالهادي موسى

باحث دكتوراه، كلية الآداب، جامعة القاهرة

إن الإنسان كينونة مفكرة متأملة في فطرتها الأولى، على اختلاف بين البشر في قوة هذه الفطرة واستجابتها، ولا ينمو الفكر بشكل طبيعي قادر على استلهام المقدرة البشرية التي استودعها الله في عقل الإنسان وكينونته إلا عبر سلسلة شروط، من أهمها، توفر فضاء التعبير عن الأفكار ومناقشتها وتطويرها وبحث قيمتها وحتى الاختلاف حولها.



كما خص الله الإنسان بالعقل، والعقل معمل ضخم للتفكير، وكم أثنى الله تبارك وتعالى على المتدبرين والمتفكرين بخلقه وما في كونه من عظمة وإبداع. فإذا كان التدافع بين البشر سنة كونية. قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1]: فهو كذلك في عالم الأفكار؛ بل تبدو أهميته في عالم الأفكار أكثر خطورة، بل وحتى التدافع بين البشر هو ثمرة للتدافع بين الأفكار في غالب الحالات. لذا فتش في حالات التعثر على صعيد الإنجاز أو التطور الاجتماعي أو السياسي أو النمو الاقتصادي، وسترى أن مصاعد التغيير الإيجابي تبدأ من الأفكار.

و"فهرست الأفكار وتاريخ الفكرة؛ وأثر ذلك على تنمية التفكير لدى الفرد والمجتمع"، موضوع نتناوله في ضوء أهميته بدراسة قيمته عند المفكرين، ثمار فهرست الأفكار على تنمية التفكير، دور الأسرة في فهرسة الأفكار وتنمية التفكير لدى الفرد، وفهرست الأفكار وأثره على المجتمع.

فهرست الأفكار وأهميته

بناء على هذا الأساس فيما تقدم من أهمية تاريخ الفكرة تقدم ذلك البحث، ليتناول قيمة الفكر[2] وأهمية حفظنا للأفكار ودورنا في التأريخ لها في طيات فهرست[3] تُجمع فيه؛ إذ كلٌ منا لديه أفكار عديدة؛ المتاز منها ما يُطبق والآخر قد يصبح مهملاً، أو قد يصبح في أدراج الذكريات، ولكن الإنسان ينسى إذا لم يُسجل هذه الأفكار.

وقيمة تسجيلها تتمثل في كونها جزءًا من مسيرة حياته بكل ما فيها، والتي قد تختلف ظروفها من حين لآخر.

ومن ثم فإن الرجوع إلى الاطلاع على أفكارك القديمة يحتاج الأمر إلى مدونة لها ولو على الأقل أن تضع "فهرست" لأفكارك؛ من القديم إلى الحديث يساعدك على التفكير وإعادة النظر مرة أخرى في أمورك، والتي قد تكشف لها حلول هنا أو هناك، خاصة أننا لا نكف عن الزهو بماضينا[4]، ولعل هذه هي الأبجدية الأولى نحو التفكير العلمي لإنماء التفكير نحو حياتك: فالتفكير العلمي هو أرقى أنواع التفكير؛ لأنه محكوم بالتجربة، فهو ينبني أساسًا على ما يسمى بفعل الفكر[5]، والذي يبدأ سياقه من الشعور بمشكلة ثم افتراض أحد الفروض أو أكثر لحل هذه المشكلة، ثم تعمل التجربة على أساس الفرض، وتدون المشاهدات التي تؤدي عملية تحليلها إلى نتيجة عامة، وهي نتيجة قد تدعم الفرض أو تعدله أو تدحضه، ومن هنا تتجلى قيمة إنشاء فهرست الأفكار وتدوين الفكرة معًا[6].

كما أن فهرست الأفكار لا يقتصر على الفرد فحسب، وإنما يمكن أن يمتد إلى مراكز التفكير الإستراتيجية[7]، إن فهرست الأفكار لدى الفرد ولدى المؤسسة، ستتجلى قيمته وكأنه حكمة مؤثرة، وفائدة طيبة قيمة في حقل ما دونت فيه، وهو ما يبرهن على قيمة تخطيط ذلك الفهرست: فالحكمة ضالة المؤمن، وهو أحق بها أين وجدها، وها هو العالم المعرفي الجديد بكل ما يحمله[8].

كما أن لفهرست الأفكار صلة بنشأ فقه الواقع ليواكب المتغيرات؛ إذ هو سجل للحقائق ومخزن للوثائق الحياتية وتجاربها المدونة؛ فلا بأس على من رأى غير ما كان يرى حين تتوافر لديه حقائق أو وثائقُ تدعوه لمراجعة مواقفه في ضوء ما هو مسجل بها، وهو ما اختطته يده، ومن هنا تبرز قيمة ما يحتويه فهرست الأفكار وقيمة التأريخ للفكرة[9].

فهرست الأفكار وقيمته عند المفكرين

إن قيمة فهرست الأفكار ستبدو لنا ظاهرة ومتضحة إذا علمنا أن أي خبرة نكتسبها، وأي تجربة نتعامل بها ونتفاعل معها تتبلور بالفكرة التي ارتسمت في أذهاننا عنها، فهي تبدأ من دواخل ذواتنا، وهي ثمرة تفكيرنا.

وتُستمد قيمة الفهرست من كون التفكير فريضة على الإنسان العاقل، إذا فكر وأصاب بتفكيره اكتسب حسنتين، حسنة التفكير، وحسنة الصواب، وإذا فكر ولم يصب اكتسب حسنة التفكير، كما أن المفكرين هم طلائع الأمم، والأمم لا تتقدم ولا ترقى إلا بفضل مفكريها، والمفكرون هم الذين يفكرون في مصالح أممهم ومصالح أوطانهم[10]، كما أن تفكيرنا الفردي هو في النهاية تحقيق لوجودنا[11].

ثمار فهرست الأفكار على تنمية التفكير

وحسبك أن تظن أن الثمار الحقيقية للتعلم هي المعلومات المتراكمة نتيجة دراسة فروع المعرفة فحسب، وإنما الثمار تجنيها أيضًا من العمليات الفكرية الناتجة عن دراسة هذه المعارف؛ ولهذا لابد أن نعزز تنمية



التفكير من خلال إثارة اهتمام المتعلمين بقضية التفكير وتعويدهم ممارسته من خلال المناهج التعليمية، وتدوين أفكارهم التي يستخلصونها من جراء هذه المعرفة، وعدم ترك أي فكرة يخرج بها من جراء ما اطلع عليه من معارف بالقراءة والاستماع والكتابة مع إثارة التفكير والتأمل إلا ودونها؛ حتى إذا تعلمت أفضل، فكرت أفضل، ومن ثم ازددت ذكاءً[12].

إن فهرست الأفكار المدونة في ذاكرتك أو تلك التي كتبتها يداك في دفاترك لهي مُعين لك على التفكير الجاد، الذي لا ينحصر في علاج المشكلات واتخاذ القرارات فقط، بل يقود إلى النجاح في الحياة وتحقيق ما يطمح إليه الإنسان، فشحذ العقل بالتفكير النشط المرتب لهو دافع قوي لاستنفار جميع الطاقات الكامنة للنهوض والتقدم، ومن ثم السعي نحو بلوغ الأهداف.

على أن فهرست الأفكار لن يكون إلا إذا صار هنالك منهجًا في تعليم التفكير في هذا العصر، وأن يكون هنالك اهتمام كبير بالتفكير وباستخدام الطاقات الذهنية في تعليل ونقد الأحداث والربط بينها وتوظيفها التوظيف الصحيح في ضوء فهرست الأفكار النابع من خزانة التفكير لدينا[13] من فهرست أفكاره.

في الوقت ذاته لابد أن نعلم أن فهرست الأفكار يمكننا الاطلاع عليه بأنفسنا ومن الممكن أن نُطلع عليه الآخرين، وإذا خلصنا إلى أن كل تفكير فردي هو الذي يعلن تميزنا عن الآخر، وهو الذي يولد ماهيتنا باعتبار أن الإنسان يعيش بتفكيره الفردي في بوتقة ثقافية كلية تلزمه التبادل مع الآخر ولاعتبار ثان مهم، وهو أن الإنسان مدني بالطبع بتعبير ابن خلدون، وذلك أن تفكيره الفردي يدخل عن شخصيته، ولكنه لا يخرج عن إلزام ثقافي اجتماعي وكلي، ومن هنا تتبين قيمة فهرست الأفكار وقيمتها بين الأفراد[14].

كما أن قيمة فهرست الأفكار ستتجلى مباشرة في تنمية التفكير؛ فالتفكير وإن كان بالأصل موهبة ربانية من الله - عز وجل - إلا أن الإنسان يستطيع أن ينمي تلك الموهبة، ويسهم في تطويرها وتنشيطها، كي يستفيد من نعمة العقل بالتفكير السليم في ضوء تاريخ أفكاره المفهرسة. فالتفكير عبارة عن مجموعة من المهارات من الممكن للفرد أن يكتسبها ويتقنها عن طريق التعلم والتدريب ومن طرق ذلك الفهرسة لأفكاره.

كما أنها إحدى مهارات التفكير التي لا بد من غرسها وتعليمها لأبنائنا منذ الصغر من خلال مراحل تعليمهم العام، إما بدمجها في جميع المواد الدراسية بأسلوب جذاب ومتقن، وبآلية علمية تمكن المعلم من تفعيل مهارات التفكير لدى الطالب للوصول للمعلومة والاستفادة منها. وهذا يتطلب إعداد المعلم لذلك أو بتعليم مهارات التفكير كمادة مستقلة بمنهج متكامل يلازم الطالب طيلة مراحل تعليمه؛ فيتمكن من القدرة على التفكير بمهارة عالية مبنية على الأسس العلمية للتفكير، وبذلك نكون قد أحدثنا نقلة نوعية متميزة في التعليم .. وسيتم القضاء على السطحية في التفكير بسبب الحفظ المجرد عن الفهم والتفكر والتدبر، كما سيتم التحرر والبعد عن الجمود والركود في استخدام المعلومات والاستفادة منها، وقد أحسن من قال: (لا يمكن للمرء أن يحصل على المعرفة والعلم إلاّ بعد أن يتعلم كيف يفكر)[15].

إذ إن قدرتنا على التفكير وفهمنا لما نقوم به ونعمله عن وعي وإيمان، هو بالنسبة لنا الأمر الأكثر أهمية لكل ما نقوم به من أعمال عقلية كانت أم عملية[16].

دور الأسرة في فهرسة الأفكار وتنمية التفكير لدى الفرد

وإذا كان البعض ليست لديه القدرة على القيام بفهرسة أفكاره وتأريخها، فللأسرة دور كبير في مساعدته على القيام بذلك كإحدى مهارات تعليم التفكير.

وإذا ما تحدثنا عن القيمة التأريخية لفهرست الأفكار في ضوء المحيط الأسري، سيتجلى لنا قيمة دور الأسرة في تعليم التفكير لأفرادها، وكون ذلك من الأساليب الفاعلة في قدرة الأطفال على التكيف الاجتماعي عن طريق حفزهم على التفكير، وتشجيعهم عليه.

كما تبرز قيمته حول ما يدور من المشكلات اليومية التي تنشأ كل يوم نتيجة الاحتكاك بالآخرين والتعامل معهم، وقد يصير نتيجة لذلك مفكرًا، ولكن مع الأخذ في الحسبان أن المفكر لا تكمن أهميته في كونه يقول الحقيقة، أو ينجح في تفسير وشرح والبرهنة على الحقائق المعترف بها أو المسلم بها على أنها كذلك، بل قد يجانب الصواب في بعض الأحيان، وقد يخطئ في كثير من آرائه، بل تكمن أهميته في تقويماته وتقديراته[17] التي تبرز نتيجة فهرسة أفكاره وتراكمها في سجله دائمًا.

ومن ثم فإن مساعدته في تدوين أفكاره بعمل فهرست لها؛ سينمي تفكيره في حل مشكلاته بطرح البدائل دون فرض الحلول، وسيمكنه على المدى البعيد من مواجهة مواقف مماثلة مع الآخرين خارج النطاق الأسري الذي تهيمن عليه الوصاية، والتي يكون خلالها غير قادر على أن يساهم بجد في حل المشكلات الأساسية التي تعرفها ثقافة ما في مرحلة تاريخية من تطورها، مثلما هو الأمر في الثقافة العربية المعاصرة[18].

فهرست الأفكار وأثره على المجتمع

ولما كان الإنسان اجتماعيًّا بطبعه، وهو لا يمكنه أن يعيش بمفرده، بل إنه يؤثر ويتأثر[19]؛ فإن فهرست الأفكار سيكون له دور فعال على تقويم آلاف الأفراد على التعامل مع مشكلاته بالأسلوب المتبع في حل المشكلة، كما أنه أكثر قدرة على التعاون والمشاركة وتبادل الأدوار واتخاذ الأصدقاء والدفاع عن حقوقه والمطالبة بها والعمل على تحقيقها في ضوء الاطلاع على فكره وأفكاره كأدوات له[20].

وإذا كان فهرست الأفكار إحدى مهارات التفكير

المختلفة، فلما لا نُتخذ مقياسًا ومُختبرًا في معرفة الأفراد الذين يُبدون قدرة ملحوظة في السلوك الاجتماعي في المدرسة وبين أولئك الذين يفتقرون إلى مثل هذه القدرة في ضوء ما يدونه من أفكار بفهرسته[21].

فإذا ما تعلموا تدوين أفكارهم في فهرست خاص بهم كمهارة من مهارات التفكير يمكن أن يرتفع مستواهم في ذلك إلى مستوى من هم أكثر كفاية وقدرة منهم ممن هم في مثل سنهم؟ وإن كان تعلم كيفية عمل فهرست الأفكار كإحدى مهارات التفكير في حل المشكلة، فإنه سيُفيدنا فعلاً ويرشدنا إلى الأسلوب الأمثل في حلها..

إنه الحل في فهرست الأفكار: إذ إننا لا نترك أفكارنا تسير حرة طليقة وإنما نرتبها بطريقة محددة وننظمها عن وعي[22].



الهوامش: تتضمن (المصادر والمراجع) :

(1) سورة البقرة الآية رقم :251.
(2) فكر: الفِكْرُ: التأمل، والاسم الفِكْرُ والفِكْرَة والمصدر الفَكْرُ بالفتح. الجوهري (ت 393هـ): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، (1407 هـ/1987 م)، ج2 ص 783.
(3) فِهْرِسْتُ مُعَرَّبٌ، من فِهْرِس الكِتَابُ الَّذِي تُجْمَع فِيهِ الكُتُب؛ وَلَيْسَ بِعَرَبِيٍّ مَحْضٍ ولكنه مُعَرَّبٌ فِهْرِسْت. ابن منظور (ت711هـ) : لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414 هـ، ج6 ص 167، الفيروزآبادي (ت817هـ): القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، (1426 هـ/2005 م)، ج1 ص 564.
(4) عبدالرحمن أبو عوف: التفكير العلمي، مجلة أدب ونقد، مصر، القاهرة، العدد: 5، تاريخ النشر، 1 يوليو1984 م ص 130.
(5) أنيل توفيق: ماهية التفكير العلمي، مجلة الأديب، لبنان، العدد9، تاريخ النشر: 1 سبتمبر 1973 م ص22.
(6) أنيل توفيق: ماهية التفكير العلمي، ص 22.
(7) د.علي بن شويل القرني: غياب مراكز التفكير وتأثيراتها المجتمعية، جريدة الجزيرة السعودية، السبت18 ذو الحجة1433 هـ/3 نوفمبر 2012 م، العدد14646 .
(8) عبدالمجيد الطبري: التفكير الإبداعي جريدة الجزيرة السعودية، السبت 02 شعبان 1435هـ / 31 مايو 2014 م، العدد 15220 .
(9) توفيق فريرة: ما لا يقبل التفكير فيه مجلة الإتحاف تونس، العدد: 136، تاريخ النشر: 1 فبراير 2003م، ص 3130 -.
(10) عبدالله زكريا الأنصاري: التفكير والمفكرون مجلة البيان، الكويت، العدد: 82، تاريخ النشر: 1 يناير 1973 م، ص 4.
(11) شكري رويسي: التفكير والحرية، مجلة الإتحاف تونس، العدد: 242، تاريخ النشر: 1 ديسمبر 2014 م، ص6.
(12) مها زائد الخالدي: التفكير وتطور النمو العقلي، جريدة الجزيرة السعودية، (الإثنين 07 جمادى الآخرة 1435هـ / 7 أبريل 2014 م)، العدد: 15166 .
(13) ج. والاس: فن التفكير، ترجمة: عبدالكريم ناصيف، مجلة الآداب الأجنبية سوريا، العدد: 27، تاريخ النشر: 1 يوليو1981م، ص88 (عن كتاب "الإبداع"، الناشر: ب.ي.فرنون بنجوين).
(14) شكري رويسي: التفكير والحرية، مجلة الإتحاف تونس، العدد: 242، تاريخ النشر: 1 ديسمبر 2014 م، ص 13.
(15) محمود بن عبدالله القويحص: أهمية التفكير، جريدة الجزيرة السعودية (الثلاثاء 02 محرم 1435 هـ/ 5 نوفمبر 2013 م)، العدد15013 .
(16) محمد عبدالرحمن عاص: دور الأسرة في تعليم التفكير، جريدة الجزيرة السعودية، (الإثنين30 شوال 1422 هـ/14 يناير 2002 م)، العدد :10700.
(17) محمد الهادي الهري: التفكير الرمزي، مجلة الإتحاف، تونس، العدد: 55، تاريخ النشر، 1995 م ص17.
(18) محمد وقيدي: حول مفهوم الواقع في التفكير العلمي المعاصر، مجلة الأقلام، المغرب، العدد: 56، تاريخ النشر :1 أبريل 1982 م ص27.
(19) أنيل توفيق :ماهية التفكير العلمي مجلة الأديب، لبنان العدد:9 تاريخ النشر : 1 سبتمبر 1973 م ص22 23-.
(20) محمود البش: التفكير الفلسفي في المدارسة والفهم: مسألة العمل، مجلة الإتحاف، تونس، العدد: 50، تاريخ النشر، 1 يونيو 1994 م ص6.
(21) إيميل توفيق: العقل الجدلي وتطور التفكير، مجلة الأديب، لبنان العدد4، تاريخ النشر: 1 أبريل 1956 م، ص4.
(22) عبدالرحمن أبو عوف: التفكير العلمي مجلة أدب ونقد، مصر، القاهرة، العدد: 5، تاريخ النشر، 1 يوليو1984 م ص 133.



سيميائية الصورة (الطفل السوري الغريق) أنموذجًا

شيخة عبدالله عبدالمحسن الخالدي

الدمام

توثق الصور لحظات مهمة فتدخل التاريخ من أوسع أبوابه، ولهذا شكلت الصورة مكانة مهمة في حياة البشر ، وبصورة خاصة في النواحي الاجتماعية؛ ما للصورة من أهمية في توثيق التاريخ وحفظ الذكريات وربط الحاضر بالماضي والمستقبل.

واليوم اقتحمت الصورة حياتنا من دون استئذان من خلال الإعلام، ومن نافذة وسائل التواصل الاجتماعي التي دخلت عالمنا بشكل مفاجئ، وأصبح للصورة حضورا قويًا في السنوات الأخيرة، بل وأخذت تنافس الكلمة المكتوبة في جذب أنظار المتلقي. ولا عجب أن قيل: إن "الصورة تغني عن ألف كلمة" فقد مالت الكفة في الوقت الراهن إلى الصورة؛ والسبب أن لغة التواصل اليوم تقوم عليها، فهذا العصر يمكن أن يطلق عليه بعصر الصورة، فقد أصبحت عامل جذب للسلع أو الأحداث المختلفة سياسية كانت أو رياضية أو اقتصادية، فهي تحتوي على معنى قوي، وتبعث برسائل مؤثرة وقوية للتأثير على المتلقي ، وجذب حواسه.

ومصطلح الصورة يقصد به ما يُلتقط بواسطة آلة تصوير (الكاميرا) لأشخاص، أو أماكن مختلفة، أو مناظر طبيعية، أو أحداث متنوعة، وما تحدثه هذه الصور من أثر على نفسية المتلقي. فالصورة تُعدُّ دليلا دامغا على حقيقة حدث ووقوعه، وتكون ذكرى خالدة للأبد سعيدة كانت أو تعيسة.

انطلاقًا من هذه المقدمة النظرية سنسعى في هذه الدراسة إلى قراءة الصورة وتحليل مكوناتها، واتخذنا صورة "الطفل السوري الغريق" أنموذجًا لقراءتها وتحليلها سيميائيًّا.

أولاً: وصف الرسالة

المرسل: الصحفية التركية (نيلوفير ديمير).

الرسالة: عنوانها "الطفل السوري الغريق".

وهي عبارة عن لقطة ثابتة مكونة من صور متتابعة.

تاريخها: يوم 2 سبتمبر 2015م.

انتشرت الصورة بشكل كبير في شبكات التواصل الاجتماعي، وعرضت في المواقع الإخبارية على شبكات الإنترنت.

نوع الرسالة: صورة فوتوغرافية ذات بعد إنساني وسياسي واجتماعي.

محاور الرسالة: جاءت لقطات الصور على النحو التالي:

الصورة الأولى: جثة طفل نائم على بطنه ومُلقى على رمال شاطئ البحر.

الصورة الثانية: جندي بحري من خفر السواحل التركية يحمل جثة الطفل.

أسباب التقاط الصورة:

التقطت الصورة عند قيام المصورة التركية بتغطية أوضاع اللاجئين السوريين، الذين انتقلوا عبر قوارب بحرية من تركيا إلى اليونان، وفي أثناء التغطية تفاجأت بوجود طفل مرمي على شاطئ البحر. فالمصورة كانت تسعى من خلال هذه الصورة إلى: كشف الغطاء عن مأساة الشعب السوري، ولفت أنظار العالم إلى معاناة هذا الشعب، وفضح النظام السوري الجائر والمتوحش الذي شتَّت وفرَّق شعبه الذي لم يرحم الكبير ولا الصغير.

البث: تم إعلان ونشر الصورة في فترة التقاطها، مباشرة بعد انقلاب المركب الذي يقل الطفل وعائلته وغرق من فيه، وقد نشرت هذه الصورة على مواقع التواصل الاجتماعي والمواقع الإخبارية.

التأثير: ويتمثل في كون هذه الصورة أثارت الغصة في الحلق، وهزت العالم بأسره، وأثارت صدمة نفسية عنيفة لدى كل من شاهدها، وسؤال يطرح نفسه: كيف يقوم نظام دولة بمحاربة شعبه وتشريده ومن ثم المشاركة في قتله.

هوية الصورة الفنية

تنتمي هذه الرسالة إلى الصورة الفوتوغرافية الملونة، وتبرز أهميتها من خلال قوة الألوان الموجودة بها التي تألفت وتكونت منها، و هي تمازج ما بين الألوان الباردة والحارة.

سنن الأشكال والألوان (الإبداع الجمالي في الصورة)

هذه الرسالة هي عبارة عن صور ثابتة وجاءت متتابعة ومكملة لبعضها البعض.

الصورة الأولى: الطفل الغريق

الصورة الثانية: الجندي البحري.

ويتضح التجانس والتكامل الذي جاء من خلال الألوان المتعددة ما بين الأحمر والأزرق والأخضر، فهذا التنوع والتمازج بينها هو ما حقق الترابط، وهو ما ساعد على قراءتها بشكل واضح، ومن ثم التأثير على المتلقي أو المشاهد وهذا ما يعرف بالوحدة الجمالية في الصورة.

السنن التشكيلية:

ويتضح في هذه الفقرة العناصر التي ساهمت في تكوين وتشكيل هذه الصورة وهي كالآتي:

شاطئ البحر

الطفل

الجندي البحري

هذا التكوين أو التشكيل يوحي ويبين مدى إجرام وطغيان النظام السوري، والإرهاب الذي يُمارس في حق هذا الشعب، مما جعله عرضة للنزوح والترحال، فيد الغدر والخيانة طالت هذا الشعب الأعزل، والهروب بحرًا كان وسيلتهم للخلاص وللفرار من أجل إنقاذ أرواحهم، فهم يلوذون بأنفسهم طلبًا للجوء والمساعدة من الدول الأخرى، لكن جاءت نهايتهم بالموت غرقًا.

مجال البلاغة والرمزية في الصورة:

احتوت الصور على عدة علامات بصرية، التي تشير إلى دلالات معينة وهي:

البحر: علامة بصرية تدل على الهدوء والصفاء والغموض، والانتقال والغربة، ويدل أيضًا على الغدر والخيانة. فالبحر بصفائه وهدوئه تتقلب أحواله كما تتقلب نفوس البشر وأحوالهم، وهو مثل بني آدم يغدر ويخون وينقلب على من يدخل في عالمه، وكما في الأمثال "البحر غدار" من يدخل فيه لا يخرج سالمًا أو حيًّا، وهذا ما حدث للطفل الصغير وعائلته، الذين هربوا من ظلم بلادهم، ورحلوا بحرًا في رحلة يلفها الغموض، فهم لم يسلموا من طغيان نظامهم، ولم يسلموا من أهوال البحر وتلاطم أمواجه، فماتوا غرقًا في سبيل الحصول على حياة آمنة مطمئنة، يسودها الأمن والعدل والاستقرار، وهذا ما افتقدوه في الوطن.

الطفل: علامة بصرية تدل على الضعف والبراءة، واليتم والضياع، والوحدة والخوف، فمنظر انكباب الطفل على بطنه يوحي في أول الأمر بأنه نائم، ولكن هو في الحقيقة جثة هامدة، ويرمز إلى قتل الحياة والسعادة، وإلى موت القلب وانعدام الضمير، ويرمز لخذلان البشر وخيانتهم، وتدل على انتصار الشر على الخير، والباطل على الحق، والقوة على الضعف، وانتصار التشرد والتشتت، على التآلف والتجمع، وانتصار الخوف على الأمان.

الجندي: علامة بصرية تدل على القوة والسلطة، والشجاعة والمراقبة ،وتقديم العون والمساعدة، والحماية والإنقاذ. ويتضح أن وجه الجندي ارتسمت عليه علامات الحزن والرهبة، والقلق والارتباك ونظرات عيونه وهو حامل لجثة الطفل، كانت ترمز إلى العطف والشفقة، والألم والدهشة، والحسرة. ويبدو أنها مشاعر مختلطة على مصير هذا الطفل اللاجئ.

زاوية التصوير: جاءت زاوية التقاط الصورة على المستوى نفسه، أي ليست بأعلى ولا بأسفل؛ وذلك للدلالة على تقديم الحقيقة ونقلها كما هي.

المعنى التقريري والمعنى التضميني:

كشفت هذه الصورة عن خبايا الحياة في سوريا، والأحداث التي تعيشها، ومدى جبروت النظام السوري، وانتهاكه لحقوق شعبه، والإرهاب الذي يُمارس عليهم بجميع صوره وأشكاله: من ترويع وتخويف وقتل وتعذيب وتدمير. فالصورة تعبِّر عن قتل الإنسانية وموت الضمير والقسوة والوحشية في معاملة البشر، وإن أذية الإنسان وقتله جريمة يندى لها الجبين؛ لفظاعة هذا الجرم، إلا أنها قد بلغت أوجها في عهد النظام السوري الجائر والمتسلط الذي عكسته هذه الصورة.

حوصلة وتقييم:

دخلت الحرب في سوريا عامها الخامس، وهذه الصورة تجسد واقع الشعب السوري، الذي يعاني من ويلات هذه الحرب، و ما يواجهه من الظلم والتنكيل. لأن الموت يفتك بهم في كل لحظة، والمصورة أرادت من خلال هذه الصورة أن تروي حكاية؛ نعم حكاية عنوانها غصة! فمنظر الطفل وهو مُلقى على شاطئ البحر يجلب الغصة والبكاء، ويوحي بأن وراء هذا الطفل حكاية التي بدأت بهروبهم بحرًا عبر رحلة مليئة بالغموض لطلب اللجوء والحماية، ولكن ماتوا غرقًا في سبيل الحصول على حياة مستقرة!

هذه الصورة تحمل بعدًا سياسيًّا وإنسانيًّا واجتماعيًّا، أرادت المصورة من خلال رسالتها أن تبين للعالم أجمع مدى استبداد النظام السوري ووحشيته، التي طالت الكبير، ولم يسلم منها الصغير، وهذه الصورة تختزل معاناة الشعب السوري ومأساته، وتجعل اللسان ينطق بالرثاء.

إذن نجد أن الصورة الفوتوغرافية صادقة؛ لأنها تترجم الواقع السوري «فالصورة الفوتوغرافية تمدنا بالبراهين نسمع عن شيء ما لكننا في شك منه، سيبدو مبرهنًا عليه حين ترى صورة له. واحدة من منافع الكاميرا أنها تسجل المتورطين في الجرائم»[1].

هذه الصورة جعلت المتلقي يعيش الحدث، وقدمت أسرارًا مخبئة، «تقدم معلومات حقيقية ومهمة عن العالم»[2] والصورة تعد شهادة تدخل في سجلات التاريخ السوري؛ لأنها تنقل الواقع بدقة متناهية.

والمصور الفوتوغرافي يبحث ويفتش عن المآسي، ويطارد المعاناة ويكشف الحقائق، وقد نجحت المصورة إلى حد كبير في أداء مهمتها؛ فقد لفتت أنظار العالم إلى قضية سوريا والرعب الذي يعيشه هذا الشعب.

«يكتشف رعب العالم بشكل رئيسي من خلال الكاميرا: بوسع الصور أن توجع ، وهي تفعل ذلك حقًّا»[3].

وننهي هذه الدراسة بالملاحظات التالية:

1 – نجد أن الصورة أبلغ من الكلمة، وأقدر على التأثير في المتلقي وتوصيل المعنى والرسالة إليه؛ والدليل على ذلك أن قضية سوريا على الرغم من كونها معروفة للقاصي والداني إلا أن الصورة لفتت أنظار العالم إلى الوضع المأساوي الذي يعيشه هذا الشعب.

2 – نرى أن الصورة تحتوي على لغة، وهي ما يمكن أن نطلق عليها بلغة التأثير؛ فقد أثَّرت في العالم أجمع على مختلف أديانهم ولغاتهم ومشاربهم.

3 – يتضح أن المصوِّر قد يحل أزمة أمة ويعالج جراحها، وهذا ما ينطبق على المصورة التي وثَّقت هذه المأساة التي كسبت تعاطفًا كبيرًا من العالم.

الهوامش:

1. – نجد أن الصورة أبلغ من الكلمة، وأقدر على التأثير في المتلقي وتوصيل المعنى والرسالة إليه؛ والدليل على ذلك أن قضية سوريا على الرغم من كونها معروفة للقاصي والداني إلا أن الصورة لفتت أنظار العالم إلى الوضع المأساوي الذي يعيشه هذا الشعب.

2. – نرى أن الصورة تحتوي على لغة، وهي ما يمكن أن نطلق عليها بلغة التأثير؛ فقد أثَّرت في العالم أجمع على مختلف أديانهم ولغاتهم ومشاربهم.

3. – يتضح أن المصوِّر قد يحل أزمة أمة ويعالج جراحها، وهذا ما ينطبق على المصورة التي وثَّقت هذه المأساة التي كسبت تعاطفًا كبيرًا من العالم.



الثقافة والتثقيف الذاتي لدى "سلامة موسى"

د. رضوى زكي

باحثة أكاديمية - مصر

استهل الكاتب والمفكر المصري الراحل سلامة موسى (1887-1958م) في واحد من أهم وأبرز مؤلفاته "التثقيف الذاتي أو كيف نربي أنفسنا" -والذي صدرت له ستة طبعات كان أولها منذ ما يقرب من السبعين عامًا؛ عام 1946م- بمقدمة تُعنى مباشرة بهدف وغرض هذا الكتاب؛ ألا وهو "تخريج الرجل المثقف"، بل ويعرج مباشرة إلى أهمية "الثقافة" بمفهوم واسع وشامل يتعدى معناها ليشمل فكرة أوسع وأرحب كأسلوب لحياة الشاب المصري العصري، إذ إنه يوجه هذا الكتاب بالخصوص لفئة الشباب في تلك الفترة من تاريخ مصر؛ نهاية عهد الملكية والاحتلال البريطاني لمصر.

وقد لجأ سلامة موسى في مقدمة كتابه لتوضيح منهج للقراءة للانتفاع بهذا الكتاب؛ إذ إنه قام أولاً بمعالجة قيم ومبادئ وأفكار أولية، ثم ما لبث أن استكمل أهم مقومات التثقيف الذاتي بدراسة اللغة العربية ابتداءً، مرورًا بدراسة العلوم والسياسة والتاريخ والفلسفة والدين والفنون، وانتهاءً بوضعه لبرنامج للتثقيف الذاتي.

التعليم والمجتمع

طرح الكاتب عدة قضايا جديرة بالتأمل ليومنا هذا، ومنها على سبيل المثال جدوى التعليم المدرسي والجامعي وأثره على حياة الفرد، ذلك أن هذا التعليم النظامي لا يشجع المواهب ولا القدرات الخاصة لكل طالب، بل والأكثر أنه تعليم تلقيني يقوم على تعليم المعرفة دون امتلاك للوسيلة أو المنهج أو الطريقة لاكتساب المعارف والتزود منها، وهو للعجب من أكثر ما نشكو منه اليوم عن حال التعليم في مصر!. ولهذا السبب كان المجتمع وما يقدمه من ضروب المعارف، أدبًا وفنًا وعلمًا، الأثر البالغ على ثقافة الفرد، ومن ثم ثقافة المجتمع بأكمله؛ فالمجتمع "يربينا" حسب قول سلامة موسى، فالعديد من العلماء والأدباء البارزين لم يتلقوا قسطًا كافيًا من التعليم، ولكنهم تركوا بصمات لن تمحى من تاريخ التراث الإنساني، كداروين، وبرنادشو، والأديب المصري عباس محمود العقاد.

مسئولية التثقيف الذاتي للفرد وأهميتها ومعوقاتها

يتساءل الكاتب بتعجب واستنكار كيف للفرد أن يقضي ما تبقى من عمره بعد تخرجه من الجامعة في بداية العشرينيات على ما اكتسبه من معارف مرحلة الدراسة الجامعية وما سبقها، فيشبه الكاتب ذاك الشخص المنطوي على حاجته للكسب وحسب بأنه يعيش حياة غير ذات مغزى ودلالة، ولا يختلف بيولوجيًا عن الكائنات

الأخرى الأدنى درجة. فالثقافة ضرورة أساسية لتطور الفرد والمجتمع، بل ومكونًا أساسيًا للسعادة الشخصية للفرد: فالفهم أعظم أنواع السعادة، والمعرفة هي السبيل إلى الحب. وفي نطاق المجتمع فالجمهور غير المثقف هو أعظم الوسائل استغلالاً للمستبدين والمستعمرين؛ لأنه سريع الانقياد، شديد التأثر بالوعود البراقة والكلمات الرنّانة. وهنا تظهر قيمة أوعية المعرفة كتابًا أو جريدةً أو مجلة؛ فإن عاش المجتمع متخذًا من القراءة والمطالعة عادة اجتماعية لاتخذ الفرد قراراته المصيرية وفقًا لوعيه وفكره.

وقد أصبحت مسؤولية التثقيف الذاتي أشد طلبًا بعد زيادة أوقات الفراغ وتطور العلم. ولكن هناك بعض المعوقات التي تقف حائلاً في سبيل تلقي المعارف والنهل من بحر الثقافة كالعادات الشخصية للفرد، وقراءة الغث من الجرائد والمجلات، وعدم التكافؤ الثقافي بين أفراد العائلة الواحدة، وتعارض تحصيل العيش مع تحتاجه عملية التثقيف من وقت ومال. ويعد أبرزها وأشدها تأثيرًا المعارضة المجتمعية لبعض ضروب المعرفة والرقابة على حرية الفكر.

الثقافة: ماهيتها وغايتها

اختلف الكاتب في إيجاد تعبير محدد لماهية الثقافة ومدى اختلاطها بالحضارة؛ فقد رأى أن الثقافة هو التراث البشري الذي تكوّن فيما لا يقل عن خمسين ألف سنة. والحضارة هي واقع الثقافة. ولا يلزم أن يكون واقع الثقافة والحضارة متماثلًا سويًا في المجتمعات المثلى. وإن كان غرض الكتاب بأكمله هو الترغيب في الثقافة وإيضاح أهميتها للفرد والمجتمع، وعرض أبسط الطرق والأساليب للخوض فيها؛ فالكاتب قد شدّد على أن التثقيف الفكري يجب أن تكون بمثابة مسألة فسيولوجية للفرد، يحتاج إليه كالماء والغذاء، ليتنفس عقله ولا يركد، ويموت ذهنيًا قبل أن يدفن بسنوات. كما أن المعارف وإن كانت ثابتة في موضوعها، فهي متغيرة في تأثيرها؛ فهي تمتزج بنفسية الفرد، ويختلف تأثيرها من شخص إلى آخر لاختلاف الحاجة النفسية عند كل منهم.

المثقف المصري وإشكالية الأدب العربي

نقل سلامة موسى عن الرئيس الأمريكي "وودرو ويلسون" شروطًا لما يجب أن يكون عليه المثقف بصورة عامة؛ فيجب عليه أن يعرف تاريخ العالم منذ بداية الكون إلى الآن، وأن يدرك تاريخ الأفكار السائدة التي يسير عليها العصر الحالي من مبادئ، ويطلع على فرع من فروع العلوم التجريبية الحديثة، ثم يجيد لغة ما، وخيرها لغته الأم. لكنه – أي الكاتب- عاد وانتقد هذه الشروط، على أهميتها، إلا أنها أغفلت أهمية الفنون الجميلة في تهذيب سلوك الفرد المثقف.

غير أن أبرز ما يؤخذ على سلامة موسى التفاته بالكلية إلى النظريات العلمية التي أثرت في تكوينه كنظريات داروين، وانتقاصه من الأدب العربي بوجه عام، وعدم التفاته إلى دور الحضارة الإسلامية في حركة العلوم البشرية. فهو يرى أن دراسة الأدب العربي لا يمكن أن تشكل مكونًا للإنسان العصري في وجهة نظره، وحين وضع قائمة بأهم الكتب التي غيرت وجه الثقافة البشرية، فجاء على رأسها كتاب "أصل الأنواع" لداروين، وذيلها بكتاب قاسم أمين الشهير "تحرير المرأة".

سيكولوجية القراءة والدراسة

من أبرز موضوعات كتاب "التثقيف الذاتي" ما طرحه الكاتب عن سيكولوجية القراءة والدراسة، فقد رأى أن ما يحتاجه المثقف للدراسة وحتى القراءة الجادة هما أمرين: الحافز والذكاء. أما الحافز فهو الرغبة المشتعلة لتحصيل العلم، الشغف الذي توجده الحاجة الملحة للمعرفة، وهو إما طبيعيًا ينشأ مع الفرد منذ الطفولة، أو مكتسبًا يعرفه الفرد في سن الشباب، واشتهاء وطلب العلم والمعارف أهم من الذكاء عند سلامة موسى: فإذا كان الحافز قويًا، فلا يبالي الفرد بمقدار ما يملك من ذكاء؛ لأن قليلًا من الذكاء مع كثير من الرغبة في الدرس هما خير ألف مرة من ذكاء عبقري مع انعدام الرغبة.

ولتكون للقراءة والدراسة أثرًا فعالاً وحقيقًا في نفس الفرد، فيجب عليه أن يتصفح الكتاب بعناية أولاً، ثم يقرأ محتوى الكتاب وفقًا لترتيب الكاتب، ويقوم بالتعليق على ما قرأه، بل وينقده أيضًا وكأنه يناقش الكاتب في أفكاره. وينصح سلامة موسى أيضًا باختيار وقت ومكان الدراسة والقراءة للحصول على أكبر قدر من التهيئة النفسية للفرد.

أساسيات التثقيف الذاتي للمثقف المصري

بعد أن قدم سلامة موسى مدخل عن الثقافة وأهميتها ومعوقاتها وغايتها، وقدم دليلاً للاستفادة من القراءة المثمرة؛ فقد قام بتحديد إطار عام لما يجب أن يطلع عليه الفرد المثقف من معارف، فعكف على توضيح أهمية اللغة العربية في فكر وتكوين المثقف المصري، وعلى الرغم من انتقاده الدائم للأدب العربي: فالكاتب يقدم للقارئ ترشيحًا لقراءة نماذج من عيون التراث العربي، التي تعد أساس الثقافة العربية القديمة، وكذلك الكتب التراثية في مجال الفلسفة والرحلات، ولدراسة الحضارة المصرية القديمة مكانة بارزة في عملية التثقيف الذاتي عند سلامة موسى، لكونها تراثًا إنسانيًا فذًا، ولكون مصر تختص بهذا التراث في الأساس، فوجب على المثقف المصري ألا ينقطع عن أصوله المصرية القديمة، وقد عنى الكاتب بأهمية التعرف على اللغات الأجنبية، لتسهيل الاطلاع على الأدب العالمي بلغته الأساسية، كما رأى ضرورة تعرف الفرد على بعض أساسيات الاقتصاد والفلسفة والدين



"نقل سلامة موسى عن الرئيس الأمريكي "وودرو ويلسون" شروط لما يجب أن يكون عليه المثقف بصورة عامة، فيجب عليه أن يعرف تاريخ العالم منذ بداية الكون إلى الآن، وأن يدرك تاريخ الأفكار السائدة التي يسير عليها العصر الحالي من مبادئ، ويطلع على فرع من فروع العلوم التجريبية الحديثة، ثم يجيد لغة ما، وخيرها لغته الأم. لكنه – أي الكاتب– عاد وانتقد هذه الشروط، على أهميتها، إلا أنها أغفلت أهمية الفنون الجميلة في تهذيب سلوك الفرد المثقف."

والفنون والتاريخ.

برنامج التثقيف الذاتي للفرد: من التعميم للتخصيص

قام سلامة موسى في نهاية كتابه بالحديث عن بذور ثقافته قبل أن يرشد القارئ لكيفية وضع برنامج للتثقيف الذاتي خاص به، ودعا من ينشد الثقافة بحق أن يتوسع في المعارف السطحية على خلاف نظرية التعمق والتخصص في علم محدد من العلوم. فللكاتب نظرية تقوم على أن التعميم في المعارف سيؤدي بالتبعية إلى الوقوع في أسر لون من ألوان العلوم أو الفنون أو الآداب، فيأخذ هذا المثقف المحب في التبحر فيه رويدًا رويدًا، ويصير سائر ما يقرأ بالنسبة له فرعيًا، ومن يحصر نفسه في نوع واحد فقط من المعارف لا يعرف ما سواها فهو ليس بمثقف؛ بل متعمق أو متخصص، وأيضًا المثقف الذي لا يتعمق في علم معين لن يكون مثقفًا حق الثقافة. "إن التثقيف للحياة وليست الحياة للتثقيف، ولأجل أن نتوسع ونعيش الحياة: حياة النفس والجسم والذهن، يجب أن نثقف عقولنا ونربي أنفسنا".

من أعلام الفكر الإسلامي

إحسان إلهي ظهير
أسد السنة
1360هـ - 1407هـ



صبري بن سلامة شاهين

الرياض

لقب يستحقه ذلك العالم الجليل، والمحدث الثقة، والفقيه الورع، أخذ على نفسه الدفاع عن شريعة الله عز وجل، وحمايتها من اعتداءات أهل البغي من أصحاب الملل المخالفة للدين كالنصرانية، وأصحاب البدع المنتسبين كذبًا وزورًا للإسلام، كالروافض.

اشتهر عن إحسان حبه للعلم ففي صغره أتم حفظ القرآن وقد بلغ تسع سنوات، وتوجه لطلب العلم الشرعي على أيدي العلماء، فعاش يذود عن حمى الشريعة أصولها وفروعها، ومات وهو في قلب الدعوة وفي وسط الدعاة وطلبة العلم على أيدي المجرمين الروافض، الذين حرصوا على قتله، وخصصوا أموالاً طائلة من أجل القضاء على هذا الأسد الذي ما يزال يقض مضاجع أهل البدع المعادين للسنة من أتباع الخميني عليه لعائن الله المتلاحقة، الذي خصص لمن يقتله مبالغ طائلة، فقال: من يأتي برأس إحسان فله مئتي ألف دولار، فقتلوه وهو في سن 47 عامًا، وقيل: 44 عامًا، فلقي ربه شهيدًا على غدر الرافضة وإجرامهم، وشهيدًا من أجل دينه، فهو يعلم أن من مات دون دينه فهو شهيد، فمات العالم السلفي إحسان ظهير إلهي رحمه الله وأحسن إليه، وبلغه منازل الشهداء، وألحقه بركب النبيين والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، مات وهو يُعلم العلم، ويدعو إلى الله عز وجل.

فكيف مات هذا الأسد؟

فلم تزل تهديدات المجرمين له تلاحقه، وهو لا يأبه لها، ولم يعرها اهتمامًا، وهو يعلم أن حياته في خطر، فلم يشغله ذلك ولم يخفه، بل ظل يدعو لدينه وينشر دعوته، ويكافح عنها وينافح دونها، ولم تفت في عضده، أو تلين قناته، بل ظل صامدًا متحديًا طوائف الكفر والإجرام التي تحاول أن تثنيه عن قضيته، أو تحول دون رسالته ومهمته، وهي نشر السنة ومحاربة البدعة، ففي يوم من أيام وقد انعقدت ندوة العلماء التي تعقدها جمعية أهل الحديث في باكستان، وكان يشهد هذا اللقاء أكثر من ألفين من طلبة العلم والدعاة وأصحاب الحديث، وفي أثناء إلقاء المحاضرة وقد قربت الساعة من الحادية عشرة، وهو يلقي كلمته، قدم أحد الحاضرين مزهرية فيها باقة ورد، وكتب عليها: (إحسان إلهي ظهير الذي لا يخاف في الله لومة لائم)، وتناقلتها الأيدي لتصل إلى الشيخ، وكان هذا في يوم الثالث والعشرين من شهر رجب سنة 1407هـ في الساعة الحادية عشرة ليلاً، ووضع الشيخ المزهرية أمامه، وبعد عشرين دقيقة انفجرت المزهرية انفجارًا شديدًا وأحدثت دويًا قويًا، قتل في الحال تسعة أشخاص، وأصيب العشرات، وحدث نتيجة هذا الانفجار أن الشيخ قذفه الانفجار، وألقي على بعد قرابة ثلاثين مترًا، وقد ذهب ثلث جسده، ولكنه لم يفقد الوعي، والتف الناس حوله، فكان من أمره العجب العجاب، فكان يأمر الناس أن يسعفوا الجرحى الآخرين، ويقول لهم: اتركوني واذهبوا إلى غيري، ولما رأى أحد الحاضرين يبكي، قال



إحسان إلهي ظهير

"وكان الشيخ رحمه الله يتصل بالدعاة والعلماء في أيام الحج في شتى بقاع الأرض، ويتداول معهم الموضوعات الإسلامية والمشكلات التي يواجهها المسلمون.
وكما هو معلوم أن لكل مجاهد مخلص خصومًا وأعداء، ولكل حق ضده من الباطل، وبما أن الشيخ كان سلفي العقيدة، ومن المنتمين لأهل الحديث، فقد جعله هذا في حرب فكرية دائمة مع الطوائف الضالة"

له: إذا كنت تبكي فكيف تعزي غيرك؟!

ونقل الشيخ إلى المستشفى المركزي في مدينة لاهور، وبلغ الخبر إلى سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز، الذي كلم خادم الحرمين الملك فهد بن عبدالعزيز بضرورة نقل الشيخ إلى المملكة لتلقي العلاج، ومن ثمّ تم نقله إلى المملكة، وفي الرياض استُقبل الشيخ إحسان استقبالاً كبيرًا من قبل المسئولين والعلماء والوجهاء، وتم تحويله إلى المستشفى العسكري بالرياض، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

ففي صباح يوم الاثنين الموافق الأول من شعبان سنة 1407هـ في تمام الساعة الرابعة فاضت روح الشيخ إحسان إلهي ظهير إلى باريها، بعد حياة حافلة بالعلم والدعوة والجهاد والدفاع عن الإسلام والسنة، ومقارعة أعداء الدين والملة، ثم نقل جثمانه إلى المدينة النبوية في طائرتين عسكريتين بصحبة أقاربه وأحبابه، وفي المدينة استُقبل استقبالاً رسميًا من قبل المسئولين والعلماء، وصُلّي عليه في المسجد النبوي، وبعد الصلاة عليه شيع إلى بقيع الغرقد، فدفن هناك.

يقول أحد أساتذته من مشايخ الجامعة الإسلامية: "زرته في باكستان مرة وهو مصاب، وقد هُدد مرات ومرات من قبل أهل الأهواء، فهم ما رأوا أحدًا من المعاصرين بعد محب الدين الخطيب أشد منه.

فقد كانت حياته في خطر، وقد تعرض لأكثر من مرة للقتل، وأطلق عليه الرصاص وأصيب ولكنه نجا بفضل الله تعالى قبل المرة الأخيرة التي أودت بحياته، رحمه الله. وكان لا يلوي على شيء، وحاولوا اغتياله عندما كان في أمريكا، ولكن الله أبطل كيدهم، وحمى الشيخ من غدرهم وإجرامهم.

وكان الشيخ رحمه الله يتصل بالدعاة والعلماء في أيام الحج في شتى بقاع الأرض، ويتداول معهم الموضوعات الإسلامية والمشكلات التي يواجهها المسلمون.

وكما هو معلوم أن لكل مجاهد مخلص خصومًا وأعداء، ولكل حق ضده من الباطل، وبما أن الشيخ كان سلفي العقيدة، ومن المنتمين لأهل الحديث، فقد جعله هذا في حرب فكرية دائمة مع الطوائف الضالة: كالرافضة والإسماعيلية والقاديانية، فقد كان سيفًا مصلتًا على تلك الفرق الضالة، فقد كان يرفضها، ويرد على ضلالاتها، ويجابهها في كل مكان وكل منتدى، شأنه شأن كل مؤمن حقيقي الإيمان، يعتقد في قرارة نفسه أن الكتاب والسنة هما الطريق الأوحد، ولا طريق سواه لكل من أراد أن يكون من المنتمين لدين الإسلام. ويعتقد كذلك أن أديانًا تبنى على الكذب وتتستر خلف الترهات والأباطيل لجديرة بألا تصمد أمام النقاش، وأن تتضعضع أمام سواطع الحق ونور الحقيقة.

ولهذا الأمر طفق يلقي المحاضرات، ويعقد المناقشات والمناظرات مع أصحاب الملل الضالة، ويصنف الكتب المعتمدة على مبدأ الموضوعية في النقل والمناقشة والتحقيق، وكثيرًا ما كان يرد على المبطلين بأقوالهم، ويسعى إلى كشف مقاصدهم والإبانة عن انحرافهم وضلالهم، وفي كل ذلك كان يخرج من المعركة منتصرًا، يعضده الحق، وينصره الله تعالى.

ولما أحس به أهل الانحراف، وشعروا بأنه يخنق أنفاسهم، ويدحض كيدهم عمدوا إلى طريقة تنبئ عن جبن خالع، عمدوا إلى التصفية الجسدية بطريقة ماكرة!

إن الشيخ إحسان وُلد في (سيالكوت) من باكستان عام 1363هـ، من أسرة سنية متدينة اشتهر عنها عنايتها بالحديث النبوي، والعقيدة السلفية الصحيحة، فأخوه الدكتور: فضل إلهي الأستاذ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، قابلته مرات عدة، وجالسته في بيته بالرياض مرات كثيرة، وصححت له بعض مؤلفاته، فوجدته من خيرة الناس: علمًا وفقهًا وأدبًا وأخلاقًا عالية سامقة، يدل على أصل طيب وأرومة فاضلة، وكذا أخوه عابد إلهي الذي قابلته كثيرًا وجالسته مرات وهو يعمل في نشر كتب العقيدة والفقه والحديث، فهو بأخلاقه وديانته يؤكد أن هذه الأسرة أسرة ذات دين متين وعقيدة صافية وأخلاق فاضلة.

ثم أكمل إحسان دراسته الابتدائية في المدارس النظامية الحكومية، واشتهر عنه في صغره طلب العلم الشرعي على أيدي العلماء في المساجد وحلقات العلم الشرعي، ثم درس كتب الحديث النبوي على يد الحافظ محمد جوندلوي، شيخ العلامة عطا الله حنيف، وكان ذلك في مدينة (فيصل آباد).

ومنّ الله عليه فجاء إلى المملكة العربية السعودية، فحصل على ليسانس في الشريعة من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكان ترتيبه الأول على طلبة الجامعة كلهم، وذلك عام 1961م، وبعد أن رجع إلى باكستان، والتحق بجامعة (البنجاب) بكلية الحقوق والعلوم

السياسية، وحصل على الليسانس.

وبعد ذلك استمر في تحصيله الأكاديمي، حتى إنه لم يكتف بتلك الشهادة، فطفق يدرس ويحصل العلوم والمعارف ليخدم دينه من أوسع الأبواب، فحصل على ست شهادات ماجستير في الشريعة الإسلامية، واللغة العربية، واللغة الفارسية، واللغة الأردية، والسياسة من جامعة البنجاب، كما حصل على ماجستير الحقوق من جامعة كراتشي.

• ثناء العلماء عليه:

فقد زكاه الشيخ ابن باز رحمه الله الذي توسط لدى الملك فهد رحمه الله ليعالج على نفقة هذه الدولة المباركة، فلم يتأخر الملك فهد رحمه الله، وتم نقل الشيخ ومعالجته في أفضل مستشفيات الرياض.

قال عنه الدكتور لقمان السلفي في مجلة الدعوة السعودية: "لقد عرفت هذا المجاهد الذي أوقف حياته، بل باع نفسه في سبيل الله أكثر من خمس وعشرين سنة عندما جمعتني به رحمه الله مقاعد الدراسة في الجامعة الإسلامية، جلست معه جنبًا إلى جنب لمدة أربع سنوات، فعرفته طالبًا ذكيًّا يفوق أقرانه في الدراسة، والبحث، والمناظرة، وجدته يحفظ آلاف الأحاديث النبوية عن ظهر قلب.

كان يخرج من الفصل ويتبع مفتي الديار الشامية الشيخ ناصر الدين الألباني، ويجلس أمامه في فناء الجامعة على الحصى، يسأله في الحديث ومصطلحه ورجاله، ويتناقش معه، والشيخ رحب الصدر يسمع منه، ويجيب على أسئلته، وكأنه لمح في عينيه ما سيكون عليه هذا الشاب النبيه من الشأن العظيم في سبيل الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله بالقلم واللسان".

لأهمية الشيخ وجهوده الدعوية، فقد صدرت رسالة دكتوراه بعنوان: (إحسان إلهي ظهير وجهوده في تقرير العقيدة والرد على الفرق المخالفة)، للدكتور: علي بن موسى الظهراني. وصدرت رسالة ماجستير بعنوان (إحسان إلهي ظهير: الجهاد والعلم من الحياة إلى الممات)، لمحمد إبراهيم الشيباني. وطبع الكتاب في مكتبة ابن تيمية بالكويت.

إن هذا الشيخ الجليل يعد من أبرز وأشهر علماء أهل السنة والجماعة الذين اشتهر عنهم منافحتهم عن معتقدات أهل السنة الداعية إلى التوحيد الخالص لله، ونبذ كل أفعال الشرك ومظاهر من التوسل والدعاء لغير الله؛ مما جعله في حرب فكرية مع الطوائف الأخرى، مثل الشيعة الإثني عشرية، والإسماعيلية والقاديانية المنتشرة في باكستان بشكل خاص، وفي الدول العربية والإسلامية بشكل عام.

وكان رحمه الله إمامًا وخطيبًا لأكبر مساجد أهل الحديث بلاهور، وذلك في أثناء دراسة ليسانس الحقوق، كما عمل رئيسًا لمجمع البحوث الإسلامية، وتولى رئاسة تحرير مجلة (ترجمان الحديث)، التابعة لجمعية أهل الحديث بلاهور في باكستان، ومدير التحرير بمجلة أهل الحديث الأسبوعية.

> كان يخرج من الفصل ويتبع مفتي الديار الشامية الشيخ ناصر الدين الألباني، ويجلس أمامه في فناء الجامعة على الحصى، يسأله في الحديث ومصطلحه ورجاله، ويتناقش معه، والشيخ رحب الصدر يسمع منه، ويجيب على أسئلته

• أما أخلاقه وخصاله:

فقد كان من أبرز الصفات التي تميز بها الشيخ إحسان إلهي ظهير واشتهر بها الشجاعة والصدع بالحق، لا يبالي في هذا السبيل بأحد كائنًا من كان، ويقول عنه أحد أساتذته الذين درسوا له بالجامعة الإسلامية: "لا أعرف أحدًا من الشباب كان أكثر اندفاعًا منه في إظهار الحق وإعلان الدعوة إلى الله، ولا يعبأ بمن يعارض، سواءٌ كان من المسئولين أو غيرهم، شجاعته ليست في محل شك".

وكان جوادًا كريمًا منفقًا، ففي يوم من الأيام دُعي الناس إلى التبرع لمركز أهل الحديث، فقام الشيخ إحسان إلهي ظهير أول الناس ودفع خمس مئة ألف روبية تبرعًا للمركز، فلما رآه الناس، تأسوا به وتبرعوا بأموال كثيرة، بلغت في ذلك اليوم سبعة ملايين روبية لبناء المركز، فكان رحمه الله يقول ويفعل، ويتعلم ويعمل.

• ثباته ودفاعه عن دينه وعقيدته ومنهجه:

فالحديث عنه عجيب، فالشيخ إحسان إلهي ظهير عرف بأنه قاصم ظهور الفرق المخالفة للإسلام والسنة، كثير التنديد والردود عليها والتحذير منها، وكشف أستارها وإظهار ما عندها من الضلالات والمخازي، ولا سيما الروافض، فقد كتب فيهم مجموعة من الكتب التي ما زالت إلى اليوم من أفضل ما كتب في الرد عليهم، وكانت الروافض تطلب إليه أن يكف عنهم، وأن يصادر الكتب التي ألفها فيهم، فكان يقول لهم: "أفعل ذلك إذا أحرقتم كتبكم".

ولهذا كانت مؤلفاته تحتوي على كم هائل من الحوارات والنقاشات والردود، التي لا تخلو من دحض شبه هؤلاء ومعتقداتهم الفاسدة ورفضها ومجابهتها في كل مكان، كما كان يقيم كثيرًا من المحاضرات والندوات في الكثير من الدول، منها محاضراته في باكستان، والكويت، والعراق، والمملكة العربية السعودية، والمراكز الإسلامية في مختلف ولايات أمريكا.

• مواقف في غاية الأهمية:

ومن المواقف الظريفة التي وقعت له مع الرافضة: أن أحد ملالي إيران ممن يلقب بـ (آية الله)، كان أرسله الخميني إلى الشيخ إحسان إلهي ظهير؛ لينقل له إعجاب الخميني بكتابي الشيخ إحسان) البابية(و)البهائية(، ثم دعاه إلى زيارة إيران، فقال له الشيخ إحسان: "ومن يضمن حياتي؟"، فقال له: "أنا أضمن حياتك، وسأبقى هنا عند أتباعك إلى أن تعود إلى باكستان"، فرد عليه الشيخ إحسان: "وما يدريني لعلك من المغضوب عليهم عند الخميني؟".

وموقف آخر مع الإسماعيلية: فقد حاولوا معه فلم تفلح محاولتهم، حيث قام زعيمهم (كريم الأغا خان) بدعوة الشيخ إحسان إلى بريطانيا للتفاهم معه وإقناعه بعدم الكتابة في الإسماعيلية، ولو بإغرائه بالمال، حتى إنه أرسل طائرة خاصة إلى كراتشي؛ لتحمل على متنها الشيخ إحسان إلهي ظهير رحمه الله، فما كان من الشيخ إلا أن رفض هذا العرض.

• مؤلفاته:

ترك الشيخ مجموعة قيمة من المؤلفات التي اهتمت بالرد على العقائد الفاسدة للنصرانية، وعقائد الفرق الضالة، خاصة الشيعة وغلاة الصوفية، ومن كتبه ومؤلفاته في الشيعة كتابه) الشيعة والسنة(، وهو الكتاب الذي ترجم إلى الفارسية والإنجليزية والتايلاندية، وكذلك كتابه) الشيعة وأهل البيت(، وكتابه)الشيعة والتشيع فرق وتاريخ(، وكتابه (الشيعة والقرآن)، وكتابه (الباطنية بفرقها المشهورة).

وكما كان له مجموعة من الكتب في العقائد الضالة، ومنها كتاب (الإسماعيلية تاريخ وعقائد)، وكتاب (البابية عرض ونقد)، وكتاب (القاديانية)، وكتاب (البريلوية عقائد وتاريخ)، وكتاب (البهائية نقد وتحليل)، وكتاب (فرق شبه القارة الهندية ومعتقداتها).

• ما قيل فيه شعرًا:

يا باقة الورد يا رمز المحبة قد
أصبحت رمز الأسى في كف من ظلموا
ما أنت للغدر لكن الذين ظلموا
غطوا بأوهامهم عينيك وانتقموا
يا باقة الورد لو أن الضمير صحا
لما تخبأ فيك الموت والألم
إحسان إن أحكم الطغيان قبضته
وسل خنجره فالله منتقم
قوافل الشر تمضي في تآمرها
والخير منتصر والشر منهزم

رحم الله أسد السنة، وحامي العقيدة، ومنكس رأس البدعة، وقامع أذناب الرفض، وغفر الله له، وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة بصحبة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم.

حرائق الشعر العربي المعاصر



حسين أحمد المحمد

سوريا

لا غرو أن يكون الشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتهم، ومستودع آدابهم، وقد مر بعدة مراحل في طور نضجه، وهو الجنس الأدبي، الأوفر حظًا من بين الأجناس الأدبية، حيث فرض نفسه بقوة لعصور عليها، حتى إن البعض جعله المشكاة التي خرجت منها جميع الأجناس الأدبية، في البدء كانت المعلقات، عيون الشعر جاهليًا، التي كان لها من القدسية الأدبية ما لا يستطيع أحد الإنكار عليها، ولو بالمجاز، جرحًا، أو تعديلاً حتى مطلع القرن العشرين، عندما فجر عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين مفاجئته المدوية (1926) حيث أصدر كتاب - في الشعر الجاهلي - وفيه يقول: «أول شيء أفجؤك به في هذا الحديث هو أنني شككت في قيمة الأدب الجاهلي، وألححت بالشك أو قل ألح عليّ الشك، فأخذت أبحث، وأفكر، وأقرأ، وأتدبر، حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء إلا يكن يقينًا، فهو قريب من اليقين، ذك أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبًا جاهليًا، ليس من الجاهلية في شيء، إنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام- ولا أكاد أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جدًا، لا يمثل شيئًا ولا يدل على شيء ولا ينبغي الاعتماد عليه، في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر» وهنا كانت قدحت الشرر التي أشعلت لهيب أول حرائق التغيير، في العملاق الذي ظل راكدًا لقرون طوال، كانت الحركة الإحيائية الاتباعية، ورائدها محمود سامي البارودي، هي أول حركات التغيير، وأول الحرائق، حيث وجد البارودي الشعر العربي يكاد يكون جثة هامدة، فعاد به إلى العصور الزاهية كما في العصر العباسي، حيث نظمت الروائع من القصائد على منهج المحاكاة، والتقيد الصارم، ببحور الخليل بن أحمد، وأوزانه، وسار على نهجه كوكبة من الشعراء المخضرمين مثل شوقي، وحافظ، والرصافي، والزهاوي وكان من أهم أهداف هذا التيار هو بعث التيار الأصيل في الشعر العربي، مع التحديث في التجربة، والصياغة ولعل شوقي كان الأبرز في إظهار ذلك حين قال:

كان شعري الغناء في فرح الشر
ق وكان العزاء في أحزانه

قد قضى الله أن يؤلفنا الجر
ح وأن نلتقي على أشجانه

من الواضح لكل ذي بصيرة، أن الالتزام الصارم بقواعد الشعر قد أشعل حريقًا جديدًا، وحرك تمردًا عنيفًا هز كيان الشعر العربي، متمثلاً بعدة حركات تجديدية، كانت الرومانسية القائلة عمودها الفقري، وكان جناحاها الشعر المهجري من جهة، ورائدها ميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي، وغيرهم ثم أصحاب مدرسة الديوان من جهة أخرى، كالعقاد، والمازني في محاولة لفرض النظرية الرومانسية، للشعر الإنجليزي، وتقديمه كبديل للاتجاه الإحيائي، لكنها لم تسمُ مواكبتها للمديح، من أن يشعل حريقًا وجدانيًا جديدًا، متمثلًا بجماعة أبولو التي أسسها أحمد زكي أبو شادي، وكان الشابي، وعلى محمود طه، وناجي، وقودها الوجداني إلى منتصف القرن تقريبًا، لتعصف رياح التغيير مرة أخرى، ليكون الحريق الهائل في الشعر العربي متمثلة بالشعر الحر أو شعر التفعيلة الذي هز المنظومة التقليدية هزة كانت تطيح بها لولا صلابة الجذور في عمق التاريخ الأدبي، خصوصًا بعد مواكبتها للمد القومي في العراق ومصر والشام، كان لنازك (قصيدة الكوليرا) قصب السبق هي والسياب ونزار قباني الذي يقول ملخصًا الحالة التي دفعتهم ليكونوا وقودًا لهذا الحريق الجديد:

يا عصور المعلقات مللنا، ومن الجسم قد يمل الرداءُ،
نرفض الشعر كيمياءً وسحرًا قتلتنا القصيدة الكيمياء

طبعًا حري بنا ذكر فيها شيء تظهر كانت تلاقي الويلات من رواد سابقتها، في عام 1960 اعترض عباس محمود العقاد على اشتراك بعض الشباب المجددين، وهدد بالانسحاب من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، احتجاجًا على اشتراكهم بقصائد من الشعر الحر، فكان أن أذعن هؤلاء، ومنهم عبد المعطي حجازي فألقوا قصائدهم بالطريقة التقليدية، منعًا لتفاقم الأزمة، لكن حجازي أسرها في نفسه، وكتب قصيدة من البحر البسيط يهجو بها العقاد.

طبعًا القصيدة كان فيها شيء من التطاول على مكانة العقاد الأدبية، لكن يشفع لصاحبها حب التجديد وحماسة الشباب.

آخرًا وليس أخيرًا في حرائق الشعر العربي المعاصر كانت قصيدة النثر التي كانت في البدء تمشي على استحياء ورائدها محمد الماغوط وأدونيس وعفيفي مطر، ثم بدأت تجد السير مسرعة إلى الأمام... ومن يدري ما سيكون غدًا لتبقى المقولة الخالدة لأبي العتاهية «أنا أكبر من العروض» لتثبت صدقها وصيرورتها مع الواقع، ولتبقى حرائق عصي الريح تعصف في كل وقت وحين بما لا يخطر على قلب بشر، وليظل الشعر متربعًا على عرش الأدب، ويبقى ديوان العرب وخزانة علومهم ومستنبط آدابهم.

الشك بين تصارع الأضداد والغوص في التساؤل

قراءة في رواية "جمرات من ثلج"

أ.د. نادية هناوي سعدون

كلية التربية - قسم اللغة العربية - الجامعة المستنصرية

بغداد

انشغل الإنسان منذ الأزل بالوجود، وهذا ما دفعه إلى البحث والتفكير، فكانت الثنائيات التي ظل الفكر منشطرًا فيها بين الشك والإيمان. والشك أسبق من الإيمان، وهو جوهر العقل والأساس المركزي في نظرية المعرفة، ومنذ هيرقليطس الذي يعد أقدم شكاك مرورًا بسقراط وأفلاطون، الذي آمن بفكرة أن الروح خالدة، وأرسطو الذي وجد أن هناك ضرورة منطقية لوجود محرك غير متحرك، يكمن وراء كل القوى الأخرى، وإلى يومنا هذا يتوكد أن الشك مغامرة وتنوير وتجربة وانقسام بين الإنسان والكون بين المعنى واللا معنى.

والشك نقيض اليقين، وهو أنواع، فهناك الشك الديني، والشك العلمي، والشك الثقافي، والشك الذاتي .. وما بين الشك والمنطق بون كبير، تتعالى عبرهما الأسئلة.

ولأن الذات ليست بمعزل عمّا حولها، لذلك شككت متسائلة إزاء واقع أجج كوامنها بتوتر وحساسية وبوعي خاص، بغية إدراك حركة الكون.

والرواية كأحد أجناس الأدب تفتح آفاقًا رحبة للتشكيك لا بالمطلق أو السرمدي، لكنها تشكك على وفق نمط ثقافي كوني متنوع، ويكون طرح التساؤلات إحدى الوسائل الأسلوبية، التي بها يحتل الشك بؤرة الرواية بثمانية، لا تبغي بلوغ إجابات قاطعة أو حدية، ولكنها تحاول أن تضع تصورًا معقولاً لتناقضات الحياة وتضادياتها بين الإيمان واللاأدرية والإلحاد والتصوف والتفلسف بوصفها جميعها تسعى نحو تصعيد نزعة الشك رفضًا للظلم وبحثًا عن العقلانية والمنطقية، وبطريقة علمية مادية ديالكتيكية.

وهذا ما نلمسه في رواية (جمرات من ثلج) للكاتبة اللبنانية د. مها خير بك، إذ تتمظهر البطلة ميس ككينونة ساردة مواجهة هواجسها بثقة حاملة تطلعاتها بحزم واجدة نفسها منهمكة في التساؤل بديالكتيكية تجعلها بحاجة ماسة لإيجاد الإجابات ..

وما جعل هذه الشخصية الروائية صلبة وقوية إنها واعية ومثقفة مدركة لقدراتها ومتفهمة لواقعها، وهي ليست انهزامية ولا سلبية، وما تطرحه من أسئلة هو وسيلة تعبر من خلالها عن تصادمها مع المتناقضات وتبرمها من التضادات، فتعلن بثقة عن تمردها وتحديها محاولة الفهم واكتساب المعرفة..

وهي إذ لا تعاني تشظيًا ولا انكسارًا ولا انقسامًا، فإنها دائبة الغوص في أدق التفاصيل الحياتية راصدة اللحظات بواقعية موضوعية ومتفاهمة مع نفسها، ومع ما حولها بحضور فكري راسخ ومتين، ومن دون أدنى اضطراب نفسي أو عاطفي..

وهي لا تطرح تساؤلاتها إلا لكي تشعر أنها حاضرة بعقلها وجسدها معتمدة أسلوب السرد الذاتي الاسترجاعي لذاكرتها الأنثوية مستعيدة حكايات ماضية، تعيد عبر

استدعائها تشكيل تاريخ وجودها.. وقد تداعى الأسئلة بشكل لا شعوري كمونولوجات تستبطن بها الساردة ميس أغوار ذاتها المتسائلة مخرجة لها من حيز الصمت إلى حيز الصوت" لكن القدر شل حركتي، وأنطق لساني، فقلت: هل تراقبني؟"

وقد يداهم التفكير الباطني الصامت عملية الطرح والانثيال الديالكتيكي للأسئلة، إذ لا بوح ولا إعلان، ولكن هناك دومًا توجسًا من الكشف عن ملابسات الواقع وتضاداته، فضلاً عن وجود خوف خفي وخشية متدارية، تسيطر على جوانحها فتجعلها قابعة في صمتها، مفضلة عدم الإعلان مختارة البقاء في الظل.

وحالما تتغلب على تلك الهواجس وتطرد تلك المخاوف تشعر بالانتصار، فترى "أن أعظم إنجاز في الحياة هو انتصار الإنسان على هواجسه وآرائه غير المنطقية، فهل تحرر قناعة ما المرء من أغلال نفسه؟"

ولئن كانت أزمة (ميس) القلق والتوجس إلا إنها بالمقابل ليست واهمة أو حالمة، وهي إذ تعيش صراعًا داخليًا فإنه صراع يوسم بالارتكاز والاتزان، ولهذا تجد في تداعي أسئلتها وتواليها خير متنفس، تتحرر فيه من قيود التوجس، كما تنفلت من حالة الالتباس، لتصل إلى الحقيقة المنشودة بلا اضطراب..

وليس في تداعي الأسئلة اشتغالاً نفسيًا لا شعوريًا، بل هو انثيال ذاكراتي شعوري مقصود ومرصود من قبل الذات السائلة، التي قد تسدل التساؤلات إلى أعماقها خفية، فيتحرر ذهنها من أطيافه محاولاً إزالة الغموض عما حولها من موجودات.

وتستعيد الذات الساردة الأسئلة نفسها بين الفينة والأخرى ليس لأنها مرتبكة أو فوضوية أو غير مبالية أو متطفلة وقامعة، بل لأن وعيها الذي يصيرها مثقلة بهموم الواقع المعيش محمل بكم مديد وغزير من الأسئلة المستدعاة عقلاً ووجدانًا.

ولا خفاء أن مهمة فك الذات لأسرار موضوع ما، تتم مشاهدته أو معايشته أو الانخراط في أتونه إنما هو إطار محتم سيجر تلك الذات نحو التفكير المستديم والتداعي المتأزم لتساؤلات "لماذا يصر العقل على قراءة تفاصيل مشاهد تختزنها ذاكرة تمردت على رغبات الوعي؟ ما هذا الرشح المفعم برذاذ الشوق إلى اليقين"..

ويبقى بلوغ اليقين همًّا مؤرقًا يثقل كاهل الذات ويدفعها إلى الاستعانة بأدوات الاستفهام (كيف ولماذا وأي) لعلها تجد استعلامًا عن المجهول، فتتمكن عبره من مسك الحقيقة بأسئلة تجدها قريبة إلى نفسها مستلهمة من ذاكرتها الواعية حقيقة واقعها، فتتيقن من حتمية التساؤل "فكان السؤال الأكثر قربًا إلى الواقع: هل هذا الرجل ينتمي إلى تنظيم سري أو إلى إحدى الميليشيات؟ فرد عقلي على هواجسي بالنفي"

ولا ضير أن يفترق الهاجس عن العقل، فالعقل هو مصدر الأسئلة ومورديها والهاجس هو مفجرها وموقظها، ولا سؤال للعقل ما لم يكن هناك هاجس يدفع العقل إلى التساؤل وما بينهما تفاهم وتصالح يجعلها متعاضدين في تحديد السؤال وبناء أرضيته.

وإذا كان مبعث الهاجس الشك، فإن العقل مبتغاه الحقيقة، وليست البغية من إثارة التساؤلات الانسياح في متاهة الوجود بل الهدف هو توكيد القناعة بإمكانية تغيير العالم المحيط وتطويره "أسئلة كثيرة تزدحم في رأسي تتصارع ولا تتقاطع تحرضها فضولية تعمها بحذر وخوف فرضتها حرب أهلية أججتها مصالح آنية ضيقة"

ومع تقدم السرد تتحول الانثيالات التساؤلية إلى احتدامات ديالكتيكية مشاهرة قلقًا ومجاهرة توجسًا، وتستقر التساؤلات في ذهن ميس كقوة خفية تستنزف طاقتها حتى تقودها نحو الكشف عن حقيقة الهادي إمام الرجل الذي أثار غرابتها واهتمامها.

ويكون التحول الدراماتيكي في الرواية مقرونًا بانشغال ميس بهذا الرجل الغامض فتبادر إلى طرح أسئلتها المؤرقة مباشرة عليه أي على الرجل المبهم الذي تقرأ فيه الشك والفضول والغرابة فتغزو عقلها مجددًا الأوهام والشكوك.. وتحاول امتلاك الشجاعة التي تمكنها من الانفلات من أسر هذا الغموض.

وتتعزز معاناتها الفكرية وتلقي بها في منعطف ذهني متعب ومرهق لا تستطيع أن تتخلص من تأثيراته، فيكون مرتكزها النفسي على الأسئلة وانثيالاتها هو الذي سيسترد لها ثقتها بنفسها لتطرد الأوهام وتبلغ الرضى الذاتي متحررة من سجنها الذاتي طارحة تساؤلاتها على شكل حوارات خارجية تارة وحوارات داخلية صامتة أو غير مباشرة تارة أخرى، لتصل إلى مرحلة تبدو فيها كأنها واقعة فريسة لأسئلتها التي تهيمن على حياتها، فتتركها ضحية الشكوك والأوهام "وبخت نفسي، وأنا أحضر قهوتي الصباحية غير أن الجدل بين نفسي ونفسي لم يحسم فالاستنكار الأكثر إيذاء نطقت به ذات تعي نفسها: متى كنت سخيفة أيتها الأنت؟"

وليس الهدف من إثارة التساؤلات إيجاد أجوبة يقينية بقدر ما هي رغبة متطلعة لاستكناه الأشياء والتشكيك فيها، وتهشيم الفرضيات، ودحض الثوابت من خلال التضاد مع الذات، التي تتشطر على نفسها في كينونتين تتبادلان حوارات تأملية، تسعى من ورائها إلى بلوغ اليقين، فتتساءل "كيف انقدت إرادتي بإرادتي إلى هذه الورطة ولكن أين المشكلة"

ومـا شعورهـا بالانشطـار إلا هزيمة عقلية تدفعها إلى مزيد من التوجس كقولها "كيف سأعيد ترميم بنود العقد



بيني
و بيني ؟ "
أو قولها "الشوق يسخر مني
لقد خاب الظن أنا وأنـا نتكلمان في اللحظة عينها كيف انشطرت إلى ذاتين؟ لا أدري"

وتحطيم جدار الشك ليس بالأمر اليسير، وهذا ما يتطلب مزيدًا من المقاومة واستنفار أكبر للجدل واستدعاء الحدس بكل أشكاله، لتفتيت براثن الشك بطريقتين الأولى باستعمال السرد بضمير الخطاب متحولة من السرد بضمير الأنا، ليكون في التناوب على الضمائر السردية مراهنة قصدية من الذات تدعم عبرها نزعتها التساؤلية "تبًا لك يا ميس هل تبررين رغبتك في لقائه مرة ثانية هل سحرك بلطفه وجمال عينيه؟ لا، هي قضية إنسانية وعليك أن تتخذي قرارًا"

وما زالت الذات هي مرتكز التساؤل ومداره، وهي لم تتحرر بعد من أسر التضاد بين الجسد والروح، ولهذا تظل تكابد لوعة السؤال ومرارته، وتتوالى أسئلتها الموجهة لنفسها في صيغة خطاب من الذات، وإليها "ما هذا الشعور يا مس؟ هل يجتاح صمودك توق إلى أمومة ما تزال تؤذي قناعاتك؟ تبًا لك أيتها الأنا؟ ما هذا الوجع الذي يضرب ثباتي؟"

وهذا التحول من الفعلية الماضية البسيطة إلى الفعلية

المضارعة هو الطريقة الثانية التي تسعى بها الذات إلى تدعيم أكبر لنزعة التساؤل ضامنة ديمومة استمرارها، "وهل الصمت نبض حياة سيجعله الهادي ناطقًا ومنطوقًا في كلمات اختارتني مستقرًا لها؟ نعم لن أخذل ذلك النبض المعرس في صمت وجودي، ولن أمارس هواية الهرب والتهرب والتسويف والتخاذل والتضليل .. تحمل خياراتك أيها العقل المشحون بالرفض والمنتصر على أحقية الشك بتغليب اليقين"

وبعبارة أخرى فإن ارتكاز السرد على الأفعال المضارعة كان قد منح المسرودات منحى استمراريًا جعلها في حالة ديمومة وصيرورة مستمرة وحاضرة، لا سيما ترافقه مع استعمال ضمير الخطاب لتتضح حقيقة أنها تسير في دروب التفلسف، الذي يودي بالذات إلى متاهة التفكير المتعنت الصادم "ما هذا التفكير يا ميس؟ هل وصل بك عشق التعب إلى ربط كل ظاهرة بالفلسفة، والحديث مع الآخر أقل عبثًا من حديث النفس إلى النفس؟"

وهذه المخاطبة بعنوة وتعنت للذات إنما يخلف صراعًا أنويًا حيث الأنا متصادمة مع نفسها بما يجعلها على مفترق طرق فأما أن تتمرد وتجازف وأما أن تتصاع وتستكين.

ولأنها ليست ذاتًا بسيطة أو مسطحة لذلك تختار أن تمضي بتعقد وإرباك، ومما شجعها على ذلك الخيار هو واقعها المشحون بالتضادات والمتناقضات، فكل ما حولها متصارع ومتنافر ومستفز، يحرض على الشحن بطاقة تساؤلية لا نهاية لها..

وتمنح الموجودات جميعها ميسا طاقة للبوح بأسئلة مكتومة نطاقها الذات وحدودها العقل ومنبعها الحدس الأنثوي الذي يجمع ما بين صوت الشخصية وصوت الكاتبة وإيديولوجيتها في صوت واحد "لماذا لا نسعى إلى تحريض طاقاتهم؟ لماذا لا تخصص محاضرات تركز على المواطنة ودورها في حماية المجتمعات والأوطان؟ لماذا يهاجر أبناؤنا؟ لمن تلد الأمهات؟ ولمن تربي؟ هل من أجل الغول الاقتصادي العالمي؟"

ويسهم إقحام الذات لنفسها في خضم الواقع المتضاد أن تقع صريعة أفكارها، التي تستحث عقلها فتستأنف أسئلة جديدة متصارعة لا قرار لها ولا جواب قاطع أو مقنع بازاها، وهذا ما يولد إحساسًا عميقًا بالاغتراب الاجتماعي الذي هو ملمح من ملامح الرواية الواقعية حيث البطل الواقعي دومًا إشكالي يشعر بالاغتراب مكانيًا وروحيًا.

وإذا كان طرح التساؤلات يعطي بعض الراحة النفسية للبطلة، لتجادل روحها معبرة عن همومها، وفي مقدمتها هم العمر والهوية والوطن وغيرها؛ إلا أن ذلك لا يمنع من أن يُلقي دياليكتيك التساؤل بميس في منطقة التضاد مع الذات، وقد يجرها إلى منطقة التضاد مع الآخر، ممثلاً بشخصية الهادي إمام الذي صار لها ضدًا ورفيقًا، فحفز فيها مزيدًا من طاقة التساؤل لاسيما بعد ظهور شخصية صموئيل لتتصاعد الأجواء الدرامية بالسؤال حتى تقع البطلة رهينة هواجس أساسها سؤال الهوية "هل من المقبول أن نحب من يقتل أبناءنا ويهدم قرانا؟ ولكن ما ذنبه؟ .. هو إنسان له العواطف عينها .. فلماذا أحمله وزرًا لا علاقة له به؟"

ويتعزز الطابع الجدلي الديالكتيكي بتكرار عبارات مثل "أسئلة كثيرة لم أجد لها جوابًا" "أسئلة لم أجد لها أجوبة" "لماذا أغرق ذاتي في خضم أسئلة لا جواب لها" "أسئلة كثيرة قطعت شريط الذكريات بعدما قطعت الكهرباء" أو قولها "الأسئلة تتصارع في ذهني" "أسئلة وذكريات وأفكار ورؤى، لا حصر لها تسللت إلى ذهني" "قطع رنين الهاتف تتابع أسئلة مجهولة الإجابة" "أفكار وأسئلة كثيرة تزاحمت في رأسي"

وهذا الارتكاز على التساؤل يشعرها بأنها واقعة تحت هيمنة العقل الذي لا تستطيع منه فكاكًا، ولهذا تقرر أن تقلل من مساحة التأمل العقلي والسياحة الفكرية في الوجود وتتصدى للإرهاق النفسي الناجم عن كون العقل بالنسبة لها منجم الأسئلة ومبعثها.

وتزيد الاسترجاعات الذات ألمًا، لأنها تجعلها تطرح مزيدًا من الأسئلة، وتجعلها خائضة في منطقة التساؤل الديالكتيكي "ما هذا الجمر الحارق يا ميس؟ ألا من هدنة مع الذات؟ ولكن أين الطمأنينة؟ الارتحال في مساحات الماضي حياة"

وأساس التضاد والتنافر الغموض الذي يلف حياة من حولها (الهادي وحسان وصموئيل ومنى) فيحملها على استدعاء مزيد من التساؤلات ذات الصبغة الشمولية العامة "هل يعلم المجرمون أنهم مجرمون؟ كيف تستطيع المجرم أن يغلق عينيه وينام متجاهلاً بكاء الثكالى وصراخ اليتامى وأنين الأرامل والشيوخ والعجز؟ كيف يستطيع سارق أن يتلذذ بامتلاك شيء ليس له؟ .. من شرع الاعتداء والقتل والتعصب والاغتصاب وسيطرة الأطماع؟ هل سيأتي يوم وينغرس هذا الجسد تحت شجرة صنوبر في قريتي؟"

وقد يصبح ديالكتيك التساؤل أكثر وطأة وأشد قسوة حين يأخذ طابعًا غيريًا وقوميًا ويتناقض لديها الواقع فيزداد شكها ويضمحل يقينها فترى في الفلسفة مهربًا مما تعانيه "العالم لا يرى الجرائم المباشرة التي ترتكبها إسرائيل بحق شعبنا فهل سيبحث عما تخلفه الذئاب من آثار ما بعد المعركة؟ هل مات الضمير العالمي؟ هل أحد يفكر بضحايا القنابل العنقودية التي زرعتها في قرى الجنوب؟ ما هذا العمل الإجرامي الإرهابي؟ عن أي ضمير تتحدثين؟ ... وما يحدث في العراق أليس وصمة عار على جبين الإنسانية المزعومة؟"

ويقودها هذا الشعور إلى شعور آخر، فتتساءل عن إمكانية أن يتغاضى الإنسان عن النوم، ويستغني عنه كحاجة غير ملحة "هل النوم نوع من موت آني تنفصل فيه الروح عن الجسد لتسبح في عوالم لا نبلغها في حالة إدراك الواقع الملموس؟ هل يمنح النوم أرواحنا حرية الحركة والبحث والتنقيب والاستشراف لتعود من جديد إلى مسكنها عارضة على العقل حصادها فيقبل أو يذري به؟"

وهكذا تقع في دوامة التصارع معاناة وآلامًا، وتطوح بها الشكوك، وتبدد يقينها إيقاعات الوجدان وضوابط العقل، فلا تقدر على الانفلات من أسرها، ولكنها في الوقت عينه لا تستطيع أن تنسى قلبها وتنساح من سطوته..

وتبلغ الحبكة القصصية ذروة تصاعدها حين تدرك ميس أن عليها أن تغادر سؤال الكينونة نحو سؤال الهوية، وأن تتخلص من سلطوية العقل بغية التصالح مع الذات ومغادرة الصراع مع الروح بالتوجه إلى الجسد راجية عقلها، ألا يعكر عليها سعادتها، وألا يقمع أحلامها ...

إنها الآن تبغي الاطمئنان والاستقرار لتخفف عن نفسها وطأة التضاد بالأسئلة وقسوة ديالكتيكها، فتقرر رؤية الأشياء بمنظار جديد لا يحرص على النبذ والتضاد .. فتبوح بشاعرية متسائلة "هل أعصم نفسي عن الخطيئة؟ .. ألم أخطئ عندما تمنيت مرة الموت لزوج أختي؟ ألم أخطئ عندما ظلمت نفسي؟ .. هل إنسانيتي في تحقيق أمومتي.. لماذا يعود الفكر ليتمركز عند الهادي؟.."

وبولوج الذات منطقة الشعر بوساطة أسئلتها فإنها تعكس ولعها بالتحرر من العقل وإعلان وجدها وهيامها وتكون خاتمة الرواية أن تقرر نفض القيود العقلية عنها محاولة الانصياع لرغباتها الوجدانية "كيف استطاع القلب أن يفجر.. مثل هذا الدفق الكبير من المشاعر؟ وكيف استطاع صموئيل بحبه وصدقه وشفافيته وأخلاقه أن يروي عطشي الدفين إلى أمومة تحيا في أجمل أحلام أنوثتي؟... فلماذا يخبئ صوت النورس من أسرار ولادة؟ هل من عاصفة تقتلع تراكماتك أيها الزمن وينبلج حلم الهادي عن أبوة لصموئيل؟"

ختامًا .. فإن ديالكتيك التساؤل في رواية (جمرات من ثلج) عكس تشظي الذات الأنثوية الناتج عن التضاد بين الثنائيات مثل الوطن / اللا وطن والمعنى/ اللا معنى والذات /الهوية الصمت/البوح مما ولّد دوامة من الأسئلة التي تواترت كالجمر وقد أنتجها العقل الذي هو كالثلج وبالتقاء الجمر بالثلج تؤكد صراع الأضداد الذي هو من أهم سمات الديالكتيك المادي.

وهذا ما استنزف من الشخصية طاقتها ووضعها في بوتقة صراع تضادي بين عقلها وعاطفتها، وهي تتساءل عن قضايا الانتماء والهوية والعشق، فلا هي تمكنت من إخماد جمر الإحساس العاطفي، ولا هي انفلتت من جمود النظر العقلاني وثلجيته..!!

رحيقُ الدَّمعِ

غمكين مراد

سوريا

سليلُ حبٍّ
في شجرةِ عذابٍ
سليلُ عذابٍ
في كونِ حبٍّ
اهتدت لأيامهِ
المُضي
غافلاً عن الغدِ
حالمًا بنومٍ عميقٍ
كان ينتظر
الليلُ يحومُ
النجوم تُخيِّط سماءها
والقمر يُهادِنُ ظُلمة الغدِ
على حافةِ العشبِ
مع لسعةِ البردِ
كانَ يُسوِّرُ
حُلمهُ
من الهدوءِ
في خلاصِ التعبِ
كان يزرعُ
البياضَ
جاءهُ،
ما كانَ ينسجُ في الظلِّ
ألمُهُ
جاءهُ
ما كانَ في القدرِ يُلحِنُ
نزيفَ خلاصهِ
ناسياً
إرثهُ
تاركًا
الخرابَ
تاركاً الكلماتَ
تاركاً الانتظارَ
متأملاً النّدَّ
في يقظةِ ضدِّهِ
داخلاً
متاهةَ الموتِ
في قدومهِ
وفي رحيلهِ
مُحدِّقًا في شبحهِ
دائرًا برأسهِ
متكلمًا بلغةِ إيمانهِ
يسرُدُ مع الشبحِ الزيارةَ
ويترك للعمرِ
بقيةً
مُخيرًا بينَ :
غفوةِ العمرِ
وفُجاءةِ الغفوةِ
يُدندنُ أبكمُ الروحِ
في هَوَسِ الوجعِ.
للألمِ أوجهٌ
والبقاءُ لواحدٍ يطغى
والبقيةُ ثغاءُ هواءٍ
مربوطُ الروحِ
وغارقُها
يستردُ في الترقبِ أنينَ الموتِ
وحيداً
يغتسلُ برحيقِ الدمعِ
يُنشفها بصمتِ الدخانِ
ضاحكًا أمامَ المرآةِ
ماسحًا أوجهَ الألمِ كلَّها
مدوِّنًا
أنتَ لستَ
إلا أنا
أنتَ لستَ
إلّا أنا
في الغدِ وبعدهُ.

CHANTAL JODIN

دمشق يا بسمة الحزن ..
ثورة شعب ومذكرات امرأة



بقلم: حمزة شباب

ناقد فلسطيني - الأردن

تدخل دمشق ساحة الربيع من أوسع أبوابه عبر مذكرات المرأة العربية السورية ، وتتبختر الدار في ذاك الربيع المسائي يزوقها فنان أهوج بعثر الألوان في كل زوايا البيت، حيث أزهار البنفسج التي تنحدر على الجدران، والنفنوفة الحمراء تتسلق قوس الليوان، أما الياسمينة فتسطو على الدالية وتنسج فوق العريشة مظلة موشاة بالأصفر والأخضر، والبحرة تحتضن القمر تتوسطها نافورة تردد أغنيتها الرتيبة الموزونة، وزهر الليمون والنارنج ينشر عبق الاسترخاء اللذيذ، يجمع نيسان كل هذه اللحظات من النشوة والتجلي في مذكرات امرأة تنتصر لشعبها فتكون ضحية تورّث الآمال للأجيال.

"دمشق يا بسمة الحزن" رواية للأديبة السورية ألفت الإدلبي، صدرت في الثمانينيات من القرن الماضي وسطّرت واقعًا عربيًا ملموسًا في الانتصارات الشعبية والأدب النسوي الثوري في الدفاع عن الحقوق، وعبّرت عن رفضها للسلطات الذكورية في جوهر محدد من كتابة مغايرة تتجزء المرأة العربية في استيحائها لذاتها. كما خلّدت ذكرها في ميدان الأدب حاملة لكلماتها المستوحاة من أنوثتها لتخلطها بصليل السيوف في واقعها، وضاربة عرض الحائط ذاك المجتمع الذي يضعها فضلة في سياق الأحداث.

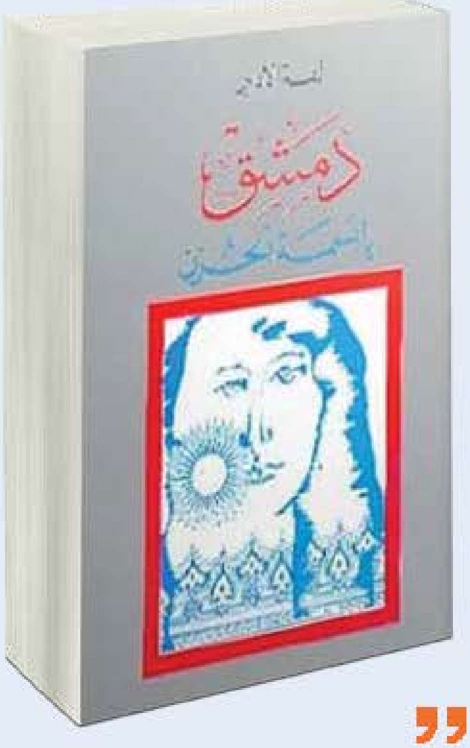
ومن الجدير بالذكر أن الرواية تحولت إلى عمل درامي، أضاف رصيدًا وافرًا للدراما السورية بما يخص كلاسيكيات الأدب السوري تحت مسمى "بسمة الحزن"، حيث عمل على تشييد السيناريو الناقد السوري رفيق الصبّان أستاذ مادة السيناريو في معهد السينما بالقاهرة، والحاصل على وسام الفنون والآداب الفرنسي برتبة فارس، والذي يوصف بأنه صاحب بصمة واضحة في تاريخ الأدب والسينما العربية بسبب مسيرته الطويلة في قطاع إنتاج السينما العربية، كما عمل على تكييف المشاهد الدرامية المخرج السوري لطفي لطفي بما يمتلكه من مهارة محافظة على أحداث الرواية سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا، المسلسل من إنتاج عام 1992 م أي بعد عشرة أعوام من كتابة الرواية تقريبًا.

تحوم رحى الرواية في فلك ذاك الربيع النيساني الملطّخ ببراثن الانتداب، وتحكي خصوصيات أسرة دمشقية كلمتها سهام الواقع في الاستعمار الجاثم على قلوبهم، وأسرتها العادات والتقاليد في تقييد المرأة ذاتًا وروحًا، وإن كانت نبوءة لما يحدث في دمشق وما حولها من ثورات تماثل نظيرتها التي قام بها شباب الغوطة وحي الميدان بنص الرواية إلا أن استمرار بعض الثقافات في تحديد دور المرأة العربية يجعلنا في إطار الصندوق الأسود الذي ما نزال نجهل كثيرًا من خفاياه وإستراتيجيات البحث عنه. فصبرية لجأت إلى مذكراتها في لحظة كانت تمتع فيها من معاشرة الصديقات، مما جعلها تكتب مآلات المرأة في تكوينها للربع المعروف باليابسة على هذه الكرة الأرضية. فالأغلبية الذكورية طاغية على الساحة في كل مجالاتها، ولم تترك لها عملاً سوى أعمال الداية الواحدة لكل ثلاث أو أربع حارات، وهي الوحيدة على ثلاثة إخوة تصارع من أجل البقاء. فتفقد ثالوثها المقدس في أعنف الأحداث وأشدها قسوة، ويعتصرها الحزن في فناء أخيها سامي بئر أسرارها الذي استشهد في الثورة الشعبية ضد الاحتلال، وسمعت بمكر أخيها راغب الذي رغب عن سعادتها في تعاونه مع الاحتلال في قتل عادل الشاب المثقف الثوري الذي نجا من العيون الاستخباراتية لتلاحقه النيران الصديقة بعد معرفته بالعلاقة الغرامية القائمة على نوع من الثقافة مع أخته. فكان كرواية أهداها إليها فقرأتها ولم تنسها بعد. ثم رحلت نيرمين حبيبة أخيها سامي مع رجل سبعينيّ أغرقها بهدايا الترف، وبعد وفاة والدتها تبقى في رعاية والدها المجنوم بقية حياتها، وتنتحر بعد إقامة الطقوس الشعائرية الخاصة بوفاة والدها وعزم إخوتها على بيع منزل العائلة مع الربيع الذي رسم معالمه فيه أعوامًا عديدة.

تناولت الكاتبة في روايتها جانبًا من سيرتها الذاتية وسيرة المجتمع الذي ضمها، حيث تلقت تعليمها في المدرسة القريبة من مكان سكنها، وتزوجت في سن السابعة عشرة من عمرها لطبيب ثم تره في حياتها شأنها في ذلك شأن الفتيات جميعًا في تلك الثقافة المغلقة، واتخذت من مرضها فرصة انتهازية لإشباع هواياتها في القراءة والكتابة، وأخذت تنهل من ينابيع الأدب حتى وصلت مبلغًا عاليًا في شهرتها بترجمة أعمالها إلى ما ينيف عن عشر لغات، ففي عام 1947 م فُتحت لها بوابة الأدب عن طريق الفوز بجائزة أفضل قصة في الوطن العربي من هيئة الإذاعة البريطانية، وبين هذا الانفتاح وتلك السياسات المغلقة في مجتمعها نشأت هذه المنارة الثقافية.

تقودنا الرواية إلى تمثل موقفين متلازمين في مجتمعاتنا العربية، وهما: تخلص الشعب من الاستبداد، وسعي المرأة الدؤوب في التخلص من العبودية ومساواتها بالرجل، فكانت ابنة الصالحية من نساء النهضة السورية وأحد أعمدة جمعية الندوة الثقافية النسائية اللواتي نهضن بالفكر العربي في دعواتهن للتحرير من التخلف والجهل، فعمدت في ملحمتها الذاتية إلى تكريس جهودها خدمة لوطنها أولاً وتركيبها الاجتماعي ثانيًا، فباحت بأسرارها في مذكرات تصف الثورة وتحمل همومها مقدمة حبّها فداءً لها، وورّثة كراسها الأزرق من العمة صبرية لابنة أخيها سلمى كي تصدّر تجربتها التي ستجدد أحلامها عما قريب نصرة للمرأة ، وتحمل شعلة الانتصار في أحلام الشعب والمرأة ضد سياسات التهميش التي ترمي إلى حرمانها من حقها في الكتابة الإبداعية، فعندما تحصل على حظوظ المشاركة في الإنتاج الفكري والحقوقي سيصعب على القراء سمة التمييز بين صورة المرأة وقلم الرجل، مما يؤكد أن لديها تصورًا مختلفًا للمسكوت عنه بمقدار الفروق الفردية بين الجنسين، وطريقتها الخاصة في التعبير سالكة سبيل البوح بمكنونات الذات في مذكرات مرحلية لحياة أمة بأكملها، فتبدع البطلة في سلسلة من الأحداث المتصارعة لإحداثيات الطرح الإشكالي في تفضيل الرجل على المقاس النسائي، فتتجاوز مرحلة التسلية والتجسيد في دور شهرزاد المعهود.

سعت الكاتبة إلى الإكثار من السرد شأنها في ذلك شأن النمط الكلاسيكي القائم آنذاك، مع القليل من الحوار والمناجاة اللذين كشفا الأبعاد الأيديولوجية للمجتمع الواقع تحت سلطة الاحتلال، فكونت رواية منولوجية وأحادية الصوت من خلال مذكرات البطلة ومغامراتها



"دمشق يا بسمة الحزن" رواية تسير بنا نحو الماضي الذي كنا سندفنه دون دموع، وتتشح بالألم الملازم للحياة العربية دون هوادة، وتجعل من الموت لغة مخملية متداولة لمعنى النصر، وتعزز ثقافة الاستسلام

مقصية الأيديولوجيات الأخرى التي تم تبخيسها فكريًا والانتقاص منها عمدًا، وانطلقت من الموضوعين السابقين المشار إليهما ، أي الشعب والمرأة لوضع تصورها العام المتطلع إلى المنظوم الأدبي، حيث سارت على خطى الجنس التعبيري في الرواية بوصفه جنسًا للحرية الذاتية والتعبير عن النزوات في أشكال زخرفية.

"دمشق يا بسمة الحزن" رواية تسير بنا نحو الماضي الذي كنا سندفنه دون دموع، وتتشح بالألم الملازم للحياة العربية دون هوادة، وتجعل من الموت لغة مخملية متداولة لمعنى النصر ، وتعزز ثقافة الاستسلام، فها هي دمشق وما حولها تعيش في خضم الرصاص والبارود، تعيد نظرة التخلف للأعداد المتزايدة من النساء في طاحونة الحرب، وتعود بنا لوظيفة الداية في الكشف عن عذرية الفتاة بعد طغيان العصابات التي عاثت في حديقة دمشق فسادًا، فمن يهرب من جدل السياسة إلى فضاء الثقافة سيصاب بنوبة حزن على العاصمة وما حولها، فدمشق الآن – رمز لما حولها – تنام على سجادة من الأشلاء، ترويها ألفت الإدلبي في نبوءة ملهمة حملتها من جدها لأمها الشيخ محمد حلبي الداغستاني الذي عرف بنضاله في القوقاز ضد الاحتلال الروسي الملطخ حاليًا بدماء الأبرياء.

قراءة في رواية "خابية الحنين" لجمال أبو غيدا



ظافر مقدادي

هيوستن - الولايات المتحدة

صدرت رواية "خابية الحنين" عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت ومكتبة كل شيء في حيفا عام 2016 وتقع في 464 صفحة من القطع المتوسط. وهي الرواية الأولى للكاتب جمال أبو غيدا. يعمل مؤلف الرواية جمال أبو غيدا من الناحية المهنية في مجال حماية حقوق الملكية الفكرية والعلامات التجارية وبراءات الاختراع وحقوق المؤلفين، وأيضًا في مجال الترجمة من باب الهواية، فقد ترجم كتاب ماري إليزا روجرز عن فلسطين من الإنجليزية إلى العربية (بعنوان الحياة في بيوت فلسطين)، وهو مواظب الآن على ترجمة كتاب القنصل البريطاني جيمس فين عن فلسطين (بعنوان أوقات مضطربة). وبذلك لا يكون المؤلف بعيدًا عن أجواء الأدب، خاصة وإنه قارئ وفي للأدب العربي والعالمي المترجم.

عنوان الرواية/ العتبة:

اختار المؤلف لروايته عنوانًا مركبًا بالإضافة: "خابية الحنين" ليكون عتبة القارئ التي من خلالها يلج إلى عالم النص في الرواية، وذلك لما يحمله العنوان من رسالة يبثها المؤلف إلى القارئ بما تحتويه من حمولات دلالية. فالكلمة "خابية" حمولة فلكلورية لها علاقة بموضوع الرواية علاوة على دلالتها اللغوية، فهي الجرّة الكبيرة التي يُحفظ فيها الماء أو الزيت أو الدقيق أو ما شابه ذلك، وقد استخدمت، وما زالت، من قبل شعوب المنطقة لهذا الغرض. وهي مجازًا "النار التي طَفِئَت وسكنَ لهبها" (معجم المعاني الجامع)، وكذلك يمكن لدلالتها الانزياح باتجاه "الحب" الذي سكن لهبه. والخمرة هي بنت الخابية لأنها تُحفظ فيها، وهذا المعنى يأخذنا إلى "النشوة"، خاصة وأن المؤلف أضاف كلمة "الحنين" إلى كلمة الخابية، وما تعنيه كلمة الحنين من الشوق والتوق، وبذلك يكون قد عكس المعنى المجازي للخابية ليصبح "النار التي لم يسكن لهبها"، كون أن الحنين ما زال متقدًا فيها. و"الحنّة" هي رقة القلب، والحنين هو "صوت الذي في فؤاده نزعة ألم" (المعجم السابق). وكأن الكاتب يريد أن ينبهنا من البداية أن موضوع روايته مرتبط بالوطن وقضاياه، وأننا أمام رواية عن شوق وتوق وأصوت فيها نزعة ألم لشخصيات وأحداث وحكايات سكنت في "خابية" من خبايا الذاكرة عسى لهب النار "يخبو" مع مرور الزمن، إلا أن نشوة الشوق عند هذه الشخصيات المسكونة بذلك الحنين الموجع أبت عليها إلا البوح.

موضوع الرواية وهدفها وأهميتها:

تنتمي رواية "خابية الحنين" إلى الرواية التاريخية الواقعية في الأدب، فهي تستند إلى أحداث تاريخية وقعت فعلاً في الأردن. الحدث الأول هو حرب أيلول عام 1970 بين الجيش الأردني والثورة الفلسطينية، والثاني هو أحداث جامعة اليرموك في مدينة إربد عام 1986. ولكن الرواية لا تهدف الى أي تسجيل أو توثيق تاريخي (أو تأريخ) للأحداث، وإنما إلى سرد روائي لتجارب وحكايات شخصيات روائية تمّ أسقطها على الخلفية الزمانية - المكانية للواقع. وهنا تكمن أهمية الرواية، إذ إنها تعالج روائيًا موضوعين لم يُعطيا حقهما في الأدب الأردني والفلسطيني والعربي، وهما أحداث أيلول عام 1970 وأحداث جامعة اليرموك عام 1986. وكأن الراوي يهدف إلى حث القارئ على الحكم على الأحداث من خلال تجارب شخصيات الرواية وحكاياتها بعيدًا عن المدونة التاريخية والأحكام الأيدولوجية أو السياسية الرسمية لهذه الجهة أو تلك. وكأنه يريد منا كقرّاء أن نلقي نظرة نقدية على الأحداث من خلال تجارب شخصيات الرواية البسيطة والعفوية بما تحمله من ترقب وخوف وحزن وفرح وألم وأمل وحب وكره وتعاضد وتلاحم وتآخي. وبذلك يمكننا القول أن الرواية هي رواية تاريخية واقعية نقدية.

مكان الرواية وزمانها:

مكان الرواية الرئيسي هو الأردن، وبالذات عمّان وأربد، والزمان هو عام 1970 وعام 1986. إلا أن الرواية تتطرق إلى أماكن أخرى ثانوية للأحداث في فلسطين (القدس، حيفا، سلواد) والشام ومصر في أزمان مختلفة تصل إلى ما قبل النكبة عام 1948. فالرواية مترامية الأطراف تكاد تغطي مساحة القضية الفلسطينية وعلاقتها بالتجربة الوطنية في الأردن. تعدد الأماكن أغنى الرواية بتعدد البيئات والمناخات، خاصة أن الراوي يُسهب في الوصف، الأمر الذي يحمل القارئ إلى مناخات وبيئات مختلفة: من مناخات أحياء عمان إلى مناخات أربد وجبال عجلون وحيفا والقدس وسلواد.

شخوص الرواية:

شخصيات الرواية عادية وبسيطة، فهي شخصيات شعبية ومتنوعة تعيش حياتها ببساطة وتُمثّل المجتمع الأردني، فمنها الأردني والفلسطيني والشامي والعراقي والشركسي، ومنها المسيحي والمسلم واليهودي والملحد، ومنها الحالم والقنوع، ومنها الخيّر والشرير، ومنها الغني والفقير، ولكنها برغم تنوعها واختلافها إلا أن ما يجمعها هو إنسانيتها وحبها للعيش بسلام وأمان ومحبة. إنها شخصيات تشبهنا نحن القراء، فكل منا سيجد له شبيهًا (أو توأمًا) في الرواية، أو على الأقل شخصًا يتعاطف معه، مما يعطي الرواية بعدًا حميمًا. وقد أجاد المؤلف في رسم الشخصيات إما عن طريق

الوصف أو الحوار أو المناجاة والتأمل أو عن طريق مواقفها من أحداث الرواية. فتجسدت أمامنا شخصيات حقيقية من لحم ودم.

الشخصيتان الرئيسيتان في الرواية (أو البطلان) هما "فوّاز" الفدائي الفلسطيني، وابن أخيه "نايف" الطالب الجامعي في جامعة اليرموك والمنتمي لحزب يساري تقدمي. فواز هو الأخ الأصغر لسلمان وفايز. وسلافة هي زوجة سلمان وابنة عمه. أما ذوابة فهي أم سلمان التي كانت على استعداد نفسي تام لتقبل فكرة استشهاد زوجها أبي سلمان فيما لو سقط خلال الدفاع عن حيفا في حرب النكبة عام 1948. هذه العائلة الفلسطينية أصلها من حيفا. وقد لجأت الى الأردن وسكنت في عمان في قسم من بيت أم عواد، العجوز الأرملة الأردنية المسيحية التي استشهد زوجها في فلسطين في معركة "باب الواد". أما ابنها البكر، عواد، فهو صديق سلمان وقد التحق بالجيش الأردني، وأقسم لسلمان أنه لم "يدخل الجيش غير مشان شغلتين: آخذ بثار أبوي، وأشوف بحر حيفا".

وهناك شخصيات أخرى ثانوية تدور في فلك هاتين العائلتين إما بحكم القرابة أو الجوار أو العمل، مثل أبي عوني اللداوي صاحب المخرطة التي يعمل فيها سلمان، وأبي العز اليافاوي صديق سلمان، وأبي غاندي الشركسي الشاويش السابق في الدفاع المدني، وزبهانة خالة فواز وزوجها حسن الحسين، والشيخ مفضي باشا اللواء المتقاعد من الجيش الأردني وعائلته. معظم هذه الشخصيات كانت تعيش في حارة واحدة قريبة من "حي ماركا" في عمان. وقد جعلت منها الجيرة والهموم والأحلام والمصائر المشتركة عائلة واحدة بكل معنى الكلمة. وكانت تعيش بترقب وقلق وخوف بسبب أحداث أيلول. إذ إن موقع الحارة كان بين حامية الجيش الأردني في معسكرات سلاح الجو المتاخمة لمطار ماركا وقواعد الفدائيين الفلسطينيين في الهاشمي الشمالي على الجهة المقابلة.

في جامعة اليرموك ارتبط نايف بياسمين بقصة حب تبدو "طلابية" إلا أنها ستبقى جرحًا غائرًا في خاصرة الذاكرة حتى بعد مرور ربع قرن. وياسمين طالبة من سكان القدس أصلاً وقد عاشت معاناة الاحتلال ولم تلتحق بالتنظيم اليساري في الجامعة كما الحبيب نايف لأنها كانت ترى في العمل الطلابي "استعراضًا وتشبيحًا وتنظيرًا ومزاودة". أما عطا فهو المسؤول الحزبي لحلقة نايف الحزبية (بالإضافة إلى رانيا). وهو شاب مغرور وأرعن، ولم يفهم من العمل الثوري اليساري سوى بعض الشعارات وتعليق صورة جيفارا وخارطة فلسطين على حائط غرفة سكنه الطلابي في إربد. وكان مغرمًا بشرب الويسكي "بلاك اند وايت". وكان يدخن "المارلبورو" في السرّ والدخان الأردني في العلن. أما المهندس مازن فهو مسؤول التنظيم الحزبي بأكمله في الجامعة، وهو خريج جامعة الصداقة في موسكو في السبعينيات، وكان نشيطًا في العمل النقابي في نقابة المهندسين في إربد. وهناك طلاب آخرون مثل هايل ذي الاتجاه الإسلامي، ورؤوف اليساري الواقعي المتزن، ويونس

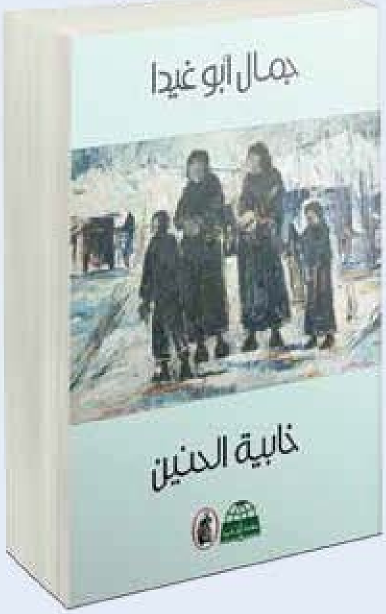
”
الرواية تنتمي إلى الروية العربية الحديثة التي انتشرت في ستينيات وسبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، فهي تعتمد الأسلوب نفسه في البناء الروائي بما فيه من استرسال واسترجاع، وتتبع تقنية السرد نفسها للراوي العليم الذي يروي بصيغة ضمير الغائب الذي يُسهب في الاطناب، وهي كذلك رواية واقعية تستند إلى أحداث تاريخية موضوعها له علاقة بالوطن
“

العراقي الشيوعي العتيق الذي كان يؤمن أن "السياسة ابتذال للفلسفة وتحقير لها".

لا تنمو الشخصيات مع تطور الأحداث في السرد. فالحقبة الزمنية للأحداث قصيرة جدًا ولا تسمح بذلك. ولكن الشخصيات تتأثر بتجاربها الشخصية ما يؤدي الى تغيّر في وعيها وفلسفتها وأفكارها وفهمها للحياة. خاصة حين تصل الأحداث إلى الذروة (أو العقدة) التي من خلالها تتفجر البراكين الكامنة في أعماق وعي ووجدان الشخصيات لتزلزل قناعات كانت مترسخة عميقًا في أذهانها.

عرض مختصر للرواية:

"داخل على الله وعليك عمّي".. كانت هذه آخر جملة قالها الفدائي فواز مساء ذلك اليوم من شهر أيلول عام 1970 قبل أن ينهار ويقع أرضًا مغميً عليه. كان فواز، أو الرفيق فهد، قد التحق بالثورة الفلسطينية، وانضم إلى الفدائيين في عمان بعد أن تخرج من جامعة دمشق. عمل في الإعلام الفلسطيني في مكاتب الفصيل، الذي انتمى إليه بُعيد معركة الكرامة، في جبل اللويبدة في عمان وخضع لعدة تدريبات عسكرية في الأغوار وجبال عجلون، حيث تواجدت قواعد الفدائيين الفلسطينيين. كان الرفيق الأمين العام للحزب الثوري، الذي ينتمي إليه فواز يريد أن يحوّل عمان إلى "هانوي الثورة" عبر المقالات الثورية والحماسية التي كان فواز يبدع في كتابتها في جريدة التنظيم. إلا أن اشتداد معارك حرب أيلول أجبر فواز على الهروب من مكتبه الإعلامي، الذي حاصرته وحدات من الجيش الأردني، باتجاه جبل عمان. وهناك أصابت رصاصة كتفه الأيمن. في صباح اليوم التالي حين فاق من غيبته وقعت عيناه على صورة كبيرة معلقة على الحائط لضابط يحمل رتبة لواء في الجيش الأردني بالملابس العسكرية والأوسمة والنياشين. ظنّ لوهلة أنه قد تم القبض عليه وأنه في إحدى مباني المخابرات الأردنية أو ما شابهها. ولم يبدد خوفه سوى صوت رجل كبير في السن "إنت يا وليدي في بيتي، ودخيلي، أنا عمك أبو عقلة، الشيخ مفضي الصبيرات. ولا تخاف، أنت هون بأمان لو قاتل ولدي عقلة يا بوي. واللي بيصير عليك بيصير علي". كان شيخ عشيرة الصبيرات، مفضي باشا، لواءً متقاعدًا من الجيش الأردني وقد خاض حربين في فلسطين عامي 48 و67. وقد تصرف حسبما تمليه



قناعاته بشأن حماية الدخيل بالرغم من موقفه المتناقض من موقف فواز من أحداث أيلول. وقام بمساعدة زوجته وأبنائه بتنظيف جرح فواز السطحي وإسعافه. تغيّر فواز كثيرًا خلال هذه التجربة. إلا أن بوصلة قلبه كانت باتجاه فلسطين. فقرر الالتحاق برفاق الثورة في جبال عجلون مصرًا على أن الثورة بحاجة إلى تصحيح. ستكون هناك مفاجأة هائلة بانتظار فواز في قواعد عجلون.

ومثلما تاهَ فواز في دهاليز فلسفة الثورة وأهدافها وطرائقها وأدواتها. سيتوه ابن أخيه نايف بعد خمسة عشر عامًا في البحث عن الطريقة الأمثل للنضال من أجل فلسطين والأردن من موقعه كطالب جامعي في جامعة اليرموك حين كان الأردن ما زال خاضعًا للقوانين العرفية. وقتها كان العمل الحزبي محكومًا بالسرية التامة. كان نايف طالبًا وطنيًا يساريًا و"مسكونًا بتراث الثورة الفلسطينية ومقاتليها". لهذا التحق بالتنظيم اليساري الماركسي الذي كان ينشط في الأوساط الجامعية بالسر. وكان يداوم على حضور الاجتماعات الحزبية السرية. كان نايف عضوًا حزبيًا مثقفًا ونشيطًا وساهم في استقطاب الكثير من الطلاب. خاصة أن الانتخابات الطلابية كانت على الأبواب وأن التنظيمات اليسارية كانت قد ذاقت هزيمة قاسية على يد التيار الإسلامي الذي فاز في الانتخابات الطلابية الأخيرة. إلا أنه بحكم ثقافته ووفائه لمبادئه اليسارية كان كثير التساؤل وكان لا يتوانى عن طرح العديد من الأسئلة في الاجتماعات الحزبية. مثل: مدى تقبّل الفكر الماركسي اللينيني من قبل شرائح المجتمع الأردني المتدين؟ وهل هناك فعلاً طبقة عمال وكادحين في بلد يفتقر للبنية الصناعية التحتية؟ وما علاقة العمل الطلابي في الجامعة بالقضايا الوطنية الكبرى في الأردن وبالقضية الفلسطينية؟ ما علاقة الخاص بالعام؟ هذه الأسئلة كانت تستفز عطا. مسؤوله الحزبي الأرعن، الذي كان لا يرى فيها سوى ترفًا وتشبيحًا فكريًا لا لزوم له وتحديًا لقدراته الفكرية. فكان رده يأتي على طريقة "ولك شايف كل جدلية عمك ماركس، ومن قبله هيغل، هيّاها

تحت أباطي"، هذا علاوة على اتهاماته المستمرة لنايف بأن له علاقات مع "البرجوازية الصغيرة"، والتي كان يقصد بها علاقاته بالحبيبة ياسمين، الطالبة المقدسية، ابنة مالك الفندق الصغير في القدس.

كانت الأمور في الجامعة تتجه باتجاه التصعيد بسبب قرار الجامعة فرض رسوم على التدريب الصيفي لطلاب كلية الهندسة، الذي كان تدريبًا مجانيًا، الأمر الذي رأت فيه قيادة التنظيم، الذي ينتمي إليه نايف فرصة ذهبية لاستعراض قوة طروحاته في الوسط الطلابي وممارسة عمل نقابي يثبت للطلبة والمجتمع أن اليسار أكثر التصاقًا بقضايا الطلبة وهمومهم من التيار الإسلامي. تحالفت القوى الطلابية على اختلاف أيدولوجياتها في الجامعة للحشد ضد هذا القرار وللطلب من رئاسة الجامعة بسحبه ووقف الفصل التعسفي للطلبة، إلا إن قرار الجامعة جاء بالرفض. بدأت الاعتصامات الطلابية في الجامعة، وأخذت الأمور تزداد توترًا، ووصل عدد المعتصمين إلى الآلاف داخل الحرم الجامعي. لم تتنازل إدارة الجامعة وأخذت بالتصعيد من جانبها بحشد الأجهزة الأمنية لفك الاعتصام بالقوة. وفي شهر رمضان في الرابع عشر من أيار عام 1986 وصل هدير هتافات الطلاب المعتصمين إلى خارج أسوار الجامعة "وحّد صفّك.. وحّد صفّك.. بالعالي سمّعني كفّك". وبدأت التعزيزات الأمنية بالإحاطة بالجامعة من كل الجهات: قوات أمن عام، مكافحة الشغب، قوات البادية. شقّ سكون الليل أصوات الطلاب، خاصة صراخ الطالبات وأصوات الرصاص والقنابل المسيلة للدموع، وسال الدم وسقط قتلى من الطلاب. بعد مدة من الأحداث قامت قوات الأمن بملاحقة الطلبة المُنظّمين للاعتصام واعتقلتهم وكان نايف من بينهم، وتم احتجازه في السجن، وخاض تجربة الاعتقال والسجن بكل قساوتها في سن مبكرة من عمره. اكتشف في أثناء التحقيق أشياء كثيرة فاتته، وكعمّه فواز ستكون هناك مفاجأة في انتظاره في مبنى المخابرات العامة في أثناء التحقيق، ستُغيّر الكثير من قناعاته، وستثور بداخله براكين وتزلزل كيانه زلازل.

بناء الرواية:

اعتمد المؤلف في بناء معمار الرواية على السرد والوصف والحوار والمناجاة. السرد يأتي من الراوي العليم (كلي المعرفة) الذي يروي الأحداث ويصف الأماكن والشخصيات بصيغة الضمير الغائب (هو)، ولكنه يفسح المجال أحيانًا للشخصيات نفسها لتقوم بفعل السرد بصيغة ضمير المتكلم (أنا)، وبذلك تتعدد الأصوات في الرواية. والسرد نفسه يتقدم ويصعد مع الزمن باتجاه العقدة، ولكن هذا الصعود لا يأتي بخط مستقيم، وإنما بتقنية التقطيع والتكسير الزمني للأحداث التي تسير وفق مسارين متوازيين (مسار عمان 1970 ومسار إربد 1986)، بحيث إن المؤلف يداوم على القفز بين زماني ومكاني الرواية (السرد بالتناوب)، الأمر الذي يزيد من عنصر التشويق في الرواية، ويُبعد الملل عن القارئ. ولكي يتفادى الكاتب أي التباس يمكن أن يحصل مع القارئ يُعطي كل "قفزة" عنوانًا فرعيًا يُبيّن المكان والزمان أو الأسماء، مثل: "عمان، الجمعة 14 آب 1970"، أو "سلمان توفيق الكمالي". والسرد لا يسير من الماضي إلى الحاضر فقط، وإنما يرتد إلى الماضي بتقنية الاسترجاع (فلاش باك). أي أن الكاتب استعمل تقنية المونتاج السينمائي.

يُكثر المؤلف من الاسترسال في سرد الأحداث، حيث إنه يَنسُل الحكايات من بعضها البعض بطريقة مشوقة ومسلية. فحكاية سلمان تنسلّ منها قصة زوجته سلافة وأسرتها التي تعيش في الشام وحكايتهم في حيفا، ومن حكاية سلمان أيضًا تنسلّ حكاية أم عواد وزوجها الشهيد وابنها عواد وحفيدها متري، وكذلك قصة أبي العز الكندرجي المثقف الذي يأخذنا بدوره إلى نابلس، حيث قصة خاله أبي الحكم الذي ذهب للدراسة في القاهرة، وكذلك تنسل حكاية أبي عوني الذي شهد معركة القسطل. ومن حكاية فواز تنسل حكاية أمه الحاجة ذوابة وزوجها مع المستوطن اليهودي مردخاي في حيفا، ومن حكايتها تنسل قصة مردخاي الأمريكي البولندي الأصل. ومن حكاية فواز أيضًا تنسل قصة الشيخ مفضي باشا وعائلته وعلاقتهم بالقدس، وكذلك تنسل حكاية زيهانة وزوجها حسن الحسين في سلواد. ومن حكاية نايف تنسل حكاية ياسمين وعائلتها في القدس، وحكاية أبي السعيد الفدائي السابق، وكذلك حكاية المهندس الرفيق مازن. وحكايات أخرى كثيرة تتشظى في أمكنة وأزمنة مختلفة.

أسلوب السرد هو الحكي والقص البسيط غير المُتكلّف، فالقارئ يشعر أن الكاتب يحكي له ويقص عليه حكايات ببساطة وعفوية، وكأنه يُسامره. أما الوصف فيُكثر منه المؤلف سواءً كان وصفًا للشخصيات أو الأماكن، الأمر الذي مكّن الكاتب من رسم أماكن وشخصيات الرواية بكل وضوح، وفي أحيان كثيرة بأدق التفاصيل معتمدًا تقنية التصوير السينمائي. أما الحوار فيتم بين شخصيتين أو أكثر باللهجات العامية للشخصيات، ويهدف الحوار إلى مساندة السرد في بناء الرواية ورسم الشخصيات وتوضيح أفكارها وقناعاتها وهمومها وتوتراتها، خاصة عندما تظهر لنا الشخصية وهي تناجي نفسها.

النهايات المقفلة والمفتوحة للرواية:

يعتمد المؤلف على النهاية المفتوحة في نهاية الرواية لمعظم الشخصيات، فلا يخبرنا عن مصائرها بل يُبقيها لحدس القارئ وتوقعاته بل ورغباته، ربما ليفسح له مجالاً للمشاركة في التأليف. ويعتمد النهايات المقفلة لحكاية فواز، ربما أراد من ذلك إبراز قوة الحدث وما سيتركه من أثر في وجدان القارئ، وكذلك لتوظيف الإيحاء من خلال الحدث ورمزيته التي تقود القارئ إلى ما وراء الحدث نفسه وما يحمله من معنى واستنتاج. أما نهايات حكايات جامعة اليرموك، فيتركها المؤلف لا مقفولة ولا مفتوحة، وإنما نهاية يُمكن تسميتها بالنهاية المستمرة. سنرى في الفصل الأخير من الرواية أن أشياء كثيرة قد تغيرت في حياة وقناعات الشخصيات. إنها الحياة تأخذ ساكنيها إلى حيث تريد، أو كما قال محمود درويش "ولأنهم لا يعرفون من الحياة سوى الحياة كما تُقدّمها الحياة لم يسألوا عمّا وراء مصيرهم" (مأساة النرجس، ملهاة الفضة).

اللغة والرمز والإيحاء:

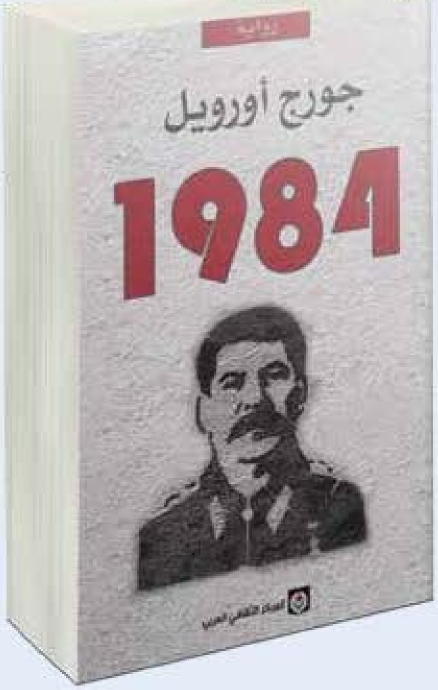
لغة السرد في الرواية على لسان الراوي العليم هي اللغة العربية الفصحى والصحيحة، ولكنها لغة بسيطة في تراكيبها، ربما لأن ذلك يناسب موضوع الرواية التاريخية الواقعية وشخصياتها البسيطة. ومع أن لغة الرواية ليست رمزية إلا أن الكاتب يستعمل التشبيه ودروب المجاز والاستعارة لتوظيف الإيحاء. أما لغة الحوار والمناجاة فهي اللهجات العامية، حيث تتحدث الشخصيات بلهجاتها العامية بكل علّاتها النحوية، التي يتعمد المؤلف تركها دون تصحيح: الأردنية، الفلسطينية المدنية والفلاحية، الشامية، العراقية، الأمر الذي يضفي على الرواية جمال التلوين، ويجعل من الشخصيات أكثر قربًا لقلب القارئ. أما الإيحاء فيأتي كحدث يرمي إلى ما وراء الحدث نفسه، مثل تدخين عطا للمارلبورو في السر والدخان الأردني في العلن لإيهام الجماهير بدعم طبقة العمال الأردنيين، وما يعنيه ذلك من مرض النفاق في المسيرة الثورية النضالية. هذا بالإضافة الى تضمين الرواية بعض الأناشيد والأغاني الفلكلورية (الاقتباس).

نقد وخلاصة:

يمكننا القول: إن الرواية تنتمي إلى الرواية العربية الحديثة التي انتشرت في ستينيات وسبعينيات وثمانينيات القرن العشرين، فهي تعتمد الأسلوب نفسه في البناء الروائي بما فيه من استرسال واسترجاع، وتتبع تقنية السرد نفسها للراوي العليم الذي يروي بصيغة ضمير الغائب، الذي يُسهب في الإطناب، وهي كذلك رواية واقعية تستند إلى أحداث تاريخية موضوعها له علاقة بالوطن، أي أنها تهدف إلى إثارة الأسئلة الوطنية الكبرى. الأسهاب في الوصف أعطى الرواية نوعًا من الإملائية على القارئ وفي بعض الأحيان نوعًا من التقريرية، مع أنه أفاد الرواية من ناحية رسم الشخصيات والأماكن، إلا أنه يحرم القارئ من لذة الولوج إلى الرواية والمشاركة في التأليف عن طريق التخيّل، ومع ذلك فإن مهارة الكاتب في ممارسة فن الغواية قد يستدرج القارئ للمشاركة في الرواية عن طريق الشبيه (أو التوأم). أما سرد الراوي العليم بصيغة الضمير الغائب (هو) فقد قلل من مصداقية الأحداث وحميميتها بالنسبة للمتلقي (القارئ) كونها تأتي من طرف ثالث، بعكس السرد بصيغة المتكلم (أنا) التي تضفي مزيدًا من المصداقية والحميمية على النص بالنسبة للمتلقي كونه يأتي من شخصيات الرواية نفسها مباشرة.

في النهاية، الرواية رغمًا عن أنها التجربة الأولى للكاتب إلا أنها رواية جيدة وشيّقة وممتعة، والأهم من ذلك مفيدة، خاصة للجيل الجديد الذي لم يعايش الأحداث التاريخية للرواية، أما الجيل الذي عايش الأحداث فسيجد فيها فرصة للتأمل في الماضي والحكم عليه من خلال التجارب الإنسانية لشخصيات الرواية. إنها رواية تستحق القراءة بجدارة، ويستحق مؤلفها، جمال أبو غيدا، كل الشكر والتقدير.

قراءة في رواية "1984" للكاتب جورج أورويل



رنا القفاري

كاتبة وشاعرة - القصيم - بريدة

"كان يومًا باردًا من أيام نيسان"

يستفتح جورج أورويل رائعته من خلال هذه الجملة التي قد تشعر إزائها بلسعة برد ناعمة ولكنك لن تجد في الرواية سوى "دقيقتي الكراهية، الأخ الأكبر، شرطة الفكر، غرفة 101..." وغيرها الكثير من المصطلحات التي أصبحت دارجة ومستخدمة في ديدن القراءة عامةً.

بدايةً لنسأل أنفسنا ما هو المعيار المحدد للنجاح في الرواية؟

من وجهة نظري عندما ترتدي الرواية لباس الحقيقة لتصبح جزءًا منها، بل وإنها تتجاوز ذلك في بعض الأحيان لتصبح مقنعة أكثر من الواقع ذاته يمكن تحقيق ذلك من خلال الشخصيات، فمثلاً في شخصية زوربا اليوناني للكاتب نيكوس كازنتزاكي تجسدت لنا إلى الحد الذي جعل الكاتب جورج أمادو يحاكيها بشخصية زوربا البرازيلي أو أرشجانو كذلك الحال بالنسبة لشخصية لوليتا التي أصبحت عالمية بطريقة جعلت العلماء والأطباء النفسيين يأخذونها على محمل الجد من خلال الاستعانة بها في التشخيص والدراسة بالحديث عن رواية 1984، فهي ذات طابع ديستوبي... تقع أحداثها في بريطانيا العظمى، وقد تم نشرها في منتصف القرن العشرين الجدير بالذكر ترجم الرواية لأكثر من 60 لغة بل إنه لا تكاد تخلو لغة من عدة ترجمات مختلفة لها أيضًا تعد من أجود كلاسيكيات الأدب الفكري السياسي تتحدث الرواية عن النظام القمعي الشمولي الخاضع للرقابة بشكل كامل، حيث إن جريمة الفكر والكتابة قد تكلفك السجن 25 سنة مع الأعمال الشاقة أو الموت "إن جريمة الفكر لا تفضي إلى الموت: جريمة الفكر هي الموت نفسه" النظام يتجاوز ذلك ليصل إلى فبركة الحقائق وتغيير الماضي ومسح السجلات وتعديلها، أي (طمس الحقيقة)، حيث لا وجود إلا للحاضر هناك شعارات الحزب الثلاثة هي:

الحرب هي السلم

الحرية هي العبودية

الجهل هو القوة

ولم يتوقف النظام هنا فحسب وقام باختراع "لغة جديدة" تحمل فيها المفردات معنًى متضادًا لتفعيل التفكير المزدوج ويقومون بشكل دوري بحذف مفردات لغوية واستبدالها لتحجيم اللغة وتفادي قدرة التعبير أيضًا يقومون بمعاملة الزواج على أنه مؤسسة اجتماعية تنتج الأطفال لدعم المنظمة فقط تعمل المنظمة هناك على إنتاج كم هائل من المواليد، لكي ترفع اقتصادها وسيطرتها، ومن ثم تأخذ الحرب كذريعة لإتلاف هذه المواليد.. الشعب هنا ممنوع من الرفاهية، بل وحتى من مذاق الشوكولاته، وهي تقوم باختلاق منظمة معادية تدعى الأخوية تعمل على إسقاط الأخ الأكبر الذي هو غير موجود إلا بالاسم، ولكنها في الحقيقة منظمة تابعة للحزب عملها هو القبض على المشتبه بهم، ولكن لا تقوم بقتلهم إلا بعد ما تكسبهم الولاء الكامل للحزب هنالك ثلاث مراحل يجب أن تمر بها حتى يتم إعادة تأهيلك من جديد، وهي التعلم ثم الفهم ثم القبول من خلال استخدام أفظع أنواع التعذيب، لكي تقبل بعدها بأي حقيقة يلقنونك إياها وبوعي وقناعة كاملة.

يتكون جهاز الدولة من 4 وزارات:

وزارة الحقيقة المسؤولة عن تزوير التاريخ.

وزارة السلم المختصة بالحرب.

وزارة الوفرة المعنية بتحجيم الموارد والشح بها.

وزارة الحب، والتي من عملها نشر الكراهية.

بالضبط هذا المقصود بازدواجية التفكير.

تعد هذه الرواية مثل صفعة لمن يدعي أن الرواية مجرد تذوق أدبي ومضيعة للوقت، أنا هنا أود التعليق على هذا الجدل من واقع تجربتي الأدبية، انتشرت مؤخرًا الكثير من الروايات والدواوين ذات الأغلفة الجميلة، التي تستخدم للتصوير بجانب كوب قهوة أكثر منه للقراءة، وباعتبار إن هناك قصورًا واضحًا لدور المكتبة العربية في تصنيف كتب الناشئين نتج عنها حالتين للقراءة غير السليمة:

الحالة الأولى: القارئ المغرور وهو عادة يكون مبتدأ لا يقبل بمثل هذه الكتب، بل إنه يتجاوزها ليختار القراءة في مجالات أدبية دسمة ومتخصصة، مما يؤدي إلى اكتئاب ومشكلات نفسية أخرى قد يترتب عليها كره القراءة.

الحالة الثانية: القارئ المؤهل للمرحلة التالية الذي بدوره ينجرف مع التيار الأدبي المذكور سلفًا، ليجد نفسه بين أكوام من السطور، التي لا تثري المحتوى الأدبي، وهي في الحقيقة مجرد مرحلة انتقالية مؤقتة كوني كاتبة، والكاتب وإن حاول فهو لا يستطيع التعبير بحيادية مطلقة وبشكل موضوعي، فمن خلال تجربتي مع الأدب الروسي توصلت إلى اعتقاد مفاده أن الرواية مجرد قالب لإيصال الفكرة، فعلى سبيل المثال لا الحصر دوستويفسكي إن لم يكن كاتبًا متخصصًا بعلم النفس، فهو عالم نفس بالفطرة، ويتضح ذلك من خلال رواياته الوجودية والفلسفية التي أبدع فيها بالغوص في خبايا النفس البشرية، ووصف انفعالاتها أيضًا أحلام مستغانمي كتبت الكثير من الروايات، التي لا تحتوي على قصة أو أحداث، فهي كما يقال بلا رأس وذيل ومقطوعة الأحداث، لأنها تركز على لغة أدبية بحتة عن طريق النثر لكونها شاعرة وأديبة، لذلك قلت سلفًا: إن الكاتب لا يستطيع أن يكون حياديًّا وإن حاول بفرض إننا اتفقنا أن الرواية ليست ذات قيمة إلا أن الجمال له قيمة، بل وإنه ضرورة لا أحد يسأل عن فائدة صوت الكمنجة الجميل.

أخيرًا

لماذا عليك أن تقرأ رواية 1984؟ يقول أحد الأصدقاء -لأنها مربكة فكريًّا، لأنها أكثر الأعمال رعبًا- أنهي حديثي باقتباس جميل من الكتاب.

"سوف نلتقي في مكانٍ حيث لا ظلمة".

أصالة
إبراهيم عبدالقادر المازني



د. حسن كمال محمد محمد
الرياض

هل كان المازني أديبًا أصيلًا؟
لكي نجيب عن هذا السؤال يلزمنا أن نطوف تطويفة في حياة ذلك الرجل، فنقول:
حين يجري ذكر إبراهيم عبدالقادر المازني (1889–1949م) – وهو حقيق بالذكر – من وقت إلى آخر، وما بين الفينة والأخرى، نتذكر تلك التهمة الغريبة التي رُمِي بها من لدن صفيّه ورفيق دربه عبدالرحمن شكري (1886–1958م)، وأيضًا ما إن نتذكر هذين العلمين – المازني وشكري – إلا ويقفز إلى أذهاننا عباس محمود العقاد (1889–1964م)، وما إن يجتمع هذا الثالوث إلا وتقفز إلى ذواكرنا تلك المعارك الأدبية حامية الوطيس، التي انطلقت في مطلع القرن العشرين مخلفة وراءها حممًا نقدية وشظايا أدبية أذكت الحياة الأدبية في مصر، بل وفي الأوطان العربية قاطبة، وما زالت تذكي حتى اليوم.

لقد كانت حياة المازني مليئة بكثير من الجوانب المظلمة التي كان لها أثر كبير في إبداعاته، ونفسيته، وتصرفاته، إذ تصالحت عليه كثير من المعضلات التي جعلته ذا ذات مميزة متفردة من بين ترب شعرائنا وكتّابنا.

وأول المعضلات التي كان لها كبير الأثر في نفسيته الإحساس بالنقص والضآلة، إذ خُيِّل إليه – أو أنه كان كذلك – أنه قصير، ودميم، وذو صورة لا تطاق، وهذا الإحساس كان قمينًا بأن يدمّره، ويقضي عليه، ولمّا لم يفعل ذلك، فقد أودع في نفسه كثيرًا من الحساسية المفرطة.

وثاني المعضلات معضلة ضيق ذات اليد، فقد كان فقيرًا، ووضح ذلك في أنه كان يودّ الالتحاق بكلية الحقوق، ولكن مصاريفها كانت قد زادت في هذا العام، فالتحق بمدرسة المعلمين التي تمنح تلاميذها مبلغًا من المال عند الالتحاق بها.

وثالث المعضلات تلك الحساسية والنفس الشفافة التي كان عليها، وقد وضحت هذه الصفة لديه عندما التحق بكلية الطب بدايةً، فما إن رأى غرفة الجثث والتشريح، حتى ولى هاربًا إلى غير رجعة.

ويضاف إلى هذه المعضلات والرزايا التي رزح تحت وطأتها في مقتبل حياته، العرج الذي أصيب به، عندما كان في طريقه لإحضار الدواء لزوجه الأولى، وبذا يضاف العرج إلى القصر والقماءة، وأيضًا من الرزايا الفطرية التي رُزِئ بها رزية النسيان السريع جدًّا، فما يقرأ شيئًا إلا وينساه، وظهر ذلك في أنه عندما كتب (إبراهيم الكاتب) لم يرضَ عنها، فوضعها في درج مكتبه، ثم عاد إليها بعد ذلك لينشرها، ولكنه نسي عن أي شيء تدور، فتصرف فيها بعض التصرف، وصاغها من جديد، وكثير من هذا القبيل بيّن مدى طغيان هذه الآفة عليه.

وأيضًا من الآفات التي أصابته في حياته إصابته بالنورستانيا: لتربيه في أحد القبور وملامسته أجساد الموتى – كما زعم – إذ كان يقطن في منطقة مقابر على تخوم العالمين، كما أسماها في (حصاد الهشيم)، فقد قال: ميتي على حدود الأبد – لو كان للأبد حدود – وليس هو بيتي، وإن كنت ساكنه، وما أعرف لي شبر أرض في كل هذه الكرة، ولقد كانت لي قصور – ولكن في الآخرة!! – بعت بعضها والبعض مرهون بحينه من الضياع، ووقفت معلقًا بين الحياتين، كما سكنت على تخوم العالمين[1].

ومثل هذه النقائص والآفات كانت كفيلة بأن تقضي عليه القضاء الذي لا قيام له بعده، ولكن قوة شكيمته ونفسه القوية حالت دون ذلك، ولكنها لم تسلمه لنا صحيحًا معافى، فقد تركت في نفسه وإبداعه الكثير من الشروخ التي تمثلت في الفلسفة التي كان عليها، والتي اتخذت السخرية اللاذعة من كل شيء أداة لها ووسيلة للتعبير عنها.

وانطلاقًا من هذه الفلسفة التي آمن بها المازني، واتخذ لها السخرية مُعبِّرًا، سخر من كل شيء يعرض له في حياته، حتى نفسه سخر منها، وحتى إبداعه الذي أبدعه، فإن عناوين كتبه على سبيل المثال تجعلنا نشعر بالاستغراب والدهشة، عندما نطالعها، فها هي: (حصاد الهشيم) و(قبض الريح) و(صندوق الدنيا) و(خيوط العنكبوت)، فكل هذه العناوين لا تدل على شيء غير السخرية، والضعف، والملهاة.

فـ(حصاد الهشيم): أولًا الهشيم ليس له حصاد، فهو يُذَرّ في الهواء، ولا فائدة منه، ولا جدوى من ورائه، وإنما يدل على الضعف، و(قبض الريح): فإذا قبضنا على الريح، ماذا يبقى لنا؟ دون شك لا شيء، وهذا أيضًا يدل على الضعف والعدم، و(صندوق الدنيا): عبارة عن ملهاة، ولعبة من لعب الأطفال، وهذا يدل على السخرية والضعف أيضًا، و(خيوط العنكبوت): هي أضعف شيء، كما عبّر عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ العنكبوت: 41.

وبذلك يتجلى هذا النهج من السخرية الذي انتهجه المازني، وجعله فلسفة له، فعصارة فكره، وبنات أفكاره لا قيمة لها، فهي حصاد هشيم، وقبض ريح، وصندوق الدنيا،

وخيوط العنكبوت، وإذا ما حاولنا أن نجري مقارنة بسيطة بين عناوين كتبه، وعناوين كتب غيره، فسوف نجد غيره يُهوّل فيها أي تهويل! فيجعلها مثلًا: (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) و(خزانة الأدب) و(يتيمة الدهر) و(النجوم الزاهرة) و(خريدة القصر وجريدة أهل العصر) و(العقد الفريد) و... أما كتبه هو فهباء في هباء.

وإذا حاولنا أن نفعل ما فعله العقاد، عندما أخذ حياة ابن الرومي من شعره في كتابه (ابن الرومي حياته من شعره)، فسوف نجد هذا المنهج يصدق تمام الصدق على المازني، فقد انسكبت حياته في مؤلفاته، فهي مُعبّرة عنه أصدق تعبير، وسابرة أغوار نفسه أحسن سبر، وبذلك يكون نسيج وحده من بين أدباء العربية، فأديبه بائس حزين يعبّر عن نفسه الأسيانة الكسيرة:

عَلى قَدْرِ إِحْساسِ الرِّجالِ شَقاؤُهُمْ
وللسَّعْدِ جَوٌّ بالبَلادَةِ مُشْرَبُ

وهذا الحزن وذلك الأسى الذي تبدّى في شعره هو الذي جعله يرثي نفسه في حياته، وذلك لشعوره بالغبن، وتيقّنه من أنه سوف يُنسى بمجرد أن يواريه التراب، وهذا ما جعله يرثي نفسه ذلك الرثاء الذي يقطر مرارةً وأسًى، فقد كان يرى نفسه أهلًا لأن يُهتَم به، وقمينًا بأن يكون مع الخالدين الذين لا يأتي عليهم النسيان مدى الحياة، فمن هذا الرثاء قوله:

قَضَى غيرَ مأسُوفٍ عَليهِ مِنَ الوَرَى
فَتًى غَرّهُ في العَيْشِ نَظْمُ القَصائِدِ
لَقَدْ كانَ كَذّابًا وكانَ مُنافِقًا
وَكانَ لَئِيمَ الطَّبعِ نَزْرَ المَحامِدِ
وَكانَ خَبِيثَ النَّفسِ كالنّاسِ كُلِّهِمْ
جَبانًا قَليلَ الخَيرِ جَمَّ الحَقائِدِ
وَقَدْ كانَ مَجْنونًا تُضاحِكُه المُنَى
وفي رِيقِها سُمُّ الصِّلالِ الشَّوارِدِ
فَعاشَ وَما واساه في العَيْشِ واحِدٌ
وَماتَ وَلَمْ يَحْفِلْ بِهِ غَيرُ واحِدِ
أرادَ خلودَ الذِّكرِ في الأرضِ ضِلَّةً
فَـأوْرَدَه النّسْيانُ مُـرَّ المَـوارِدِ
فَلا تَنْدُبُوه إِنّه لَيسَ بالأَسَى
حَقيقًا وَلا أَهلَ الهُمومِ العَوائِدِ
وخَـلُّـوه للدِّيدانِ تَأكُلُ لَحْمَه
وَذاكَ لَعَمْري خَطْبُ كُلِّ البَوائِدِ[2]

وهكذا، فمن مجموع ما مر من حياة المازني، وما صاحبها من ظروفه الخاصة جدًّا جعله يتلقى كل شيء في الحياة بابتسامة السخرية والاهتزاء واللامبالاة، فقد تلقى تلك التهمة الغريبة على عصرنا الحديث، وهي تهمة السرقة التي رماه بها توءم روحه عبد الرحمن شكري، بروح رياضية نادرة المثال، وغير معهودة، فعلى عادتنا بالشعراء والكتاب، عندما يحاول واحد أيًّا كان أن ينال منهم، أو يرميهم بأي مغمز، فإنهم يشتجون، ويذهبون في الشطط والغضب كل مذهب، ويلجؤون إلى كل وسيلة للتخلص من هذا القادح الذي يود أن ينال منهم، ولكن المازني توافقًا مع فلسفته التي التزمها أخرج لهذه التهمة وذلك المغمز لسانه ساخرًا غير آبه، فلم يُقِم الدنيا، ويقعدها، وعندما اُضطُر إلى تبرير ما حدث له أخذ يدافع عن نفسه دفاعًا مجيدًا بأنه حفظ المعاني، ونسي أنها لغيره، وهذا جائز في علم السيكولوجيا، وعلل ما حدث منه أيضًا بأنه ضعيف الذاكرة، وهذا صحيح، كما مر، فحين يقرأ شيئًا سرعان ما ينساه، ولكنه يُختزَن في اللاوعي، وعند الكتابة يطفو هذا المخزون، ولا يطفو كما هو، بل يطفو مشوبًا ومختلطًا بنفسه التي تصوغه صياغة جديدة عليها بصماته، وممهورة باسمه.

وفي كثير من الأحيان يكون ما يأتي به من قبيل توارد الخواطر، وما يمكن أن يتفق فيه الناس جميعًا، ولعل أوضح مثال على ذلك قصيدته المسماة (فتى في سياق الموت)، فهو فيها يصور مشهد احتضار إنسان وحالاته، وهو في النزع الأخير من حياته، ومما لا شك فيه أن مشهد الاحتضار شيء يتساوى فيه – في الأعم الأغلب – عامة الناس، وعندما يُوصَف، فإنه يُوصَف تقريبًا بطريقة واحدة.

فقد اتُّهِم المازني بأنه أخذ قصيدته (فتى في سياق الموت) من توماس هود (1799–1845م) الذي عبّر عن مشهد الاحتضار نثرًا، بينما المازني عبّر عنه شعرًا، وهذا التشابه بين الأديبين، إنما هو من قبيل توارد الخواطر وتشابه الأحاسيس الإنسانية، وإذا ما سلمنا بأنه اطلع على قصيدة توماس هود قبل أن يكتب قصيدته، فهذا مما يُحسَب له لا عليه؛ لأنه دليل على سعة اطلاعه وتبحره، ليس في الأدب العربي وحده، بل أيضًا في الآداب العالمية، والبون واسع ما بين الأديبين، فكلاهما له طبيعة خاصة وظروف متباينة، وإن اتفقا فيما تتفق فيه المشاعر الإنسانية، كما في هاتين القصيدتين اللتين تعبران عن إحساس واحد ومشاعر إنسانية واحدة يتشابه فيها الناس جميعًا مهما اختلفت أوطانهم، وتباعدت أجناسهم.

إذن، فما كان بين المازني وتوماس هود هو من قبيل توارد الخواطر وتوافق الأمزجة، على الرغم مما بينهما من أوجه اختلاف، أما ما كان من أوجه شبه واتفاق بين المازني والشريف الرضي (969–1015م) في قصيدته (مخرس الدهر) فهو من جراء تشبع المازني بالشريف وكثرة اطلاعه على شعره، لدرجة أنه لم يجد بُدًّا من أن يطفو على تعابيره الكثير من تعابير الشريف، ولقد دارت قصيدة الشريف حول الفخر والمدح، في حين أن قصيدة المازني تدور حول الموت وساعاته الأخيرة ومعاناة صاحبه، ولا على المازني أن تتسرّب إلى معجمه بعض ألفاظ الشريف وتعابيره، وإلا فما جدوى الاطلاع، وما الفائدة من قراءة الشاعر أشعار غيره، إن لم يكن محاولة للنسج على منوالهم، فقد كان الشريف الشاعر الأثير لدى المازني، ومن ثم تغلغل فيه، وكأن المازني اليوم هو الشريف أمس، أو كأنه امتداد له، وتلميذ من تلاميذه، وتأثُّر التلميذ بالأستاذ أمر وارد، ولا غبار عليه.

ومهما يكن من أمر، فصنيع المازني لا يتجاوز التأثر والإعجاب بالشريف الرضي الذي رآه مثالًا يرنو إلى الوصول إليه في محاولة لمحاكاته والصوغ على طريقته، وبذلك يكون المازني قد تأثر بكل ما كان يقرؤه، فيترك في لاوعيه شيئًا


إبراهيم المازني

يظهر عند الكتابة فقط، ولا يظهر فيما سوى ذلك، فهو مستهدف من الذاكرة تخونه أحيانًا، وتعابثه أحيانًا أخرى، وتعاصيه بعض الأحايين، وهذا ما كان يعرفه عن المازني كل من يحيط به، أو يتعامل معه، سواء في الحياة العامة، أم في حياته الأدبية العلمية.

وبسبب معرفة المازني بنفسه، وما يعتريها بين الحين والآخر لم يؤثّر فيه اتهامه بالسرقة، ولم ينل منه مثلما نال من عبد الرحمن شكري الذي بسبب هذا الاتهام توقف عن كتابة الشعر، واعتزل القريض نهائيًّا، أما المازني فعندما ألحوا عليه مرارًا وتكرارًا بهذه النقيصة أجابهم بأنه سوف يتخلى لهم عما يظنونه سرقة، وما هو من السرقة في شيء، فهذا التسليم منه نزول إلى منزلتهم من الجهل، فما داموا لا يعلمون، فليتنزل إلى مستواهم ما دام مستواه فوق مستواهم، ولا يريدون السمو إلى مكانته السامية.

ومن مجمل ذلك يتضح لنا إذا ما أخذنا في الحسبان ظروف المازني الخاصة جدًّا، ونفسيته الحساسة جدًّا، وروحه النائية عن كل تقليد، والبعيدة عن أن تكون بوقًا يكرر معاني غيره وأحاسيسه لا بد أننا واصلون حتمًا إلى الصواب، والقول: إن المازني أديب أصيل من شعر رأسه إلى أخمص قدميه، وإن ما كان منه إنما هو من قبيل رشح معاني غيره على معانيه، فيحدث من التقاء الرشحين توليفة أصيلة عليها ميسم المازني الشاعر والقصاص وكاتب المقال، وتحمل روحه الساخرة من كل شيء على الأرض، وكأنه وحده الذي أدرك حقيقة القول والإبداع الأصيل!

وسلام على المازني من دنيانا: دنيا السرقة والانتحال إلى دنياه: دنيا الأصالة واليقين.

الهوامش:

1 – حصاد الهشيم، طبعة دار الشعب، القاهرة، ص7.
2 – إبراهيم المازني، د. محمد مندور، مطبعة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة، 1954م ص38.

مراجعة كتاب:

«الطريق إلى النبع: الحياة في فلسطين»

The Way to the Spring: Life and Death in Palestine

مراجعة لكتاب بن اهرينريش Ben Ehrenreich
أعدها جيم مايلز Jim Miles
الأبحاث العالمية Global Research
15 أغسطس 2016
ترجمها إلى اللغة العربية: عمر عثمان جبق



ترجمة: عمر عثمان جبق

محاضر في كلية المجتمع بالرياض

بلدة النبي صالح البلدة الفلسطينية الصغيرة في الضفة الغربية شمال القدس وموطن قبيلة تميم عانت كباقي البلدات الفلسطينية الأخرى من وطأة احتلال القوى العسكرية الإسرائيلية وقرى المستوطنين. يوثق الكاتب بن اهرينريش في كتابه "الطريق إلى النبع: الحياة و الموت في فلسطين" الأشهر العديدة التي قضاها في البلدة والمناطق المحيطة بها. ويأتي العنوان من نبع اسمه "عين القوس" الذي كان مصدر الماء الرئيس لمزارعي البلدة ورعاتها. وكان المستوطنون القريبون من البلدة قد منعوا الوصول إلى النبع، ونتيجة لذلك كان سكان القرية في كل يوم جمعة وبصحبة شهود دوليون يتقدمون باتجاه النبع احتجاجًا على منعهم، ودائمًا ما كانت تواجههم القوات الإسرائيلية العسكرية لحماية المستوطنين. وضمن هذا السيناريو، فإن كتاب "الطريق إلى النبع" يسلط الضوء على تكتيكات وسياسات إخضاع السكان الأصليين لمنطقة ما تحت الاحتلال العسكري واحتلال المستوطنين. يتكلم الكتاب بلغة شعرية أحيانًا، وأحيانًا أخرى يستعمل أوصافًا بسيطة عادية على لسان القرويين أو الفلسطينيين من القطاع الغربي. وفي نفس الوقت، يتحدث الكتاب عن سيناريوهات سياسية في سياق تاريخي معقد في أثناء زيارات الكاتب وتشعّبات المنطقة، ويتحدث أيضًا عن الشعور بالألم والمعاناة، التي يحتملها الفلسطينيون في ظلّ الاحتلال.

من الصعب قراءة هذا الكتاب ليس بسبب اللغة أو السياق، ولكن بسبب المعنى الكلي للقصص الناشئة عن هذه المواجهة بين قوات الاحتلال العسكرية والسكان الأصليين. إن الغضب والإذلال والعذاب والألم الجسدي والمعنوي يولدون جوًا من الحزن والتعاسة ينشأ منها أمل ضئيل جدًا تاركين العيش والتحمل فقط: فهم لا يعرفون أي مكان آخر يذهبون إليه، وأن الأحوال قد تدهورت كثيرًا خلال مدة بناء المستوطنات الإسرائيلية. بعيدًا عن روايات العنف والتعذيب والسجن والتهديد والإذلال المتوقعة، هناك أيضًا جوانب أخرى يمثلها هذا العمل تمثيلاً قويًا.

التعاون

يتمثل التعاون المباشر في موقف الفلسطينيين تجاه قادتهم في السلطة الفلسطينية بقيادة محمود عباس. ففي صيف عام 2014 حيث كان محمود عباس في المملكة العربية السعودية، دافع عن التنسيق الأمني المستمر للسلطة الفلسطينية مع

القوات الإسرائيلية قائلاً: إن ذلك "في مصلحتنا وحماية لنا".
وفي إحدى المظاهرات ضد الهجوم الأمني في رام الله:

نزلت الحشود إلى مركز الشرطة وهاجمته بالحجارة وقطع الإسمنت وهي تصرخ "خونة!" وتردد "السلطة الفلسطينية عاهرة!".

وكان الإسرائيليون يطلقون النار على المتظاهرين من جهة، والسلطة الفلسطينية تطلق النار على المتظاهرين من جهة أخرى، وكانت القوى الأمنية من كلا الطرفين تتصرف بتناغم ضد خصم مشترك".

وفي خضم أعمال الشغب هذه كانت هناك رسالتان: الرسالة الأولى للسلطة الفلسطينية، وهي: أنت ملك لنا، والجميع يعلم ذلك. والرسالة الثانية للشعب الفلسطيني، وهي: قادتكم يأخذون أوامرهم منا.

لم يتم قطع التمويل عن السلطة الفلسطينية. يقول أحد المسؤولين الأمريكيين حسب الاقتباس في جريدة هارتس اليومي Haaretz:

بقيت قوات الأمن الإسرائيلية في تعاون مستمر مع نظرائها من القوات الفلسطينية .... "ليس من مصلحتنا – ولا مصلحة إسرائيل قطع العلاقات مع حكومة السلطة الفلسطينية هذه وقطع التمويل عنها". ومن المرجح أنه لم يكن هناك سياسة واحدة مكروهة إلى هذه الدرجة كما كان التعاون المستمر للسلطة الفلسطينية مع جيش الاحتلال مكروهًا من قبل الشعب الفلسطيني.

وأوضحت الحرب على غزّة التي تبعت ذلك ليس مباشرة، بل ضمن مجال العنف نفسه أوضحت حالة الكراهية، التي تشجعها الحكومة الإسرائيلية تجاه الشعب الفلسطيني. وشجعت على تلك الكراهية أيضًا البيروقراطية الإسرائيلية، ولكن "لم تكن أي قوة تدفع مثل تلك العمليات البيروقراطية قدمًا عقلانية على الإطلاق. بل كانت قوة مجرمة متأصلة في الخوف والغضب الكامن تحت الأرض في قنوات دفينة سرية لا يأتي أحد على ذكرها متواجدة دائمًا منذ البداية ولكنها الآن تثور".

الإعلام

الإعلام هو موضوع آخر تؤكده هذه القصص، ليس بسبب وجوده ولكن بسبب غيابه. يعد الإعلام الغربي العادي جيدًا جدًا في تسليط الضوء على الهجمات الفلسطينية على الإسرائيليين واعتبارها عملاً يقوم به سكان إرهابيون مختلون عقليًا. ويندر جدًا سماع أي شيء عن الأعمال الإجرامية المستمرة يوميًا وأسبوعيًا وشهريًا، التي ترتكبها قوات الدفاع الإسرائيلية لقوى الاحتلال في الضفة الغربية، وهي أعمال ضد القانون الدولي وضد ما يمكن اعتباره القانون العام الاعتيادي.

معلومات عن الكتاب:

الكتاب: "الطريق إلى النبع: الحياة و الموت في فلسطين"

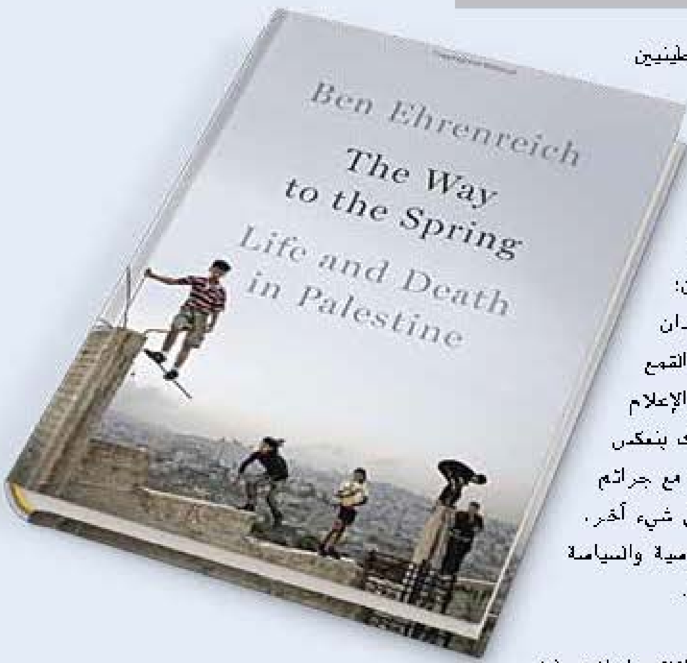
المؤلف: بن اهرينريش Ben Ehrenreich

تاريخ النشر: 14 يونيو 2016

الناشر: Penguin Press

عدد الصفحات: 448 صفحة

الرقم المعياري الدولي للكتاب: 978-1594205903



من خلال تسمية كل الفلسطينيين إرهابيين وتصنيفهم جميعًا على أنهم "قتلة" أو آفات أخرى، فإن هذا "الآخر الشيطان" سيصبح هدفًا منسيًا للأعمال الوحشية التي يقوم بها المستوطنون الغربيون: وهذا يتوافق مع عمليات البلدان المستوطنة المحتلة كلها. إن هذا القمع والإذلال اليومي لا تنقله وسائل الإعلام العادية مطلقًا: ربما لأن ذلك ينعكس للأسف على تواطؤ حكوماتنا مع جرائم الحرب الإسرائيلية، وقبل كل شيء آخر، لا يدعم المصالح الجيوسياسية والسياسة الخارجية والسياسات الداخلية.

الاقتصاد

سمعت بعض النقاشات حول الاقتصاد الفلسطيني – على الأقل في الضفة الغربية – وعن نجاح هذا الاقتصاد – على الأقل في رام الله. يقدم لنا الكاتب دراسة قصيرة عن عجائب البناء الاقتصادي في رام الله في منطقة تدعى "الروابي". وأوضحت دراسة الكاتب، بالإضافة إلى مشاريع تنموية أخرى في الضفة الغربية، أن "مع أي تطور رئيس في الضفة الغربية، فإن المجموعات والأشخاص نفسها يستمرون في الظهور، الهالة الساحرة نفسها من الارتباطات بين الأعداء المزعومين". ففي الجوهر قوة المال هي التي ترفع بعض النخب من الكوادر فوق البعض الآخر، ترفعها إلى الأعلى "حيث لا يمكن ملاحظة أي تمييز آخر".

الاحتلال

ويبقى الاحتلال العسكري والمستوطنات مركزًا للقصص والأحداث في كتاب "الطريق إلى النبع". ومصادرة الأراضي وإبعاد الناس عن أوطانها هو الجانب المرئي للاحتلال. ولكن بالمجمل من خلال نقاط تفتيشه وجدرانه وسجونه ورخصه، فإن هذا الاحتلال يعمل كماكينة إذلال عملاقة ... آلية معقدة ودقيقة لإنتاج اليأس البشري .... كانت الأرض مهمة للجميع، ولكن بالرغم من كل الأناشيد والشعارات الوطنية فإن القتال الأصعب كان النضال من أجل الوقوف فقط وعدم الانكسار.

ومن خلال العمل خلف ستار الإعلام العادي، ومن خلال أحداث أخرى في المنطقة تغطي عليها، ومن خلال تجاهل معظم الغربيين الذين يستمتعون بمشهد آخر مختلق أو لعبة أخرى لتشتيت أفكارهم – إراديًا – عن دراسة أهمية الأحداث في إسرائيل أو الشرق الأوسط الأكبر دراسة جدية، فإن الاحتلال يستمر في تدميره المؤلم البطيء للأرض الفلسطينية والثقافة الفلسطينية ومعنويات الشعب الفلسطيني.

إن "الطريق إلى النبع" عمل معبر بقوة: فهو كتاب ينبغي أن يكون في صدارة العروض الموجهة للمواطنين في الغرب: ربما ليضايقهم لأن السرد التاريخي البسيط للأحداث أو المناقشات القانونية المزورة والمشوهة قد لا تفعل ذلك.

المصدر الأصلي لهذه المقال هو الأبحاث العالمية Global Research

رابط المراجعة الإنجليزية:

http://www.globalresearch.ca/the-way-to-the-spring-life-and-death-in-palestine/5541073

مراجعة كتاب:

«الحروب الصليبية كما رآها العرب»



معلومات عن الكتاب:

الكتاب: "الحروب الصليبية كما رآها العرب"

المؤلف: أمين معلوف

ترجمة: عفيف دمشقية

الناشر: الفارابي

عدد الصفحات: 352 صفحة القطع المتوسط

برغم شهرة الكاتب اللبناني أمين معلوف النابعة من مؤلفاته الكثيرة التي أصدرها باللغة الفرنسية، سواء في مجال الرواية أم في مجال التاريخ، فإن حصوله على جائزة الشيخ زايد للكتاب في نسختها العاشرة عام 2016 بعنوان شخصية العام الثقافية، شجعت فئات واسعة من القراء والمهتمين العرب – خاصة ممن لا يقرأون اللغة الفرنسية– على الاقتراب من مدونة الرجل وعلى تلمس نجاحه في تقديم رؤية تاريخية مغايرة لأحداث مفصلية عاشها العالم العربي الإسلامي.

وجهة النظر "المهملة" التي بنى عليها معلوف كتابه هي وجهة النظر العربية للحروب الصليبية، أي التأريخ العربي الإسلامي وروايات الإخباريين العرب: "ينطلق هذا الكتاب من فكرة بسيطة: سرد قصة الحروب الصليبية كما نُظر إليها وعاشها وروى تفاصيلها في "المعسكر الآخر"، أي في الجانب العربي. ويعتمد محتواه على شهادات المؤرخين والإخباريين العرب في تلك الحقبة"، كما يقول أمين معلوف.

هناك أهمية معرفية أخرى تتخذها كتابات أمين معلوف، التي مزج فيها بين التاريخ والرواية، تنطلق من زمن صدورها. فرواية "الحروب الصليبية كما رآها العرب" أو "ليون الأفريقي" (1984) أو "سمرقند" (1986) صدرت في زمن موسوم بتعطل الحوار بين الشرق والغرب أو بانسداده وإصابته بلوثات سوء الفهم والتناقض في الرؤى، وكان كل طرف يرى في نظيره "معسكرًا آخر" بكل ما تعنيه الكلمة من اصطفاف، وما عزز ذلك غياب محاولات معرفية تتلمس رؤية الآخر أو تتفهمها. وكانت الحروب الصليبية مجال جدل تاريخي وديني بين المؤرخين والعلماء العرب والمستشرقين والمؤرخين الغربيين.

لذلك كانت متون أمين معلوف باللغة الفرنسية محاولة جريئة، لا فقط لتقريب الرؤية التاريخية العربية للمتقبل الغربي، بل أيضًا لتوفير المزيد من الموضوعية التي تقتضي التعاطي مع الصياغات المختلفة للحدث التاريخي. الحروب الصليبية حدث تاريخي قُتِلَ بحثًا من قبل المؤرخين والمستشرقين الأوروبيين، إلى درجة أن سادت رؤية أحادية للحدث شكلت منطلقًا للعلاقة بين الأوروبيين المسيحيين والعرب المسلمين.

تفاديًا للسقوط في السرد التاريخي لأطوار الحروب الصليبية، نشير إلى أن أمين معلوف، في كتابه المشار إليه، وفي سعيه لإعادة الاعتبار للرؤية العربية الإسلامية للحدث، انطلق من تقديم تصور عربي حتى للمصطلحات التي هيمنت طويلاً على المدونة التاريخية المتصلة بالحروب الصليبية، ليتطرق بأسلوبه الروائي إلى دحض ونفي العديد من التصورات المترتبة على الصيغة الأوروبية، والتي عززتها لاحقًا الكتابات الاستشراقية، لبعض الأحداث والمعارك. يشير معلوف إلى أن العرب لا يتحدثون عن "حروب صليبية بل عن حروب أو غزوات إفرنجية وقد كُتِبت الكلمة التي تدلّ على الإفرنج بأشكال مختلفة باختلاف المناطق والمؤلّفين والأزمنة"، ويشدد على أنه اختار طلبًا للتوحيد "أكثر الأشكال اختصارًا، أي الشكل الذي لا يزال مُستَخْدَمًا حتى اليوم في المحكيّة الشعبية لتسمية "الغربيين"، وبصورة أخصّ الفرنسيين: "فَرَنج".

المسلمون يرون في الحروب الصليبية ضربًا من الحرب الاستعمارية التي حاول خلالها الفرنجة السيطرة على ثروات الشرق، من خلال الادعاء بأن المسلمين يضطهدون مسيحيي الشرق (الروايات المسيحية التي ضخمت اضطهاد الحكم الإسلامي للمسيحيين في الأرض المقدسة، خصوصًا بعد تدمير كنيسة القيامة عام 1009 بأمر الحاكم بأمر الله الفاطمي). وصنفوا صلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس بطلين محررين. وفي المقابل رأى المسيحيون في الحروب ذاتها وسيلة لإعادة توحيد الكنيسة تحت ظلال البابوية بعد الانقسام الذي طال المسيحية بين شرق أرثوذوكسي وغرب كاثوليكي وأيضًا للدفاع عن القسطنطينية بعد التوسع الإسلامي الذي وصل إلى جبال البيرينيه في أسبانيا وجنوب فرنسا. اختلاف دوافع الحروب وتأصيلها الديني، منطلقات جعلت معلوف يسعى إلى تبديد ما تحول إلى "ثوابت" في التاريخ المسيحي للحروب الصليبية.

سرد الكاتب بأسلوب روائي معلومات دقيقة انطلاقًا من حوليات ابن المنقذ الذي رافق صلاح الدين في الحروب الصليبية، وحولياته مودعة في المكتبة الظاهرية في دمشق، ما مفاده أن جنود الحملات الصليبية قاموا بسرقة ونهب كل الممتلكات الموجودة في الأماكن التي احتلوها بما في ذلك الكنائس المسيحية في المشرق العربي، وهو ما يضعف مقولة أن "الإفرنج" خاضوا تلك الحروب من أجل إنقاذ القدس من اضطهاد المسيحيين.

أفرد أمين معلوف فصلاً لحصار مدينة المعرة، في الثاني من ديسمبر 1098 في أثناء الحملة الصليبية الأولى، حيث استند إلى المؤرخ الإفرنجي راوول دي كين، لبيان أن الحصار الذي دام حوالي 6 أشهر والذي يقدم بروايتين مختلفتين جدًا، شهد أحداثًا مروعة غابت عن التاريخ المسيحي للأحداث، إذ أورد أمين معلوف على لسان راوول دي كين (الذي شهد الحرب والحصار) "لم تكن جماعتنا تأنف وحسب من أكل قتلى الأتراك والعرب بل كانت تأكل الكلاب أيضًا". ولاشك أن معلوف أورد شهادة دي كين لأنه لاحظ أن الكتابات التاريخية الأوروبية ولئن اعترفت باستباحة المدينة إلا أنه لا توجد وثيقة واحدة أشارت إلى أكل الجنود المسيحيين للحم البشر.

لا يكفي الحيز المحدود لاستعراض الجهد الذي بذله معلوف لأجل تصويب التأريخ للحروب الصليبية، وهو جهد مكن في النهاية من تقديم رؤية عربية للحدث مختلفة عما ساد المصادر الأوروبية، إلا أن هدف الحرص على تقديم هذه الرؤية المغايرة، لم يكن تقديم قراءة تبحث عن إدانة الآخر بوصفه آخر، بل كان البحث عن الإنصاف التاريخي وتنقية التاريخ مما ساده من مغالطات، ومراجعة الصفحات التاريخية التي تضمنت تشويهًا أو تحاملاً، وهو جهد ضروري لبدء حوار يفترض الإيمان بوجود صفحات مشرقة عند الآخر، ثم الإقرار بوجود مشتركات إنسانية تجمع الطرفين.

مراجعة كتاب:

«وادي السيليكون يجتاح العالم»



معلومات عن الكتاب:

الكتاب: وادي السيليكون يجتاح العالم. توسّع الليبرالية الرقمية دون قدرة مقاومتها La silicolonisation du monde

المؤلف: إريك سادان Eric Sadin

تاريخ النشر: 2016

الناشر: ليشابي ـ باريس L'Echappée – Paris

عدد الصفحات: 292 صفحة

يعيش العالم اليوم عصر الثورة الرقمية بامتياز. ولا شك أن أهم رموز التكنولوجيا الرقمية في الحقبة الراهنة يتمثّل في «وادي السيليكون» الذي يمتد على مسافة 40 كيلومترًا في جنوب شرق سان فرنسيسكو بولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية. هذا فضلًا عن أنه غدا مرادفًا في الأذهان لمركز التجديد التكنولوجي الأكثر فاعلية على الصعيد العالمي.

وعن السطوة التي يمارسها وادي السيليكون على العالم اليوم يقدّم إريك سادان، الكاتب والفيلسوف الفرنسي ذو الشهرة العالمية في مجال دراسة تأثيرات الثورة الرقمية وتكنولوجياتها المتقدمة على البشر والمجتمعات والحضارات، كتابًا جديدًا تحت عنوان «وادي السيليكون يجتاح العالم» ويشرح فيه واقع «توسع الليبرالية الرقمية دون قدرة مقاومتها»، كما جاء في عنوانه الفرعي.

إن المؤلف يطرح مجموعة من الأسئلة ويحاول ومن ثم تقديم إجاباته عنها. أسئلة مثل: ما هي الأخطار التي يمكن أن تترتب على «إخضاع العالم لمتطلبات وادي السيليكون؟ ومَن يسيطر على المعطيات الخاصة بالمستهلكين؟ وما هي الضوابط القائمة اليوم بصدد ذلك؟ وكيف يمكن للبشر الحماية من التكنولوجيات الذكيّة؟ وما هو التوازن المطلوب بين تقدّم التكنولوجيات والرقابة الإنسانية عليها؟»... إلخ.

يشرح المؤلف بداية أن وادي السيليكون، الذي يستمد تسميته من مادّة السيليكون الضرورية كأحد مكونات الصناعات الإلكترونية، يرتبط في المخيلة العامة للبشر اليوم بأنه المركز – المحرّك لمسار التطور والتجديد الرقمي في العالم أجمع. ويمثّل من ثم «نقطة جذب» حقيقية لآلاف المجموعات والشركات العاملة في القطاع الرقمي على المستوى العالمي.

ويحدد إريك دامان القول إن هناك اليوم حوالي 6000 مجموعة تعمل في قطاع التكنولوجيات الرقمية. ويشير إلى أن عددًا منها قد نالت شهرة عالمية مثل آبل وغوغل وسيسكو وفيسبوك وتويتر.. وغيرها من المجموعات التي غدت بسرعة كبيرة في موقع مسيطر في السوق العالمي.

ويشرح أن وادي السيليكون قام منذ الأصل كأحد المراكز الأساسية للرأسمالية، لكنه تحوّل خلال الثلاثين عامًا الأخيرة إلى نوع من «المنظومة الليبرالية التكنولوجية» التي تمدّ نشاطاتها لتطال العالم أجمع. ويشرح ذلك بأن العالم اليوم يعيش مرحلة جديدة «رقمية» تسمح بالرقابة في جميع الاتجاهات وفي جميع الميادين دون استثناء. ونقرأ: «إن الليبرالية التكنولوجية غدت تتحرّك وتعمل بحريّة كاملة ودون أيّ عوائق».

ويرى المؤلف أن هذه «الإحاطة» التكنولوجية بمختلف مناحي الحياة والنشاطات ستؤدي إلى رصد مختلف سلوك البشر. هكذا سيكون بمقدورها أن تقيم ما يسميه المؤلف صناعة الحياة، الهادفة تحديدًا إلى جني أكبر المكاسب من مختلف نشاطات الإنسان وتصرفاته. ومن ثم محاولة ممارسة الضغط المستمر على «القرارات الإنسانية» باسم البحث عن «أفضلها». وما يعتبره المؤلف في عمقه نوعًا من «نكران حق الحريّة الفردية».

ويعتبر المؤلف أن وادي السيليكون «يجسّد رمزًا فريدًا للنجاح الصناعي في عصر الثورة الرقمية». وهذا النجاح كان وراء قيام «عمالقة الصناعة الرقمية». والإشارة بهذا الصدد إلى الأرباح «الخيالية» التي تحققها المجموعات المعنيّة بذلك ما يعطيها أدوات كبيرة للسيطرة المتعاظمة على خيارات البشر وعلى طريقة تفكيرهم حيال العالم المحيط بهم.

وهذا لا يشكل معضلة كبيرة أمام المجتمعات فحسب، ولكنه يمثّل أيضًا على وجه خاص مشكلة ذات علاقة مباشرة بالنمط الحضاري الذي يرتسم بوضوح في الأفق. كما يشرح إريك سادان. ويوضّح أن الخطر لا يستهدف الجنس البشري بوجوده، ولكن يستهدف بالأحرى «قدرة الإنسان على اتخاذ القرارات وقدرة الحكم على الأشياء بحريّة وبوعي كاملين».

ومما تمّ نقله عن رئيس مجموعة «ميكروسوفت» قوله: «التحدي الذي يواجهه الإنسان هو أن يستعيد سلطته على البيانات الخاصّة به». ويشير المؤلف بهذا الصدد أن عمالقة «وادي السيليكون» يتابعون جمع البيانات عن البشر وأعمالهم وحركاتهم.. ولكنهم يحاولون بالوقت نفسه «طمأنة الضمائر».

ومن الأفكار التي تتردد في تحليلات هذا الكتاب تأكيد المؤلف بأشكال مختلفة أن «الليبرالية التكنولوجية الوليدة» التي تتوسع وتمتد دون التمكّن من مقاومتها تشكّل، بفعل القوة المتعاظمة التي تكتسبها التكنولوجيات الرقمية، أحد مكامن الخطر على حياة البشر بعيدًا عن إعطاء الكثير من الاهتمام لـ«احترام الحياة الخاصّة للبشر وحرياتهم الفردية».

والإشارة أنه يوجد في وادي السيليكون العديد من الشركات والمجموعات التي تقوم بـ«رصد» و«التقاط» و«تسجيل» أغلبية الأفعال والحركات التي يقوم بها المستهلكون. ذلك دائمًا تحت حجّة «تحسين أدائها». لكن المؤلف يحذّر من «الأخطار» التي تتضمّن عليها هذه «الليبرالية التكنولوجية».

وبهذا المعنى يحذر من «ذهنية وادي السيليكون» من حيث هي «مشروع لاستعمار العالم». ذلك أنه، أي وادي السيليكون، لم يعد يدل على مجرّد «موقع جغرافي» فحسب، ولكن أيضًا على «مركز لمحاولة السيطرة» على العالم. والإشارة أنه يعتمد بذلك على عدد كبير من الصناعيين والجامعيين ومراكز الأبحاث.. هذا فضلًا عن أصحاب القرار السياسيين.

لكن المؤلف يرى أن مثل هذا السلوك قد يتطوّر إلى نوع من «النمط الحضاري الجديد» القائم على «التنظيم الرقمي» لخيارات المستهلكين في المجتمعات المعنيّة به. ويرى أن هؤلاء المستهلكين عليهم أن يقاوموا من أجل المحافظة على حرية قراراتهم.

ويشرح مؤلف الكتاب ما يسميه «الرهانات الاجتماعية والأخلاقية» للتكنولوجيات الجديدة. فيؤكد في هذا السياق أنه من الواضح تعاظم دور التكنولوجيات الرقمية في المجتمعات اليوم. ومن ثم ينبغي التفكير جديًا بظاهرة «بروز» هذا العالم الجديد وضرورة «استقراء النتائج التي تترتب على ذلك».

المؤلف في سطور

إريك سادان، كاتب وفيلسوف فرنسي، يولي اهتمامه لدراسة آثار الثورة الرقمية وتكنولوجياتها على الإنسان والمجتمعات. ينال شهرة عالمية عبر المحاضرات التي يلقيها في الجامعات ومراكز الأبحاث في مختلف مناطق العالم. من مؤلفاته: «البشرية المعزّزة» و«الحياة اللوغاريتمية ـ الرقمية»... إلخ.

أشهر 8 كتب ممنوعة في التاريخ الحديث

ليس هناك أخطر من كتاب يرسم الواقع كما هو، يُبين الأشياء، أو الأشخاص على حقيقتهم، دون غطاء، يظهر البشر عندما يخضعون لغرائزهم، ويتجردون من الأقنعة الاجتماعية التي يلبسونها.

هذه الكتب من أكثر الكتب والروايات التي تمت محاربتها، ومنعها لسنوات؛ لحساسية وخطورة المواضيع التي تتناولها.

هذه الكتب والروايات التي قد تتحول حيازتها أو قراءتها لجريمة، تودي بصاحبها إلى السجن لسنوات.

1

الكتاب: المريض النفسي الأمريكي

American Psycho

المؤلف: بريت أيستون أليس

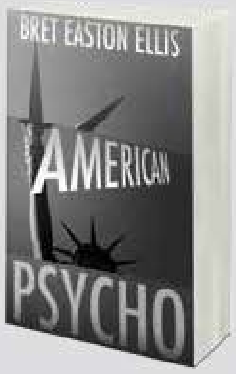
من أكثر الروايات إثارةً للجدل في العقدين الأخيرين، التي تحولت لفيلم بنفس الاسم، قام ببطولته النجم كريستيان بيل العام 2000. إنها رواية American Psycho أو المريض النفسي الأمريكي، للكاتب الأمريكي بريت أيستون أليس، وصدرت الرواية العام 1991.

تدور الرواية حول شخصية باتريك بايتمان، المصرفي الناجح، الذي يعمل في إحدى شركات الاستثمار بوول ستريت في نيويورك.

باتريك من عائلة غنية، وميسور الحال ماديًا. وفي الظاهر هو شخصية طبيعية، ناجح في عمله، وأنيق في مظهره، ودبلوماسي، لكن في الخفاء هو شخص على النقيض، فثمّة حياة أخرى يعيشها بايتمان في الظل، فهو سفاح، يختار المشردين، وحتى زملاؤه في العمل، ويقوم بتعذيبهم، وقتلهم.

بسبب الدموية، والعنف الشديد الذي تمتلئ به تفاصيل الرواية تم منعها، أو على الأقل وضُعت شروط لمن يقرأها ويقتنيها.

في ألمانيا تم منع بيعها وقت صدورها، وتم تبرير ذلك بأن الرواية لا تناسب المراهقين بسبب دمويتها، وفي كندا تم منعها لمدة طويلة، وفي دول أخرى، غير مسموح لمن هم أقل من 18 عامًا بقراءتها، مثل أستراليا.



2

الكتاب: "عالم جديد شجاع"

Brave New World

المؤلف: ألدوس هوكسلي

المستقبل الكابوسي الذي ينتظر البشرية، إنها رواية Brave New World أو "عالم جديد شجاع"، للكاتب الإنكليزي ألدوس هوكسلي، الصادرة العام 1932.

تدور الرواية في المستقبل، والذي أصبح في مقدور البشر القيام بأي شيء، والحصول على أي شيء، حتى يمكنك شراء الأجنة التي يتم تكوينها في المعامل، وتكوّن بحسب تقسيمات معينة، كألفا، وبيتا وجاما، وغيرها، وكل نوع من هذه الأجنة يحمل صفات عقلية، وجسدية، وشخصية محددة، وكل فئة تمثل طبقة من المجتمع من الأغنياء، والطبقة العليا من المجتمع، وطبقة العبيد، والخدم.

الرواية تتناقض مع اسمها بشكل كلي، ففي عالم كل شيء فيه متاح للبشر فيه، يتحول الإنسان لآلة مجردة من أي مشاعر، حيث تُطمس البشرية ومعالمها وراء التطور العلمي والتكنولوجي.

وبرغم أن الرواية تُصنف كواحدة من أعظم روايات القرن الـ20، فإنها مُنعت في كثير من الدول، ففي أيرلندا تم منع الرواية عام 1932 (سنة نشرها)، بسبب احتوائها "أفكارًا معادية للدين"، ولتناولها "أمور إنجاب الأطفال بشكل غير لائق أخلاقيًا"، كما منعت في الهند بسبب تناولها "مسائل جنسية غير لائقة"، وفي أستراليا.



3

الكتاب: "عناقيد الغضب"

Grapes of Wrath

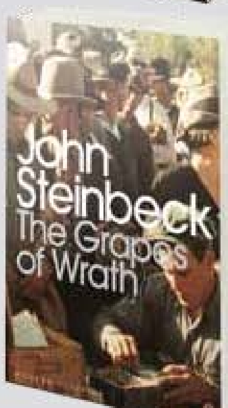
المؤلف: جون ستاينبيك

الرواية الأكثر واقعية، وقسوة في وصف الفقر، والمآسي المرتبطة به، إنها رواية Grapes Of Wrath أو "عناقيد الغضب"، للكاتب الأمريكي جون ستاينبيك، والصادرة العام 1939، وتحولت الرواية عام 1940 لفيلم يحمل الاسم نفسه، قام ببطولته الممثل الأمريكي هنري فوندا.

تصف الرواية حال المجتمع الأمريكي فيما بعد الكساد الاقتصادي الكبير، الذي حدث في ثلاثينيات القرن الـ20، وتوابع هذا الكساد الاقتصادية والاجتماعية بالنسبة للفقراء، والمزارعين.

تدور الرواية حول عائلة جود، التي تعمل في الزراعة بولاية أوكلاهوما الأمريكية، وبسبب الأزمة الاقتصادية الطاحنة، والجفاف الذي أصاب الأراضي الزراعية، تسوء الأحوال المادية لعائلة جود، ويضطرون للهجرة لولاية كاليفورنيا؛ بحثًا عن الرزق.

وبسبب واقعية الرواية الشديدة، ووصفها الدقيق لمدى الفقر المدقع الذي عاش فيه ملايين الأمريكيين خلال فترة الكساد، ومدى قسوة النظام الرأسمالي في البلاد، تم منع الرواية في كثير من الولايات، بل وصل الأمر لحرق الرواية بشكل علني، وعلى يد العمال التي كانت الرواية تدافع عنهم، وتصف واقعهم بأمانة.



4

الكتاب: "مزرعة الحيوانات"

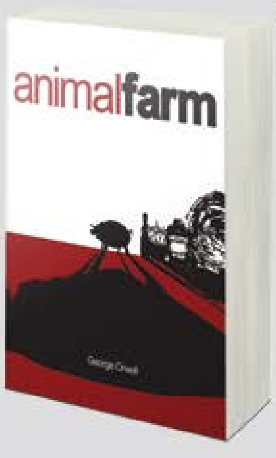
Animal Farm

المؤلف: جورج أورويل

واحدة من أشهر الروايات السياسية، وأكثرها إثارة للجدل في التاريخ، الرواية التي تمثل كابوساً لكل نظام ديكتاتوري، إنها رواية Animal Farm أو "مزرعة الحيوانات" للكاتب الإنكليزي جورج أورويل، التي صدرت العام 1945.

وتدور الرواية حول مجموعة من الحيوانات، تعيش حياة شديدة القسوة والمعاناة في مزرعة المزارع جونز، ثم تقرر الثورة على صاحب المزرعة وأتباعه، وطردهم خارجها، وبمجرد نجاح الثورة، يبدأ الخنزيران (سنوبول، ونابليون) حكم المزرعة، ويبشرون بقية الحيوانات بالعهد الجديد، حيث لا معاناة، وكل الحيوانات متساوية في الحقوق والواجبات.

اختارت مجلة تايم الرواية كواحدة من أفضل مئة رواية بالإنجليزية (منذ 1923 حتى تلك السنة، 2005)؛ وجاء ترتيبها 31 في قائمة أفضل روايات القرن العشرين

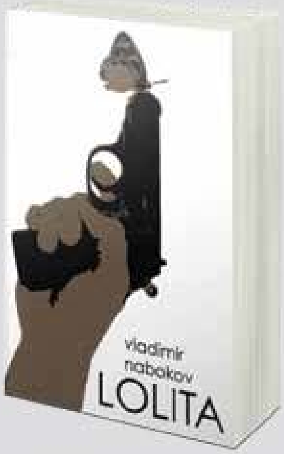


التي أعدتها دار النشر Moden Library.

ولكن بمرور الوقت تكتشف الحيوانات أنها تخلصت من جونز، وجبروته، واستبدلوه بديكتاتورية الخنزير، الذي استولى على السلطة بعد طرد سنوبول خارج المزرعة، بل أصبحت حياة الحيوانات تحت حكم نابليون أسوأ مما كانت عليه وقتما كان يدير جونز المزرعة.

الرواية تُشير إلى أن الثورات قد تتحول لعملية إحلال ديكتاتورية محل ديكتاتورية أخرى، وهي إسقاط بشكل غير مباشر على الثورة البلشفية بروسيا، والنظام الشيوعي الحديدي في الاتحاد السوفيتي تحت حكم ستالين تحديدًا.

5
الكتاب: لوليتا
Lolita
المؤلف: فلاديمير نابكوف



من أكثر الروايات التي تمت محاربتها وقت صدورها، البعض يراها تحفة أدبية، والبعض الآخر يراها مبتذلة أخلاقيًا. إنها رواية Lolita للكاتب الروسي فلاديمير نابكوف.

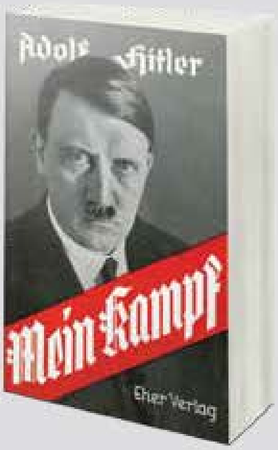
صدرت الرواية العام 1955، وتم تحويلها لفيلم مرتين، مرة العام 1962 في فيلم أخرجه ستانلي كوبريك، ومرة أخرى العام 1997، وقام ببطولة الفيلم الممثل الإنكليزي جيرمي أيرونز.

تدور قصة الرواية حول مدرس الأدب هامبرت هامبرت، وعلاقته بابنة زوجته دلوريس، ذات الـ12 عامًا.

تم منع استيراد الرواية في إنكلترا، وظلت ممنوعة حتى العام 1959، كما تم منعها أيضًا في فرنسا، وكان مبرر المنع هو أنها تعدت كل الخطوط الحمراء، وأنها غير أخلاقية، بينما في أمريكا نُشرت الرواية بشكل طبيعي.

واليوم يُنظر لرواية لوليتا على أنها واحدة من أعظم روايات القرن الـ20، وذلك بحسب تصنيف مجلة التايمز الأمريكية.

6
الكتاب: "كفاحي"
Mein Kampf
المؤلف: أدولف هتلر



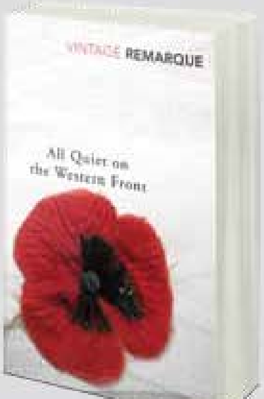
من أكثر الكتب الممنوعة، والمُحرمة على مستوى العالم، إنه كتاب Mein Kampf أو "كفاحي" للزعيم النازي أدولف هتلر، وصدر الكتاب في جزأين، الجزء الأول صدر في عام 1925، والثاني العام 1926.

يصف هتلر في الكتاب أفكاره، ومعتقداته السياسية، وطموحاته، وخططه لمستقبل ألمانيا، والكتاب بمثابة سيرة ذاتية للزعيم النازي، وقد كتب هتلر الكتاب وهو في السجن، فبعد الانقلاب العسكري الفاشل العام 1923، الذي قام به للاستيلاء على السلطة في ألمانيا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، تم سجنه هو، واتباعه، وفي أثناء فترة حبسه قام بتأليف الكتاب.

ملايين النسخ من الكتاب تم بيعها وقت حكم هتلر لألمانيا، ولكن بعد الحرب العالمية الثانية مُنع بيعه، أو طباعته، بالإضافة إلى منعه في بعض دول العالم مثل الأرجنتين، التي جعلت نشر أو استيراد الكتاب فعلاً غير قانوني، وبولندا التي منعت نشر الكتاب حتى العام 1992.

وكانت حقوق طباعة الكتاب ملكية حصرية لسلطة ولاية بافاريا الألمانية حتى العام 2015، التي كانت تمنع نشره داخل ألمانيا؛ منعًا لانتشار أفكار هتلر مرة أخرى، لكن في 2016 أعيدت طباعة الكتاب مرة أخرى في البلاد.

7
الكتاب: "كل شيء هادئ على الجبهة الغربية"
All Quiet on the Western Front
المؤلف: إريك ماريا ريمارك



واحدة من الروايات الصادمة، التي تصف أهوال الحرب، وهي رواية All Quiet on the Western Front أو "كل شيء هادئ على الجبهة الغربية"، للكاتب الألماني إريك ماريا ريمارك.

في البداية، نُشرت الرواية في إحدى الصحف الألمانية في أواخر العام 1928، ثم نُشرت في كتاب خاص بها العام 1929، وتحولت الرواية لفيلم حمل اسم الرواية نفسه عام 1930.

تدور الرواية حول معاناة الجنود الألمان النفسية، والعصبية، والجسدية، خلال الحرب العالمية الأولى، وكيف أثر ذلك عليهم بعد الحرب، وحولهم لأشخاص لا يمتّون بصلة لما كانوا عليه قبل الحرب.

كما تنتقد الرواية سير الحياة في ألمانيا بشكل طبيعي بعد الحرب، دون أدنى اهتمام بأولئك المحاربين الذين ضحّوا بكل شيء في سبيل ألمانيا، كما تصور الرواية مدى الوحشية والعنف في الحرب.

حارب النظام النازي الرواية، فاعتبر الرواية عملاً أدبيًا غير وطني؛ لأنها تصور مدى دموية الحروب، وهو على النقيض مما يسعى الحزب النازي إلى ترسيخه لدى العامة، فمنعت الرواية تمامًا، وأحرقت جميع نسخها، بل تم تصنيف ريمارك على أنه غير وطني، وسُحبت منه الجنسية الألمانية، فاضطر للهجرة إلى سويسرا.

8
الكتاب: 1984
المؤلف: جورج أورويل



"الأخ الكبير يراقبك"، "جريمة الفكر"، وغيرهما من المصطلحات التي أصبحت تُستخدم لوصف أي نظام قمعي في العالم، استمدت من الرواية التي تصف سيطرة الديكتاتوريات على شعوبها، إنها رواية 1984 للكاتب الإنكليزي جورج أورويل. صدرت الرواية العام 1949، وتحولت لفيلم بالاسم نفسه عام 1984.

تدور الرواية حول دولة أوشينيا الخيالية، الدولة التي يحكمها نظام شمولي، يراقب كل أفعال المواطنين، ويخفي كل معارضيه، ويسيطر على كل شيء، بطل الرواية ونستون سميث، يتمنى الثورة على النظام، لكنه يصطدم بالواقع المرير.

الرواية توضح كيف تتحكم الأنظمة الديكتاتورية في شعوبها، فتغير التاريخ، وتطمس وقائعه، وتمنع الحريات الشخصية، بل تُجرّمها، وكذلك التفكير المستقل، حتى اللغة تلغي منها المصطلحات التي تساعد على الفكر، والتمرد. مُنعت الرواية في كثير من الدول، وبالأخص في الاتحاد السوفيتي.



2

أوجاع تعليمية

وجع الطالب (الضحية/ وغياب المثل الأعلى)



د. محمد شوقي شلتوت

أستاذ تكنولوجيا التعليم المساعد ومدير مركز التعلم الإلكتروني بكليات الشرق العربي للدراسات العليا السعودية واستشاري التعليم الإلكتروني والفنون البصرية

/http://www.shaltot.com

@drshaltout



إكمالاً لأوجاعي التعليمية التي بدأتها معكم بالوجع الأول "وجع المعلم"، أكمل بباقي الأوجاع مع أحد الأوجاع التي أصابت الأعمدة الرئيسية بالعملية التعليمية من معلم وطالب ومنهج، وأقدم بين أياديكم وجعي الثاني عنصر مهم، وهو الطالب مستقبل الأمة إلي الرقي والتطور، فإذا كان مسخًا من المسوخ فسيقودها إلى الهاوية، لذلك ستحمل لنا السطور القادمة أوجاعًا قاتلة، لأنها تخص الطالب الذي هو مخرج العملية التعليمية .... لذلك سوف ترتكز أوجاع الطالب على محورين: محور: الطالب الضحية. والمحور الآخر: الطالب وغياب المثل الأعلى.

المحور الأول: الطالب الضحية

يعاني الطالب من قرارات غير مدروسة من القائمين على المناهج في وطننا العربي التي للأسف إلى الآن تخاطب الجانب المعرفي، والتي لا تتفاعل مع احتياجاته وترى جوانبه الأخرى ... وسأجد الردود الجاهزة من أهل الاختصاص، والتي تتلخص في "إنني ظالم، وأن هناك عملية تطوير للمناهج بشكل ممتاز في الدول العربية، ترتقي لمناهج الدول المتقدمة، والتي تخاطب جميع جوانب الطلب واهتماماته"... إجابتي ستكون قاسية، لا أنكر أن هناك تطويرًا للمناهج في دولنا العربية الجميلة، ولكنه تطوير في شكل الكتب وإخراجها فنيًا أو إدخال التقنية وتطبيقها في المدارس، ولكن إلى الآن إذا نظرنا عن قرب لهذه المناهج سنجدها إلى الآن تخرج طالبًا متفوقًا، ولكن فقط في الجانب المعرفي فقط، وأصبح الطالب يمتلك رأس مثل صفيحة المياه التي تملأ بمعلومات، ونطلب منه أن يفرغها في الاختبارات آخر العام بدون توضيح ماذا سوف تساعده هذه المعلومات في حياته، وكيف تكون طريقه تغير لسلوكه وعلاقته بالآخرين، ويرجع لعدم الاستفادة من المناهج المطورة لأسباب كثيرة جدًا يعرفها كل من يعمل في المناهج والتعليم وهي أولاً إن الكثير من التطوير يأتي بدافع مواكبة الموضة وبأننا نمتلك مناهج مطورة تعتمد على التكنولوجيا الحديثة، التي سوف تجعلنا بين الدول المتقدمة، وأحب أن أقول التكنولوجيا ليست الحل عندما نطور المناهج. الحل أن نجد مناهج تساعد الطالب على بناء شخصيته ووضعه على الطريق السليم في حياته، وتجعله يستفيد مما يتعلمه في تطبيقه في حياته، لا تجعلوا الطالب ضحية للتطوير المستمر للمناهج، التي أصبحت في كثير من الأحيان مجرد تغير التصميم والإخراج الفني، إنما اجعلوا منه مشاركًا يصنع منهجه بنفسه، الذي يساعده على رسم مستقبله ومستقبل الأمة.

المحور الثاني: الطالب وغياب المثل الأعلى

عندما كنا صغارًا كنا نتشوق جدًا لسؤال ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر، ومن هو مثلك الأعلى؟ أعتقد أن هذا السؤال أصبح نادرًا أو الإجابة أصبحت عليه مختلفة عن زمننا، حيث كانت إجابتنا أن أصبح ضابطًا للدفاع عن أرض الوطن أو دكتور أو مهندس ... قمت بتجربة أن أسأل هذا السؤال لعدد من الأطفال، وكان الرد أن أصبح لاعب كرة أو فنانًا أو من مشاهير السوشيال ميديا ..... لست ضد هذه الفئات، لأن المجتمع يجب أن يكون متنوعًا في جميع التخصصات والعلوم والفنون...

ولكن سأخذ مشهدًا من فيلم مصري كان يدور بين الفنان الراحل توفيق الدقن حيث يدخل على أحد الفنانين الذي يريد منه أن يعلمه أصول الفتوة ويجيبه الفنان توفيق الدقن بجملة تلخص ما نحن فيه "جري إيه للدنيا، الناس كلها فتوات، أمال مين اللي هيضرب"، لذلك أقولها اقتباسا لهذه الجملة "جرى إيه للدنيا الطلاب كلهم يريدون أن يكونوا مشاهير كورة أو فن أو سوشيال ميديا، أمال مين سوف يكون عالمًا أو مخترعًا" هذا ما أريده أن يصل للجميع، وهو إننا نحتاج لتغذية طلابنا وتغير فكرهم إلى أن يكونوا مخترعين وعلماء، لأن الأوطان لا تبني بمشاهير السوشيال ميديا ولاعبي الكورة، إنما هم جزء صغير فيه إنما تبنى بالعلماء والمخترعين.

وأخيرًا أختم وجع الطالب .... إذا لم نجد كتبًا ممزقة وأوراقًا مبعثرة في باحات مدارسنا وخارجها، مع الانتهاء من كل فصل دراسي.... أستطيع أن أقول لكم إن لدينا طالبًا يقدر العلم والعلماء، وأن الوجع تم الشفاء منه.

انتظروني إذا كان في العمر بقية ... مع باقي أوجاعي التعليمية، لعل الله يشفيها قريبًا.



الروبوت.. والمفهوم الجديد للتعليم الممتع

ظهرت كلمة «روبوت» لأول مرة عام 1920 ، في مسرحية الكاتب المسرحي التشيكي كارل تشابيك، التي حملت عنوان «رجال روسوم الآلية العالمية»، وترمز كلمة «روبوت» في اللغة التشيكية إلى العمل الشاق، إذ إنها مشتقة من كلمة «Robota» ، التي تعني السُخرة أو العمل الإجباري. ومنذ ذلك التاريخ، بدأت هذه الكلمة تنتشر في كتب وأفلام الخيال العلمي، التي قدمت عبر السنوات عددًا من الأفكار والتصورات لتلك الآلات وعلاقتها بالإنسان، الأمر الذي كان من شأنه أن يفتح آفاقًا واسعة للمخترعين، ليبتكروا ويطوروا ما أمكن منها.



الروبوت المسمى سايا أو الأستاذة سايا تقوم بمهام المعلم، هو روبوت أنثى، يمكن أن يتكلم لغات عدة، حسب برمجته

شهد العقدان الأخيران تطورًا كبيرًا في مجال التعليم، انتقل فيه من النمط المتمركز حول المعلم، إلى النمط المتمركز حول الطالب، إذ يقوم الطلبة بالتعلم من خلال الأنشطة والتجريب والبحث والاستقصاء، والأمر نفسه بالنسبة للمعلم الذي تغير دوره من مصدر يتمركز حوله التعليم، إلى موجه للطلبة داخل الصف، ومع كل هذه التغيرات والتطورات.

فقد أصبح من الضرورة بمكان وجود مناهج وأساليب جديدة في التعليم، تحقق للطالب إمكانية التعلم الذاتي والعمل ضمن فريق، لتحقيق أهداف يرسمها الطلبة بأنفسهم، بمساعدة المعلم، ومن أجل مواكبة معطيات العصر، يحتاج الطلبة والمعلمون، على السواء، إلى امتلاك المهارات اللازمة لدخول مجالات التكنولوجيا الحديثة التي أصبح فيها الكمبيوتر ركنًا رئيسيًا ومفتاحًا ضروريًا للدخول إليها.

ويعد الروبوت أحد المجالات الحديثة التي حققت انتشارًا سريعًا وواسعًا في الأوساط التعليمية في أنحاء كثيرة من العالم، فالروبوت كأداة تنفيذ للمهمات، يملأ زوايا حياتنا ،ويقوم بالكثير من الأعمال التي يعتبر بعضها مستحيلًا بالنسبة للإنسان، ولكن تصميم وتركيب روبوت يبنى على مبادئ بسيطة، يستهلها الطالب كمدخل لتعلم المبادئ الأساسية في العلوم، من خلال هذا التطبيق أو ذاك، ومن هنا يأتي دور الروبوت وسيلة تعليمية عملية، تفتح آفاقًا لا حدود لها للطالب، لكي يفكر ويصمم وينفذ، ولكي يوظف المبادئ العلمية التي يعرفها ، ويبحث عن تلك التي يحتاجها للوصول إلى هدفه.

بيئة مشجعة

وقد تم إدخال تعليم الروبوت في العديد من مدارس العالم، ولاقى إقبالاً كبيرًا جدًا من الطلبة والمعلمين وأولياء الأمور، إذ يوفر تعلم الروبوت البيئة المشجعة والمبنية على التعلم الذاتي، والعمل اليدوي ودمج العلوم والتعلم، من خلال التجريب وتقديم الحلول الإبداعية للمشكلات، لقد أصبح تعليم الروبوت وإدخاله في مناهج الطلبة، واحدًا من أولويات المدارس العصرية الحديثة المواكبة والمشجعة للتكنولوجيا ، والحريصة على إدخال طرائق وأساليب تعليم محفزة ومشجعة للطلبة.

روبوت ينوب عن تلميذ أمريكي مريض في المدرسة

على الرغم من إصابته بالحساسية الشديدة ، وإقامته في منزله على بعد خمسة أميال من مدرسته الابتدائية في غرب مدينة «وينشستر» بنيويورك، إلا أن الطفل الأمريكي «ديفون كارو سبرتوتي»، البالغ من العمر سبع سنوات، يتلقى تعليمه في مدرسته دون أن يختلط بأي من زملائه أو مدرسيه وجهًا لوجه؛ «ديفون» يستخدم جهاز الكمبيوتر الخاص به في المنزل، الذي يرسل إشارات لاسلكية إلى الروبوت المسمى «VGO».

ويستطيع «ديفون» وهو في غرفة نومه، من رؤية أستاذه وزملائه والسبورة من خلال شاشة تفاعلية، بل يمكنه أيضًا أن يتطوع للرد على أسئلة أستاذه، من خلال وميض من الضوء، بدلاً من رفع يده.

تبلغ تكلفة الروبوت 5 آلاف دولار ،ويعمل على منع حالة التوحد والعزلة التي كانت تهدد الطفل، إذ إن حالته الصحية لا تسمح له بالاختلاط في المدرسة.

الأستاذة روبوت

أطلقت اليابان روبوتًا جديدًا، يمكن أن يحل محل الأستاذ الإنسان؛ والروبوت هو حصيلة 15 عامًا من البحث والتجربة، على يد بروفسور العلوم في جامعة طوكيو هيروشي كوباياشي، وهي النموذج الأحدث من عالم الروبوت الذي يجتاحه المجتمع الياباني، الروبوت المسمى سايا ، هو روبوت أنثى، يمكن أن يتكلم لغات عدة، حسب برمجته ، كما يمكن برمجته لتحديد الأسماء من خلال الأصوات، لتعرف إلى تلاميذه المستقبليين، كما صممت سايا كي تقدم تفاعلاً بملامحها ، بمعنى أنها تظهر علامات الغضب، والرضا ، والسرور، بسبب ثمانية عشر موتورًا صغيرًا موجودًا تحت بشرتها الاصطناعية المصممة من اللاتيكس.



الزّمن في الفنّ المعاصر رومان أوبالكا نموذجًا

ياسمين الحضري اللّحياني

تونس

"أنا أنتظر أنتظر والوقت يزحف ويزحف، أتمنّى لو كان الوقت شيئًا ملموسًا لتجاهلت وجود الناس حولي وانقضضت عليه أنهشه بأظافري وأمضغ أشلاءه بسناني، ثمّ ألفظه على الأرض لينزوي خائفًا صاغرًا بين قدمي إن قلت له قف جمد وإن أمرته بالتحليق غاب عن الحياة وأنا ممسكة زمامه مستلقية بين جناحيه، أنا أنتظر ولن أتحمّل الانتظار أكثر من ذلك."[1]

ليلى بعلبكي

أنا أحيا



1965 / 1 - رومان أوبالكا[5]



رومان أوبالكا أثناء تصوير نفسه[6]

بدأ مشروع أوبالكا من فكرة الانتظار، انتظر زوجته في المقهى، تأخرت كثيرًا فأدرك أنّ الوقت الضائع المنتظر مرّ دون أن يوثّق فيه أيّ فعل أو أيّ حركة فقرّر منذ ذلك الوقت توثيق الزمن وتسجيله من خلال لوحات أحاديّة اللون يبدأ فيها بالعدّ تصاعديًا بدءًا بالرقم "1" إلى ما لانهاية، يرسم بالأبيض أرقامًا صغيرة على خلفيّة سوداء في صفوف أفقيّة

إنّ مسألة الوعي بالزّمن تبدأ مع حدث مهم أو حتّى مع حدث بسيط في حياة الإنسان تدغدغ فيه حبّ الاطّلاع والاهتمام بهذا المحرّك الكوني، وهو ما سنتطرّق إليه من خلال تجربة فنيّة معاصرة، كانت تعتمد على مفهوم "الزّمن" في تكريس أعمال فنيّة حاولت جاهدة تفعيل هذا المفهوم، وجعله ماديًّا، مرئيًّا ومتواصلاً في بعض الأحيان كأنّها تقبض عليه، ستبدأ رحلتنا مع الفنّان الفرنكو-بولوني رومان أوبالكا[2] "Roman Opalka" وقبل الغوص في تجربته لا بدّ من تحديد مختلف معاني الزّمن الذي من شأنه أن يوضّح لنا الأساس الفكري الذي أدّى بهذا الفنّان لتبنّي الزّمن كمفهوم لأعماله، إذ تعدّ هذه الكلمة مصطلحًا شفّافًا و نقيًّا مليئًا بالمعاني والمدلولات، فيتطلّب منّا ذلك وقفة لمعرفة معانيها حتّى يؤمّن لنا ذلك سلامة وأمن الطّريق، نجده في المنظور الإغريقي "دائريّ يوافق الحركة الدّائريّة للأفلاك وهو في التّصورات المسيحيّة متّصل متصاعد له بداية ونهاية، هي بداية الإنسان ونهايته من الخلق إلى الخلاص"[3] يتعلّق تعلّقًا وثيقًا بمبدأ الحركة والتغيير والتّطوّر، "فالبعد الزّمني تابع للحركة، إنّه امتداد للحركة."[4]

بدأ مشروع أوبالكا من فكرة الانتظار، انتظر زوجته في المقهى، تأخرت كثيرًا فأدرك أنّ الوقت الضّائع المنتظر مرّ دون أن يوثّق فيه أيّ فعل أو أيّ حركة، فقرّر منذ ذلك الوقت توثيق الزّمن وتسجيله من خلال لوحات أحاديّة اللّون، يبدأ فيها بالعدّ تصاعديًّا بدءًا بالرقم "1" إلى ما لا نهاية، يرسم بالأبيض أرقامًا صغيرة على خلفيّة سوداء في صفوف أفقيّة، وهنا فهمنا العمل الفنّي يبدأ معه وفيما يكوّنه، وعلى النحو الذي يكون عليه أي من خلال هذا الأسلوب الخاصّ في الوجود، وهذا هو المعنى الذي يشرح به هيدجير كلمة الماهية، التي لا يعني ما يكونه الشيء فحسب، وإنّما الكيفيّة أو الأسلوب الذي يكون عليه الشيء أيضًا.

وبعد مرور ثلاث سنوات في تطبيق الجزئيّات قرّر أوبالكا أن يحدث تغييرًا في العمليّة ففي سنة 1968 بدأ مع تغيير الخلفيّة من الأسود إلى الرّمادي، فهو يرى بأنّ الرّمادي يعكس كونه وفي عمقه يجد حياته. أمّا في سنة 1972 قرّر أن يخفّف تدريجيًّا من هذه الخلفيّة الرّماديّة بإضافة 1% من الأبيض في كلّ مرّة حتّى يصل للأبيض على الأبيض، وهذه النقطة ستكون بالتّحديد مع اللّوحة 7777777 وهي في الحقيقة اللّوحة التي كانت تخيف أوبالكا فكان يخالها ستوازي ونهايته البيولوجيّة بوصوله لهذا الأبيض الخالص. بعد أن يكمل أوبالكا كلّ جزئيّة يقوم بتصوير نفسه متّبعًا سلوكًا فوتوغرافيًّا يكرّره كلّ مرّة كحفاظه على الزاوية نفسها، درجة الإضاءة ذاتها، الهيئة نفسها (اللّباس، تسريحة الشعر ...)

مشروع حياته هذا بدأ سنة 1965 لينتهي في زمن مجهول يمكن اعتباره زمنًا حتميًّا مرتبطًا بنهايته البيولوجيّة.

تكتسي الجزئيّات نسقًا تصاعديًّا يبدأ من الرّقم "1" إلى ما لا نهاية، فيتّخذ أوبالكا العدّ كوسيط بينه وبين زمنه المنتظر، يحصي من خلاله أيّامه، تدرّجاته، تعثّراته حتّى يصل لنهايته الحتميّة. "فليس العالم هو مجموع الأشياء القابلة للعدّ أو غير القابلة للعدّ، المألوفة، أو غير المألوفة والتي تكون قائمة هناك فحسب، كذلك ليس العالم هو المجال المدرك حسيًّا، إنّ العالم لا يمكن أن يكون أبدًا موضوعًا يتمثّل أمامنا ويمكن رؤيته، فالعالم يكون في



كلّ الفترات الحاسمة من تاريخنا حين نولد أو نموت"[7] فنلاحظ هنا أنّ الزّمن برغم تعدّد مجالاته يظلّ محدودًا بلحظة الولادة ولحظة الموت، ويظلّ هاجس النهاية يمذك نفوسنا، لذلك فالإنسان بصفة عامّة يكون في صراع متواصل مع الزّمن محاولاً السيطرة عليه، وهو ما يظهر جليًّا في تجربة رومان أوبالكا، الذي يحاول فيها تقديم زمن مادّي ومتسلسل منطلقًا من زمن معاش، ينطلق من حاضره، من وجوده البيولوجي والفكري، فتكون هنا بالضّرورة أمام نفس توثيقي يوثّق زمنًا حاضرًا وكأنّنا إزاء سرد روائي ينقل اللّحظة بحذافيرها، يطمح من خلالها الفنّان عن تواصل فاعليته في المجتمع، لعلّنا نكون هنا إزاء "زمن بشري" يتمّ التعبير عنه بطريقة سرديّة.



رومان أوبالكا



الوقت المفصّل لدى رومان أوبالكا 1931 / 2011 [10]

le temps en détails par Roman Opalka19312011/

فهل هو زمن حاضر مستقلّ عن ذات الفنّان؟ أم هو جزء من حاضر الآخرين؟ أم هل هو زمن حاضر ناتج عن تعاضد زمن الفنّان والمجموعة؟

بالرّجوع إلى الفلسفة البرغسونيّة نجد أنّ الزّمن أصبح زمنًا نفسيًا يعتمد على الفلسفة التّحليليّة النّقديّة، زمن لا يتحدّد بلحظات بل يكون في حركة متواصلة لا حدود لها تجمع بين زمن الماضي وزمن الحاضر في آن واحد وكان لهذه النّظريّة صدى في الوسط الإبداعي، سواء في المسرح أو الفنون التّشكيليّة أدّت إلى إنتاج أعمال "يكون فيها الماضي والحاضر خليطًا، لا تستطيع السّاعة ضبطها ولكن الفنّ يستطيع أن يعكسها، لأنّه هو الذي يستطيع أن يجمّد الزّمن في الآنيّة، ويوقف سيولته ويحتويه بماضيه وحاضره في إطار متماسك"[8] وهو ما يهدف إليه رومان أوبالكا من خلال توثيق جزئيّات من الزّمن بتسجيله للأعداد، وكأنّه يريد القبض عليه، ثمّ ليدعّم ذلك بصورة فوتوغرافيّة تثبّت حضوره في الزّمن، فيحفظ بذلك الأحداث من الضّياع والنسيان، وهي في الحقيقة عمليّة حفظ لذاكرته الفرديّة، سواء الفنيّة أو الشّخصيّة.

إنّ المتمعّن في مشروع أوبالكا يلاحظ تقشّفًا إن صحّ التّعبير بعيدًا عن الكثافة اللّونيّة والكثافة التّقنيّة، فيبلغ بذلك معنى الاختزال في اللّوحة، يسعى من خلالها بلوغ عالم نقيّ، تتغيّر فيها النّسق من حياتي إلى ثقافي فنّي بدأت مع الخلفيّات السّوداء، لتنتهي مع إنتاج الأبيض على الأبيض إذ يقرّ في أحد لقاءاته الصّحفيّة أنّ تمشّيه نحو الأبيض شعور بالاغتباط، وكأنّه يتّبع سردًا أسطوريًا. تتّجع الأعداد في هذه الجزئيّات تراكيب أنيقة بتصاقّها وبساطتها وبنمطها الإيقاعي تدخل ضمن دائرة الحياة وتطوّرها وتغيّرها، وهي تفاصيل تدلّ على قوّة الوجود الإنساني، وتكريس لاستمرار فاعليته في المجتمع، فمن الصّعب أن نتصوّر حياة تتكوّن من أرقام تسجّل ساعات ودقائق، أيّام وسنوات من حياة الفنّان، والتي ستتواصل إلى يوم وفاته، ساعات طويلة يقضّيها في العدّ مستغنيًا عن باقي الأنشطة الحياتيّة كمنع نفسه من السّفر والخروج، فكأنّ التّقشّف في اللّوحة يوازيه تزهّد في الحياة، وكأنّنا به سجينا داخل أسوار فنيّة، تتمثّل في الكاميرا والقماشة والأعداد، في حين يرى أوبالكا أنّه يكون أكثر تحرّرًا مع كلّ ضربة فرشاة، إنّ الأمر هنا يتعلّق بالمظهر الذي يؤكّد وجود الإنسان في الزّمن، ويتجسّد خاصّة في التّعاقب والتّكرار في العادات السّلوكيّة، فيصبح وعاء للحدث الإنساني وسرد الفعل هو الوجه المشخّص للزّمن، "فنحن لا نفكّر في هذا الزّمن إلاّ من خلال سرده"[9] ، وهنا نستنتج أنّ السّرد هو تشخيص للزّمن ونقطة مشتركة بين الزّمن الفيزيائي وزمن العالم الخارجي والزّمن الذّاتي، ولم يتوقّف أوبالكا عن هذا العمل المتكرّر والمتواصل، وقد أصبح هذا الفعل أشبه بالوسواس أو طقس من طقوس حياته اليوميّة إلى جانب العدّ التّصاعدي الذي يرافق الجزئيّات إلى ما لانهاية، هي حالة صعود، وكأنّه يعدّ أيّامه نحو النّهاية وهي عمليّة شبيهة بالانتحار البطيء لعلّه خوف من هذه اللّحظة، وهي التي جعلت أوبالكا يلتقي بذاته كلّ يوم من خلال الصّور التي يلتقطها بعد كلّ جزئيّة، فيعود إلى ذاته الماضية من خلال الصّور السّابقة، فهو يهب نفسه زمانه إن صحّ التّعبير بماضيه وحاضره، وانتظار نهايته الحتميّة، أوبالكا لا يعيش الصّدفة ولا العفويّة، بل يقنّن زمنه ونشاطه وفق نظام زمنيّ يتمثّل في إدراج ذاته في الزّمن مع يقينه بأنّها سوف تغدو ماضيًا، فيختفي وراء هذه اللّوحات.

> ”إنّ المتمعّن في مشروع أوبالكا يلاحظ تقشّفًا إن صحّ التّعبير بعيدًا عن الكثافة اللّونيّة والكثافة التّقنيّة، فيبلغ بذلك معنى الاختزال في اللّوحة يسعى من خلالها بلوغ عالم نقيّ تتغيّر فيها النّسق من حياتي إلى ثقافي فنّي، بدأت مع الخلفيّات السّوداء لتنتهي مع إنتاج الأبيض على الأبيض“

المراجع:

1 - ليلى بعلبكي رواية أنا أحيا 1958

2 - رومان أوبالكا: فنّان فرنكو - بولوني ولد سنة 1931 وتوفّي سنة 2011 درس الطّباعة الحجريّة بمدرسة الرّسومات ثمّ واصل دراسة الفنّ بمدرسة الفنون والتصميم في لودز.

3 - نزار شقرون، شاكر حسن آل سعيد ونظريّة الفنّ العربي، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، دار محمّد علي للنشر، منشورات الاختلاف الطّبعة الأولى 2010 ص 236

4 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللّبناني بيروت لبنان ص457

5 - http://thesedlist.com/wiki21163--1160-382-351-view-france-profile-opalka-roman.html

6 - http://saintjoursover-blog.com/article-biographie-de-roman-opalka-84585280.html

7 - Heidegger. Being and Time. New York harper and row publishers 1962 page 47.

8 - محمود طه، النصّ في الأدب الانجليزي، القوميّة للطّباعة، القاهرة 1966 ص 121.

9 - Paul Ricoeur. Temps et Récit 3. ed Seuil 1985 page 435.

10 - http://intsearch.tbask.com/search/AJimage.jhtml?&searchfor=roman+opalka&p2=%5EZR%5Expt455%ETTAB015%Etn&n=780cbb68ee-subset-tab&ptb=5C2584F4863-D-4D6E-8085-E982F9B6F404&si=CIftys__DK8ECFRHHtAodcHAQ&tpr=sbt&imgsize=all&safeSearch=on&imgDetail=true



فن الشارع يغزو المتاحف بعدما زيّن جدران المدن

يشق فن الشارع تدريجًا طريقه إلى المتاحف مع افتتاح أول مكان عرض دائم في باريس فيما تطرح تساؤلات حول ما إذا كان ذلك يشكل اعترافًا بحركة ولدت قبل خمسين عامًا في الشارع.

ويرى بول اردين مؤرخ الفن المعاصر "ينظر إلى فن الشارع اليوم على أنه تجسيد للحرية. إلا أن في الأمر خطأً كبيرًا". ويشير هذا الخبير في فنون المدن أن صورة "الفنانين الذين لا يلجمهم شيء، ويعملون ليلاً مع احتمال أن توقفهم الشرطة" عائدة خصوصًا "إلى تخيلات".

وقد ولد فن الشارع في نهاية الستينيات مع رسوم في قطارات الأنفاق ثم الغرافيتي. وقد ارتبط لمدة طويلة بالتخريب والحركات الاحتجاجية. إلا أنه فقد منذ ذلك الحين جزءًا من سمعته المتفجرة هذه. وقد عزز هذا الميل مع فتح متاحف لهذا الفن في امستردام خصوصًا وفي سانت بطرسبرغ وفي برلين العام المقبل.

ويؤكد نيكولا لوبرو-لاسير الذي أعار 150 عملاً من مجموعته الخاصة لتأسيس أول موقع مكرس لهذا الفن في باريس: "جوهر الستريت آرت هو الجدران المناضلة لكنه بموازاة ذلك ثمة عمل في المحترف".

جدران قاعات العرض

ويبيع الفنانون أعمالهم ليعتاشوا ويتمكنوا من السفر ليتركوا بصماتهم على الجدران في أنحاء مختلفة من العالم على ما يؤكد الخبير الشغوف بهذا الفن. وقد اختار البعض مثل فوتورا 2000 وهو من رواد الغرافيتي بعرض أعماله منذ الثمانينيات، عمدًا الانتقال من جدران الشوارع إلى جدران قاعات العرض.

وعلى مر السنين حقق لاسير مجموعة تضم لوحات السريغرافيا والصور وأعمال فنانين مثل شيبارد فيري (ملصق "هوب" لباراك أوباما) وبلو المعروف بأنه غطى أحد أعماله الجدارية في برلين بطلاء أسود حتى لا يساهم في المضاربات العقارية أو سبايس إنفايدر وأعماله الفسيفسائية.

ومن بين هؤلاء الفنانين، الكبيران بانكسي وجاي ار، فضلاً عن فنانين ناشئين لا يعرفهم الجمهور جيدًا.

فن الشارع .. موضع تنديد

وبعدما قدمت هذه الأعمال لفترة طويلة في معارض، ستعلق من الآن وصاعدًا على جدران المدرسة الرقمية التي أسّسها كزافييه نيل مؤسس شركة خدمات الهاتف "فري" وهو سابع أغنى شخص في فرنسا.

وهو خيار خارج عن الدروب المطروقة. ففي وسط صفوف الدراسة علقت أعمال تبلغ قيمتها آلاف عدة من اليوروهات. ويمكن لمحبي هذا الفن أن يطلعوا عليها مجانًا خلال زيارات منظمة. وتقوم الفكرة على اكتشاف الأعمال والمكان على حد سواء.

وترى ماغدا دانيش وهي صاحبة صالة عرض للفن المعاصر في باريس وشنغهاي، أن فن الشارع لا يزال يعاني برغم هذه الواجهة الجديدة، من "نبذ معين من المؤسسات" مضيفة "فعلى صعيد الاعتراف، ما زلنا ننتظر المعرض الكبير حول هذا الموضوع". وتؤكد "فن الشارع لا يقتصر على ثلاثة رسوم غرافيتي في أرض خلاء، إنه ظاهرة فنية نجحت في تزيين كل جدران العالم".

فن الشارع

وأمام هذا التحفظ "كلما تحدثنا عن فن الشارع، تحسنت الأمور". على ما يؤكد مهدي بن شيخ وهو صاحب صالة فنية، ويقف وراء فكرة "تور باري 13" المبنى الذي حول الى معرض كبير عابر في العام 2014 ضم نحو مئة فنان قبل أن يهدم.

ويشدد ابن شيخ الذي ساهم أيضًا في إحياء بلدة تونسية من خلال مشروع "جربة هود". على أن "الوقت لم يحن تمامًا لتعليب فن الشارع". وهو لا يزال يفضل الشارع ويكثر من المشاريع في الدائرة 13 من باريس، حيث يقيم.

وتؤكد ماغدا دانيش أن "الشارع يبقى أساسيًا لهؤلاء الفنانين ومصدر إلهامهم. ثمة الكثير من الأماكن في العالم حيث فن الشارع لا يزال غير مشروع" أو موضع تنديد.



كامبردج قبلة للسياحة العلمية

سما يوسف

جدة

كامبردج Cambridge البريطانية التي أود الحديث عنها لأن هناك مدينة تحمل الاسم نفسه في الولايات المتحدة الأمريكية. وتقع تقريبًا في الشمال الشرقي للندن..

تعد مدينة كامبردج هي عاصمة المقاطعة Cambridgeshire، وتبعد عن لندن حوالي 50 دقيقة بالقطار من محطة King's cross الى محطة مدينة كامبردج ....وأما بالسيارة فلا تتجاوز الساعتين....

تشتهر هذه المدينة بأنها موطن جامعة كامبردج التي تعد من أقوى جامعات العالم كما تتميز بأنها قبلة للسياحة العلمية فتكثر فيها معاهد اللغة ويكثر فيها الأجانب بشكل عام.

يشق المدينة نهر "كام" وتتناثر على جنباته بعض كليات الجامعة الشهيرة التي تأتي في المركز الخامس المطلة على نهر "كام"، وهو نهر يشق المدينة ويمر على الكثير من الكليات والمباني القديمة. ويستطيع السائح استئجار قارب للتمتع بالمناظر الخلابة.

mill road ويتواجد عدد من المحلات العربية والإسلامية التي تبيع المأكولات العربية واللحم الحلال وتوجد مطاعم تبيع اللحم الحلال لذا لا تقلق. وهناك يوجد مسجد لتأدية الشعائر الإسلامية.

هناك عدد من المساحات الخضراء (يعني متنزه) وأشهره البارك سايس وهو قريب جدًا من السيتي سنتر، ويحده من الجنوب صالة رياضية مع بركة سباحه والميل رود mill road، وقريب من الشرطة وجامعة الأي بي يو

من أبرز المناطق الجميلة في كامبردج

1 - نهر كام

2 - الكنقز كولج

3 - عدد كبير من المتاحف مثل فيتس ويليام والمتحف التقني، وهي من أشهر المدن البريطانية المشهورة بدراسة اللغة، وتكثر فيها معاهد اللغة، ويكثر فيها الطلاب من مختلف الدول، ومنهم الطلاب السعوديون. لذا فأهلها

متفهمين وأغلب السكان غير بريطانيين من أوروبا أو آسيا أو أمريكا الجنوبية وأفريقيا إما لدراسة اللغة أو الدراسة في جامعة كامبردج (University of Cambridge) الجامعة الثانية قِدمًا على مستوى العالم الناطق باللغة الإنجليزية بعد جامعة أوكسفورد، وإحدى الجامعات العريقة في الجزر البريطانية، تقع في كامبردج في المملكة المتحدة احتلت المركز الأول على ترتيب جامعات العالم حسب تصنيف QS لعام 2010 متجاوزة هارفارد الأمريكية لأول مرة منذ 7 سنوات، وتعد من أميز الجامعات في العالم،، وهي عضو في مجموعة راسل الجامعية وعضو في رابطة الجامعات الأوربية، ودائمًا ما يراوح ترتيبها ما بين المركزين الأول والثاني بالتناوب مع جامعة أوكسفورد العريقة، وتعد الجامعة الأعرق على مستوى العالم في مجال العلوم الطبيعية والرياضيات والفيزياء.

حصلت الجامعة على 89 جائزة نوبل وذلك أكثر من أي جامعة أخرى في العالم، خرجت الجامعة بعضًا من أهم العلماء في القرون الماضية من بينهم: إسحاق نيوتن (نظرية الجاذبية)، وتشارلز دوروين (نظرية التطور)، ويليام هرفي، ديراك، جوزيف طومسون (مكتشف تركيب الحمض النووي) إرنست رذفورد، وبرونوفيسكي وغيرهم.

من أفضل المعاهد وحسب وجهة أغلب الذين درسوا فيها:

البل سكول: ولكن عيبه غالي وأغلبه عرب وحتى السكن مع العوائل أو سكن المعهد يأخذ مبلغًا كبيرًا مقارنة مع المدارس الأخرى.

اليورو سنتر: يأتي في المرتبة الثانية تقريبًا وأسعاره غالية مقارنة ببقية المعاهد ورخيص بمقارنة مع البل سكول والكلام نفسه ينطبق على السكن مع عائلة وسكن المدرسة.

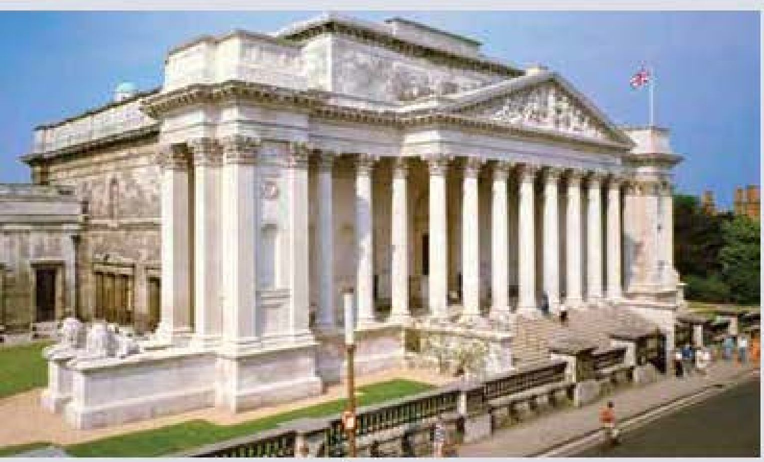
المدينة صغيرة والباصات خدماتها رائعة لا تحتاج المدينة إلى سيارة بالنسبة للأعزب، تسمى مدينة السياكل وأغلب السكان (مدرسون + دكاترة + طلاب إلخ) يركبون "سياكل"، لذا لا تحرج.



قرية بيبوري إحدى الأماكن الجميلة في كامبردج



جامعة كامبردج على نهر كام

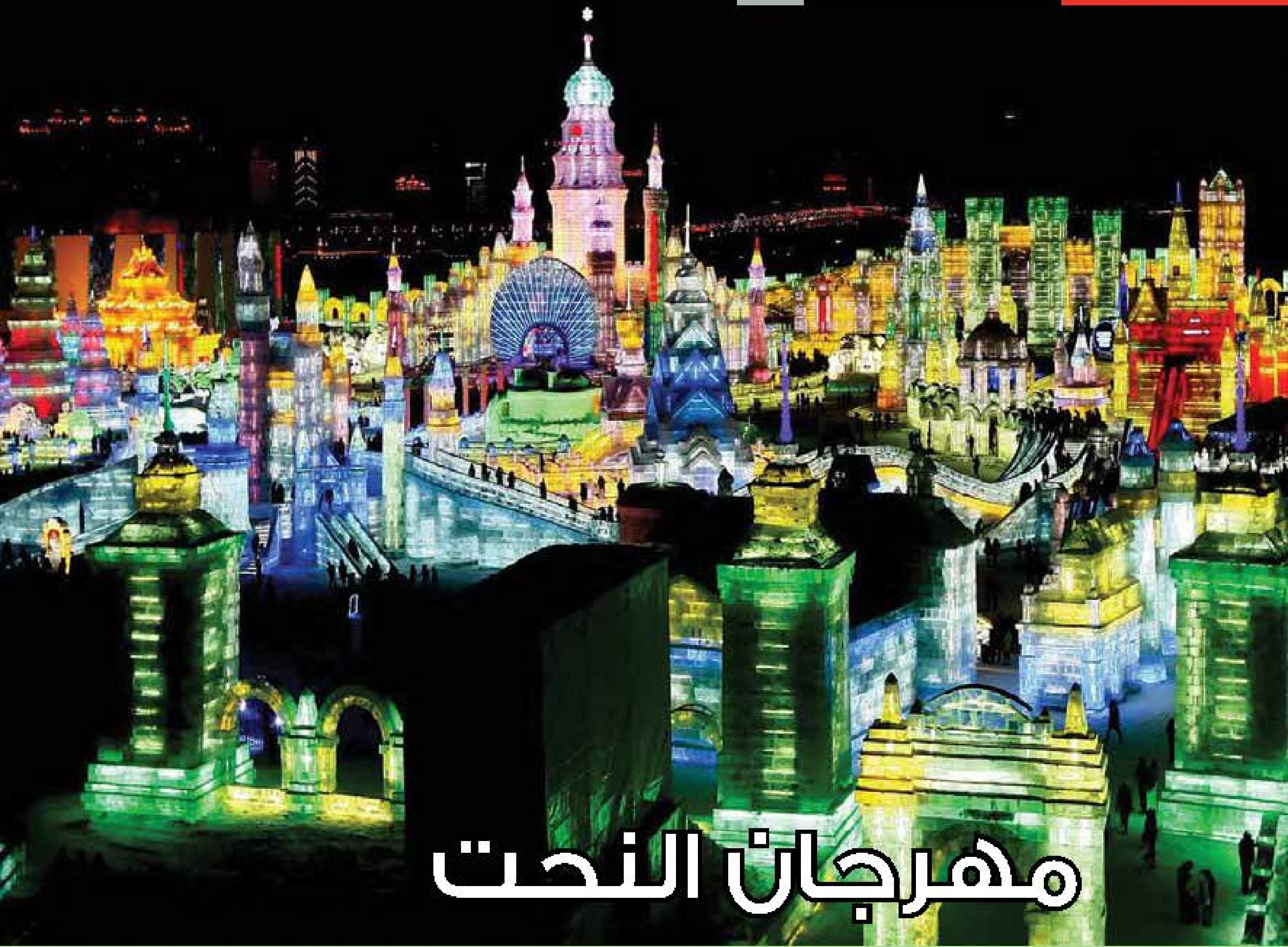


متحف فيتس ويليام





جسر على نهر كام



مهرجان النحت على الجليد في الصين



حسن محمد النعمي

يتجهز الصينيون فصل الشتاء بثلوجه وجليده لإقامة مهرجان النحت على الثلج والجليد في مدينة هاربين بمقاطعة هيلونغ جيانغ شمال شرق الصين، ومنها تخرج لوحات فنية وتصاميم ضخمة تسحر الزائرين.

يقام هذا المهرجان سنويًا في فصل الشتاء وهو كرنفال ومهرجان تقليدي وطني يحتفل به الصينيون بسقوط الثلوج.

ويقام في مدينة هاربين التي تقع في مقاطعة هيلونغ جيانغ في شمال الصين، حيث تراوح درجات الحرارة في المنطقة ما بين 25-13 درجة مئوية تحت الصفر، ولهذا السبب سميت المدينة بـ "مدينة الثلج"، حيث يشارك بالمهرجان أكثر من ثمانين متسابقًا من مختلف أنحاء العالم لتقديم أجمل اللوحات الفنية من خلال المنحوتات الثلجية ذات التصاميم الضخمة الرائعة التي تعبر عن عادات كل متسابق من المتسابقين.

ويتم ترتيب المنحوتات طبقًا لتصنيف كل عمل فني، فهناك الأعمال الفنية الصينية الكلاسيكية والبعض الآخر بصور المباني الشهيرة في أوروبا، وتتميز تلك المنحوتات بالدقة البالغة الأمر الذي يبهر زوار ذلك المهرجان الذي يتم افتتاحه في الخامس من يناير من

كل عام ولمدة شهر كامل. ويعد هذا المهرجان الأفضل في العالم في مجال النحت على الجليد. ويمكن الوصول إلى المهرجان عن طريق القطار أو الحافلة من مدينة بكين أو عن طريق الطائرة مباشرة إلى المدينة.

وفي المهرجان يتم تنظيم جلسات خاصة للسائحين والمتسابقين، ويتهافت الجميع لالتقاط أجمل الصور لهذه المنحوتات الجميلة لتبقى ذكرى راسخة في قلوب جميع من حضرها ومن شاهدها.

ويستخدم النحّاتون المعاول، وأشعة الليزر خلال أسبوعين من التحضيرات ، إذ تتمثل النتيجة بمعرض القصور والقلاع الضخمة التي تتضمن مبنى المدرج الروماني العملاق (الكولوسيوم) وناطحة سحاب (إمباير ستيت) في مدينة نيويورك الأمريكية، وكلها مصنوعة من كتل الجليد في نهر (سونغهوا) المجمد.

واحتفالاً بالذكرى السنوية :فإنّ مهرجان الشتاء يصبح أكثر إثارة للإعجاب ،وأكثر إسرافًا في كل عام.

وقد نسخ الفنانون خلال عدة أسابيع عددًا من المباني والتماثيل الشهيرة حول العالم، وكذلك قلاع وقصور ومعابد من جليد تضاء ليلاً فتظهر كمدينة من الخيال، ووفقًا للمنظمين ، فإنّ الهيكل هو أطول نحت جليدي في الصين (46 مترًا) وصنع من 12 ألف متر من الثلج.

كذلك ويمكن للزوّار ممارسة التزلج على الجليد ،ويُذكر أنّ المهرجان استقطب 28.5 مليون زائر في العامين الماضيين.

ولمكافحة درجات الحرارة ما تحت الصفر في (هاربين)، فإنّ المنظمين وضعوا 13 محطة لتقديم المشروبات الساخنة.

المواد المستخدمة في النحت

المواد الخام المستخدمة لتشييد التماثيل الجليدية متوفرة بكثرة، لأن نهر "سونغهوا" يصب في المدينة، وفي المدة ما بين نوفمبر/ تشرين ثان وأبريل/ نيسان تتجمد مياه النهر بعمق يصل إلى متر واحد.

ويعمل حوالي 10 آلاف فنان على مساحة تقارب 150 ملعب كرة قدم لإنجاز المدينة، ويمكن للأعمال الفنية المنحوتة الصمود في الهواء الطلق إلى حوالي 90 يومًا حسب الطقس.

والجدير بالذكر بأن المهرجان أقيم لأول مرة في الصين سنة 1898، واستمر إلى يومنا هذا بالاحتفال به سنويًا.















معهد العالم العربي

جسر ثقافي بين فرنسا والعرب

لم يكن تنفيذ مثل هذا المشروع في البداية سهلاً، خاصة وأنه كان محاطًا بمعارضة شديدة من بعض المعارضين لهذا المشروع سواءً من أطراف داخل الحكومة الفرنسية أو من الرأي العام. ولنذكر على سبيل المثال أنه عندما وقع اختيار الأرض المخصصة لبناء المعهد في الدائرة الخامسة عشرة، جوبه هذا الاختيار بموجة من الاحتجاجات الشعبية، مما دفع برئيس بلدية باريس آنذاك جاك شيراك إلى اختيار موقع آخر ملاصق لجامعة «جوسيو» في الحي اللاتيني، وتمرير المشروع على أنه مجرد مؤسسة أكاديمية بحتية. إذ كان كل ما يُذكرّ بالعرب والإسلام في نظر معارضي المشروع، مرتبطًا بالتخلف الاجتماعي والبؤس الحضاري.



جانب من متحف الفن الإسلامي



نسخ من المصحف من ضمن معروضات متحف معهد العالم العربي

تأسس معهد العالم العربي في باريس عام 1980م بعدما اتفقت فرنسا مع عدد من الدول العربية الأعضاء في الجامعة العربية على تأسيس مؤسسة للتعريف بالثقافة والحضارة العربيتين في فرنسا، وجعلها جسرًا بين فرنسا وأوروبا من جهة، والعالم العربي من جهة ثانية. وقد أرادت فرنسا أيضًا، من خلال هذا المعهد الخاضع للقانون الفرنسي والمسجل كمؤسسة ذات نفع عام، أن تدعم علاقاتها السياسية والدبلوماسية والاقتصادية في العالم العربي، وهي علاقات تاريخية قديمة ترجع إلى أزمنة بعيدة.

ومنذ تأسيس معهد العالم العربي يرأسه رئيس فرنسي يرشحه رئيس الجمهورية الفرنسي، أما مديره العام فهو عربي ويختاره مجلس سفراء الدول العربية المؤلف من 22 دولة.

يقع المعهد في الدائرة الخامسة في قلب العاصمة الفرنسية بالقرب من عدد من الصروح والمعالم التاريخية العريقة، كجامعة جوسيو، وجامع باريس الكبير، وثانوية هنري الرابع، وقد أشرف على بنائه مجموعة من المعماريين، ومنهم جان نوفيل الذي يتمتع اليوم بشهرة عالمية بالتعاون مع مكتب «أرشيتكتور أستوديو» للهندسة. وقد جاء جامعًا لتأثيرات ثقافية وفنية متعددة، فهو يزاوج بشكل متناسق بين التقليد والحداثة، بين «الجوانية» التي تميز الهندسة المعمارية في الوطن العربي وبين التأثيرات والانفتاحات الغربية على هذه الهندسة.

يتميز المبنى بطابعه الحديث الذي يستوحي بعض عناصر العمارة العربية الإسلامية، فواجهة البناء الشمالية تتوجه نحو باريس التاريخية وترمز إلى العلاقة مع المدينة القديمة الحاضرة في رسومات مُعبّرة، أما في واجهته الجنوبية حيث تطالعنا عناصر معمارية مستقاة من المشربيات المؤلفة من نوافذ صغيرة تنغلق وتنفتح مع تبدل حركة الضوء. افتتح المعهد عام 1987م في عهد الرئيس الراحل فرنسوا ميتران المعروف برعايته لعدد مهم من المشاريع الثقافية الكبرى التي أصبحت اليوم من معالم باريس الأساسية، ومنها «مكتبة فرنسا الوطنية»، و«متحف اللوفر الكبير»، وهرمه الزجاجي، وقوس النصر الكبير، وأوبرا الباستيل...

لعب معهد العالم العربي دورًا كبيرًا في ردم الهوة الكبيرة التي كانت تتسع يومًا بعد يوم بين الجالية العربية والإسلامية في فرنسا من جهة وبين المجتمع الفرنسي من جهة أخرى.

فعلى مدى خمسة عشر عامًا، أصبحت المعارض الكبرى التي ينظمها المعهد ذات مقاييس ثقافية عالمية تجذب إليها مئات الآلاف من الزائرين، مثلها مثل المعارض الكبرى التي ينظمها متحف اللوفر أو مركز جورج بومبيدو، أو القصر الكبير .. من مصر الفرعونية إلى مصر الفاطمية أو القبطية، أو سوريا مهد الحضارة الإنسانية، والسعودية بمدنها وتراثها الإسلامي، إلى اليمن القديم والمغرب وتونس والجزائر .. كل هذه الدول استطاعت أن تعرض كنوزها الفنية والجوانب المضيئة من تراثها على جمهور متعطش.

منذ افتتاحه حتى اليوم، أقيمت في المعهد مئات النشاطات الثقافية في مختلف المجالات، ومنها الفنون، والسينما، والإصدارات الجديدة، والندوات الفكرية التي تستضيف الشخصيات العربية والفرنسية. كما أن المعهد يضم مكتبة كبيرة تحتوي على آلاف الكتب، وتضمّ متحفًا جميلًا أعيد افتتاحه عام 2012م، وهو يعرّف بحضارة العالم العربي، مركّزًا على تنوعه الديني والإثني واللغوي منذ مرحلة ما قبل الإسلام.

في موازاة النشاطات الأسبوعية، تقام في المعهد المعارض الموسمية الكبرى التي تستقطب آلاف الزوار، ومنها المعرض الذي يتواصل حتى نهاية الشهر الجاري تحت عنوان «حدائق الشرق»، ويروي مسيرة الحدائق في العالمين العربي والإسلامي، مبيّنًا استنادها إلى أسس جمالية وهندسية وروحية مستمدة من الموروث الثقافي العربي الإسلامي عبر العصور. وبهذه المناسبة، أنشئت في باحة المعهد حديقة تجسّد هذا الطراز من الحدائق وتستمر طوال مدة إقامة المعرض. إنها حديقة عابرة ومؤقتة يتفاجأ بها الزائرون والعابرون من هناك حيث القلب التاريخي لمدينة باريس.

وقد ولّدت هذه المعارض الكبرى لدى الجاليات العربية في فرنسا شعورًا بالاعتزاز بالانتماء إلى حضارة عظيمة كانت لها إسهامات أساسية في مسيرة الحضارة الغربية التي تعيش اليوم في أحضانها. كما أنها من جهة ثانية قدّمت للجمهور الغربي عامة والفرنسي خاصة، صورة مشرقة عن الحضارة

> ”
> لعب معهد العالم العربي دورًا كبيرًا في ردم الهوة الكبيرة التي كانت تتسع يومًا بعد يوم بين الجالية العربية والإسلامية في فرنسا من جهة وبين المجتمع الفرنسي من جهة أخرى.
> فعلى مدى خمسة عشر عامًا، أصبحت المعارض الكبرى التي ينظمها المعهد ذات مقاييس ثقافية عالمية تجذب إليها مئات الآلاف من الزائرين
> “

العربية التي كانت في أساس الحضارة الغربية علميًا وفكريًا وفنيًا. ولم يقتصر نشاط المعهد على المعارض الكبرى فقط، بل ساهم في طبع مئات الكتب و(الكاتالوجات) الفنية الراقية عن العالم العربي، وساهم في ترسيخ فكرة واضحة عن الثقافة العربية في أذهان جيل كامل من الفرنسيين والأوروبيين.

ويضم المعهد متحفًا متميزًا للفن العربي الحديث ومكتبة ومركز توثيق ومعلومات وقاعات محاضرات وعرضًا ومتحفًا للسينما العربية وقسمًا للموسيقى العربية وقسمًا للفن الفوتوغرافي وقاعة للصوت والصورة ومكتبة لبيع الكتاب العربي أو المتخصص بالوطن العربي وقسمًا للنشر ومركزًا لتعليم اللغة العربية.

ويقوم المعهد بتنظيم معرض دوري للكتاب العربي ومهرجان للسينما والشعر وتنظيم نشاطات للأطفال وندوات ومؤتمرات متعددة واستقبال العروض الفنية العربية، إضافة إلى إصدار مجلات متخصصة أبرزها مجلة «قنطرة».

وليس من المبالغة في شيء القول أن هذا المعهد بهندسته المعمارية الرائدة وخدماته الثقافية الثرية والمتنوعة أصبح اليوم معلمًا بارزًا من معالم باريس الثقافية الأكثر ارتيادًا وجاذبية. وفوق هذا وذاك، أصبح معهد العالم العربي في باريس خلال هذه الأيام العصيبة معقلاً من معاقل الحوار بين الحضارات التي لا بد من الحفاظ عليها.



كيف يمكن للتقنية تغير حياتنا؟

في غضون العقد القادم ستتمكن شبكة الإنترنت من ربط أكبر قدر ممكن من الأشياء في بعضها البعض، ومن الممكن أن تصل إلى 200 مليار ربط، ولا يقتصر هذا على ربط آلات مثل السيارات أو الأجهزة المنزلية بل كل ما يمكن أن توضع فيه رقائق إلكترونية أو حساس تكنولوجي، بما في ذلك البشر.



ويطلق على هذه التكنولوجيا اسم «إنترنت الأشياء» وهو مفهوم متطور لشبكة الإنترنت بحيث تمتلك كل الأشياء في حياتنا قابلية الاتصال بالإنترنت أو ببعضها البعض لإرسال واستقبال البيانات لأداء وظائف محددة من خلال الشبكة. ويُفترض بهذه التكنولوجيا أن تجعل حياتنا أبسط بل وحتى تحسين حالتنا الصحية. ولكن هل نستطيع أن نثق بها وتقدم لنا العناية اللازمة؟

ماذا ننتظره بعد من إنترنت الأشياء؟

بدأت هذه التكنولوجيا كتقنية متنقلة ثم تطورت إلى أن أصبحت تكنولوجيا قابلة للارتداء، وهي الآن تُزرع في الجسم. فما الجديد القادم في إنترنت الأشياء التي تغير كل ما حولنا الى نظام بيئي من المعلومات، وبذلك تغير طريقة حياتنا. فمن الثلاجات والسيارات إلى ساحات وقوف السيارات والبيوت، يأتي إنترنت الأشياء بمزيد من الابتكارات، التي تنضم إلى التكنولوجيا الرقمية المستخدمة في حياتنا اليومية.

وعلى سبيل المثال إن بيوتنا ستكون عما قريب قادرة على رصد كل شيء يوميًا، من غلق الباب الأمامي وفتحه إلى طلب البقاليات آليًا حين تكون الثلاجة فارغة.

وشئنا أم أبينا فإن هذه التكنولوجيا ستدخل حياتنا وبيوتنا، وتكون هي القاعدة في ما نفعله. والسؤال هو كيف ستؤثر في عالمنا، وهل تغير طريقتنا في التفاعل مع بعضنا البعض؟

كيف ستبدو الحياة اليومية؟

إنها الساعة السادسة صباحًا من يوم عمل عادي في عام 2025. الجهاز الذي ترتديه تحسس استيقاظك فوجه رسالة إلى آلة إعداد القهوة لتبدء بتحضيرها. تؤجل القهوة وتقرر الخروج لممارسة رياضة الركض أولا. وفي هذه الأثناء تلتقط حساسات في سماعة الأذن ضربات قلب غير منتظمة. فيرسل الجهاز قراءة لتخطيط القلب إلى طبيب مختص يرى إنها مجرد ضربات قلب شاذة غير مؤذية، ويقرر الاكتفاء بذلك دون إجراء آخر.

لدى العودة إلى البيت تتناول القهوة وتضع الكوب في غسالة الصحون التي تبدأ عملها لأنها مليئة. حساس يلاحظ أن موعد صيانة غسالة الصحون قد حان، ويتفق مع مهندس على يوم المجيء لصيانتها الذي يسجله في مذكرتك، وتؤكده أنت لاحقًا. كانت غسالة الصحون حتى فترة قريبة من أكبر أسباب الحريق في البيوت، ولكنها لم تعد مصدر خطر، لأن إنترنت الأشياء تربط الأجهزة فيما بينها لتجعل العالم أكثر أمانًا.

ومن السيارة ذاتية القيادة إلى الحبوب الذكية، التي تقيس حالتنا الصحية من داخل جسمنا، أصبح الإنترنت حامي صحتنا والأمين على سلامتنا.

ليست هذه إلا البداية

قد يبدو هذا السيناريو خياليًا ولكن بذوره غُرست من اليوم، وطورت شركة إل جي LG الكورية الجنوبية سماعات أذن تقوم أيضًا بدور الجهاز الذي يراقب نبض القلب، وهناك شركات توفر تكنولوجيا قادرة على إرسال قراءات تخطيط القلب عن بُعد إلى مراكز طبية لتقييمها. وتعمل شركات أخرى على تطوير حبوب تحوي رقائق مجهرية تعرف إن تناول المريض دواءه أم لا.

وهناك في السوق حبوب ذكية تحوي كاميرات وحساسات مختلفة لقراءة مستوى الحموضة وضغط الدم ودرجة الحرارة. وتواصل شركات صناعة السيارات اختبار سيارات ذاتية القيادة على الطرق العامة وفي مساحات مسيجة. وتريد شركات مثل تيسلا وغوغل أن تكون السيارات ذاتية القيادة هي السائدة بحلول عام 2020.

وهناك ملايين الأجهزة والمعدات التي تغطيها إنترنت الأشياء، من الخوذ الواقية إلى الرقائق المجهرية اللاسلكية التي تُزرع في الجسم. كلها تهدف إلى رفع مستوى السلامة في حياتنا. يقول أوليفييه ريبت نائب رئيس شركة داسو سيستمز الفرنسية للتكنولوجيا المتطورة، إن هذه الأجهزة كانت حتى الآن تسأل المستخدم إن كان يريد أن تفعل ما تفعله، والآن نرى بصورة متزايدة أشخاصًا يقولون إننا يجب ألا نشك بقدرة الأجهزة على اتخاذ القرار نيابة عنا.

وفي هذه الحالة يجب أن نتأكد من إننا نستطيع الثقة بالأجهزة. وباستخدام منصة 3DEXPERIENCE التي طورتها شركة داسو مثلاً، فهي تسمح للمصممين أن يحاكوا كل شيء في بيئة افتراضية، من السيارة ذاتية القيادة إلى الحبوب الذكية لفهم كل السيناريوهات المحتملة وغير المسبوقة قبل إنتاج الأجهزة واستخدامها في الحياة اليومية.

تقليل الأخطار

نقطة الضعف في الأجهزة المشمولة بإنترنت الأشياء هي تدني المستوى الأمني المرتبط باستخدامها، فعلى سبيل المثال إن مدير شركة آرم الأمنية كريس فلونتر يقول: إنه ليس متأكدًا من مستوى خطر القرصنة الإلكترونية والاختراق الذي يواجه أجهزة إنترنت الأشياء.

من جهة أخرى يرى الخبير روب ريفان من شركة بيشوب فوكس للاستشارات الأمنية: إن خطر القرصنة والاختراق مضخم مشيرًا إلى خوف الأشخاص الذين لديهم منظومة منزلية من الأجهزة المرتبطة بالإنترنت من أن يستطيع مجرمون إلكترونيون دخول منازلهم وتعطيل أجهزة الإنذار وسرقة ممتلكاتهم. وقال ريفان: إن هذا ليس سيناريو واقعيًا، لأنه لا يحدث كثيرًا برغم إن العديد من المنازل تستخدم أجهزة إلكترونية متطورة لحمايتها.

ولكن هناك دائمًا مخاطرة، كما هي الحال مع كل تكنولوجيا جديدة.



كيف ستغير حياتنا شبكات الجيل الخامس 5G ؟



يعد قطاع الاتصالات العصب الحيوي لبقية القطاعات وصلة وصل "لا غنى عنها" بين الشعوب، تتضافر كافة الإمكانات، وتكثر التجارب عبر العالم في خدمة الانتقال التقني السريع، فمن خدمة 2G إلى 3G مرورًا بالجيل الرابع من أجيال الاتصالات اللاسلكية الخليوية، يستعد العالم لاستقبال خدمة الجيل الخامس التي ستشكل ثورة في عالم تكنولوجيا الاتصالات.

تتضارب المعلومات حول المدة الزمنية المحددة التي ستشهد إطلاق شبكة 5G، ففي حين تتوارد تحليلات بأن دولاً مثل كوريا الجنوبية واليابان وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية تعمل حاليًا على اتصالات فائقة السرعة، وهي تستعد لإطلاق خدمة الجيل الخامس خلال 2017-2018، تشير توقعات متناقضة إلى أن تكنولوجيا 5G لن تبصر النور قبل عام 2020.

وتشير التقارير إلى أن كوريا الجنوبية تستثمر ما يقارب 1.5 مليار دولار في إطار إجراء الأبحاث والتطوير في شبكات 5G الجيل المقبل، الذي يتوقع أن يكون حوالي 1000 مرة أسرع من الشبكات الحالية.

وبحسب الصحف الأجنبية، فإن مجموعة من 20 شركة اتصالات كبرى بما في ذلك دويتشه تيليكوم ونوكيا وفودافون وبريتيش تيليكوم، تعتزم إطلاق شبكات الجيل الخامس في كل دول الاتحاد الأوروبي بحلول عام 2020.

وتتميز هذه التكنولوجيا بسرعة أسرع من أي وقت مضى، في معرض التقديم لمستخدميها ميزة اجتماعية واقتصادية لم يسبق لها مثيل، عبر إنشاء "مجتمع hyper connected"، مع العلم أن أجهزة المحمول المتوفرة في الأسواق غير مجهزة لاستقبال هذه الخدمة.

مميزات 5G

أعلن باحثون أن اختبارات على السرعة للاتصال عبر تقنية الجيل الخامس 5G حققت سرعات قياسية، بلغت تيرابايت في الثانية، علمًا أن هذه السرعة تفوق بـ 200 مرة نظيرتها الحالية.

ووفق الاختبارات التي أجراها فريق بحثي من مركز تطوير شبكات الجيل الخامس، بجامعة سري في بريطانيا، يمكن تحميل ملف يبلغ حجمه 100 ضعف ملفات الأفلام الطويلة، في حوالي 3 ثوان، كما أن السرعة الجديدة تفوق متوسط سرعة التحميل في شبكات الجيل الرابع بحوالي 65 ألف مرة.

وتتوقع شركات الاتصالات أن تتطلب شبكات الجيل الخامس نطاقًا من الترددات المرتفعة، قد تزيد على 6 غيغاهيرتز، وأن تقدم الشبكة خدمات كثيرة من بينها عمليات التبادل التجاري.

هذا بالإضافة إلى زيادة السرعات التي تقدمها شبكات الجيل الخامس لتتراوح بين 10 و50 غيغابايت، مقارنة بمتوسط سرعة شبكات الجيل الرابع التي تصل إلى 15 ميغابايت في الثانية.

ثورة في عالم تكنولوجيا الاتصالات

مما لا شك فيه أن العالم قد شهد خلال العقود الماضية ثورة في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات دون أن ننسى الثغرات والمشكلات المتبقية، لاسيما في الدول النامية بما فيها العالم العربي.

غير أن التقدم البارز على صعيد تقنيات شبكات المعلومات وسرعتها، هو الذي دفع بالتفكير بخدمة الجيل الخامس.

> "مستخدمي الأجهزة المحمولة المتصلين بشبكة من الجيل الخامس 5G سيكون بمقدورهم تحميل فيلم كامل في غضون ثانية واحدة، وإذا أصاب الباحثون في جامعة كورنيل فإن شبكات الجيل الخامس 5G ستقدم للمستخدم تجربة سلسة ومذهلة، وستضع السرعات المذهلة للجيل الخامس حدًا للانتظار العقيم والتطبيقات البطيئة."

وهذا ما أظهره تقرير الاتحاد الدولي للاتصالات، وكالة الأمم المتحدة المتخصصة في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات (ITU)، ففي نهاية العام 2015، بلغ إجمالي عدد مستخدمي شبكة الإنترنت عبر العالم نحو 3.2 مليار، بينهم 2 مليار مستخدم من الدول المتقدمة.

ويشير التقرير إلى أنه خلال أعوام 2000-2015، نما انتشار الإنترنت 7 أضعاف من 6.5% إلى 43%.

أمّا على صعيد استخدام الأسر للإنترنت، فقد ارتفعت نسبة الأسر التي تستخدم الإنترنت في المنزل من 18% في عام 2005 إلى 46% في عام 2015.

وفي الدول الأقل نموًا، 89 مليون نسمة فقط تستخدم الإنترنت من أصل 940 مليون نسمة ممن يعيشون في الدول الأقل تقدمًا.

وبحلول نهاية عام 2015، 34% من الأسر في البلدان النامية لديها خدمة الإنترنت، مقارنة مع أكثر من 80% في الدول المتقدمة.

فعلى سبيل المثال 40.3% فقط من إجمالي الأسر في



الدول العربية يتوفر لديها خدمة الإنترنت.

في المقابل، يظهر التقرير أن نسبة السكان التي تتوفر لها خدمة الجيل الثاني للهواتف النقالة قد ارتفعت من 58% في العام 2001 إلى 95% في عام 2015.

أمّا تغطية الجيل الثالث المحمول 3G ذات النطاق العريض (3G mobile-broadband) فتوسعت توسعًا سريعًا لاسيما في المناطق الريفية.

ففي عام 2011، كانت خدمة الجيل الثالث تغطي 45% من إجمالي عدد سكان العالم (7 مليارات)، بينما ارتفعت هذه النسبة في 2015 إلى 69% من أصل 7.4 مليار إجمالي عدد السكان في نهاية العام الماضي.

ماذا يعني ذلك بالنسبة لنا كمستخدمين؟

قامت سامسونغ لتوها بتقديم سرعات مذهلة لتحميل البيانات وصلت إلى 1 غيغابايت في الثانية، وأشارت إلى أن مستخدمي الأجهزة المحمولة المتصلين بشبكة من الجيل الخامس 5G سيكون بمقدورهم تحميل فيلم كامل في غضون ثانية واحدة، وإذا أصاب الباحثون في جامعة كورنيل فإن شبكات الجيل الخامس 5G ستقدم للمستخدم تجربة سلسة ومذهلة، وستضع السرعات المذهلة للجيل الخامس حدًا للانتظار العقيم والتطبيقات البطيئة.

ولاشك بأن جميعنا قد عانى من الإحباط عند إجراء المكالمات الفيديوية، أو من الانتظار حتى تتم عملية التخزين المؤقت لدى مشاهدة الفيديوهات على الإنترنت، وهكذا يتوقع الخبراء بأن هذه السلبيات ستكون شيئًا من الماضي لدى إطلاق شبكات الجيل الخامس 5G.

متطلبات خاصة لمواكبة شبكات الجيل الخامس 5G

إن الهواتف الذكية وأجهزة الموبايل الحالية غير مزودة للاستفادة من منافع تقنية اتصالات الجيل الخامس، وقد بدأت الشركات مثل سامسونغ وLG U+ وهواوي بالفعل بإجراء بعض التجارب على تقنيات الجيل الخامس 5G الجديدة، وفي الوقت الذي لا تزال هذه التطورات في مراحلها الأولى، فإن الأجهزة المحمولة المستقبلية على الأرجح ستكون مزودة ببطاريات ذات عمر أطول.

وستتيح تقنيات الجيل الخامس 5G لمستخدمي الأجهزة المحمولة إمكانية العمل بسرعة أكبر وإنجاز مهام بفعالية أكثر، وربما ستحمل هواتف الجيل الخامس الجديدة هوائيات متعددة، ففي الوقت الحالي لا يمكنها أن تحتوي على أكثر من هوائيين اثنين، لكن ليس هنالك أي معلومات عن عدد الهوائيات التي ستتوفر في الأجهزة الجديدة التي ستدعم تقنية الجيل الخامس 5G.

سرعة شبكات الجيل الخامس

حاليًا يمكن لأقصى سرعة لتقنيات شبكات الجيل الرابع وهي LTE-A البالغة 225 ميغابت في الثانية تنزيل فيلم عالي الدقة يبلغ حجمه 800 ميغابايت في غضون 28.4 ثانية، وعند تنزيل نفس الفيلم بسرعة 50 غيغابت في الثانية، وهي السرعة القصوى لشبكات الجيل الخامس 5G، سيستغرق الأمر أقل من ثانية واحدة.

نحن نتطلع قدمًا لتعايش بإذن الله شبكات الجيل الخامس 5G التي ستحول خيالنا إلى حقائق، بما في ذلك المكالمات الفيديوية ثلاثية الأبعاد، ومكالمات هولوجرام، كما أن مفهوم إنترنت الأشياء سيكون بأبهى حلة مثل السيارات الذكية والمنازل الذكية وخدمات الرعاية الصحية الذكية والأسواق الذكية وغيرها.

التردد في شبكات الاتصال

التردد بشبكات الاتصال يعني المدة الزمنية التي تتطلب إصدار أمر إلى الشبكة والحصول على استجابة منها، وهذا سيساعد أيضًا بسرعة تصفح الإنترنت وفتح التطبيقات والفيديوهات وكتابة الرسائل.

إذ تشير حقول تجربة الجيل الخامس 5G من الإنترنت اللاسلكي إلى احتلال مرتبة بالترددات العالية، إذ يمكن أن تبلغ 73 ألف ميغاهيرتز، مقارنة مع التردد الذي تستخدمه الشركات الحالية والتي تتراوح ما بين 700 إلى 3500 ميغاهيرتز.

ولكن هنالك مشكلة أخرى هنا سيتوجب على العاملين على تصنيع الجيل الخامس حلها، فالترددات القصيرة تعني موجات أقصر، مما سيعني بأن المدى الذي يمكن أن تبلغه هذه الإشارات قد يكون قصيرًا، وقد يشكل صعوبة باختراق الجدران، وهذا قد يعني توفير الآلاف، بل حتى ملايين أبراج الاتصالات الصغيرة لربط الهواتف بالشبكة الأم.

ولكن كل هذه الافتراضات ستجد حلاً قريبًا، وبرغم أن المعايير التي ستحدد فيما لو ستسمى التكنولوجيا الجديدة بوصف "5G" لن يتم تحديدها حتى عام 2018، ويمكن أن نشهدها بشكل عادي في حياتنا عام 2019، بل بدأت شركات مثل "Yet Verizon" البدء بالعمل على تقديم هذه التكنولوجيا في وقت أسرع، لتهدف إلى تقديمها للأسواق بحلول عام 2017.



التجسس على وسائل التواصل الاجتماعي

تعجّ وسائل التواصل الاجتماعي بمعلومات خاصة بمستخدميها أصبح استغلالها تجارة حقيقية، غير أن هذه الرقابة تثير قلقًا خصوصًا عندما تتخذ وجهًا بوليسيًّا. وقالت المحلّلة في مجموعة «غارتنر» جيني ساسن: إن «ثمة خطًا فاصلاً ضيقًا بين مراقبة الأفراد وتتبع نشاطاتهم لأغراض البحث».

وحتى عندما لا يكون التجسّس الهدف الأساس، «لا شيء يمنع أحدًا من جمع معلومات مصدرها حصرًا أشخاص على قائمة معينة، وتحديد موقعهم (...) عندما يضعون منشورات على مواقع التواصل الاجتماعي من منطقة محددة».

وتلقت شركة «جيوفيديا» العاملة، كمجموعات أخرى كثيرة، في توفير خدمات تحليل عبر الاستقاء من قاعدة بيانات ضخمة لمشتركي «تويتر» و«فايسبوك» و«انستغرام»، انتقادات من الهيئة الأمريكية للدفاع عن الحقوق المدنية بتهمة مساعدة الشرطة على تتبع ناشطين خلال تحركات احتجاجية في مدن أمريكية، تعرض فيها رجال سود للقتل على يد عناصر الشرطة.

وقطعت «تويتر» و«فايسبوك» إمكان دخول الشركة إلى قاعدة بياناتهما. وفي الماضي، حظرت «تويتر» على أجهزة الاستخبارات الأمريكية استخدام برمجيات «داتامابنر» المتخصصة في تحليل التغريدات. وتطالب الهيئة الأمريكية للدفاع عن الحقوق المدنية ببذل شبكات التواصل الاجتماعي، جهودًا أكبر، خصوصًا عبر حظر تطبيقات مستخدمة من جانب قوات الأمن أو يمكن اللجوء إليها كأدوات للتجسس. وقالت صوفيا كوب المحامية المتخصصة في شؤون الحريات المدنية والتكنولوجيا في مؤسسة «إلكترونيك فرونتير فاونديشن»: إن على الشركات «معرفة زبائنها» و«ثمة أسئلة خاصة عليها طرحها» في هذا الإطار.

ويعد التعاون المحتمل بين شركات التكنولوجيا وأجهزة الاستخبارات من الموضوعات المطروحة للنقاش في شكل متكرر. ودرس القضاء الفرنسي في الماضي، حالات شركات مثل «أميسيس» و«كوسموس» إثر الاشتباه بقيام برمجياتهما بالتجسس على معارضين لنظام الزعيم الليبي معمر القذافي في ليبيا أو الرئيس السوري بشار الأسد. كذلك وجه اتهام لمجموعة «ياهو» بالتجسس على مضمون رسائل إلكترونية لمئات آلاف مستخدميها لحساب السلطات الأمريكية. لكن ثمة خاصية لحالة شبكات التواصل الاجتماعي تتعلق بالطابع العلني للبيانات المستخدمة.

ولفتت صوفيا كوب إلى أن الحكومة «لديها موظفوها الخاصون الذين يراقبون شبكات التواصل الاجتماعي. غير أن هذا الأمر يتطلب يدًا عاملة. لكن وجود شركات خاصة مثل «جيوفيديا» تسهل هذه العملية وتبسط الرقابة الحكومية، يثير القلق لدينا». ولدى شركات تحليل البيانات في كثير من الأحيان نقطة قوة تتمثل بربطها مباشرة بدفق من البيانات المزودة من الشبكات إلى مطوّري التطبيقات ووسائل الإعلام. هذا الأمر يسمح بعملية آلية مرشحة للتحسن في ظل طفرة خدمات الذكاء الاصطناعي.

غير أن استغلال البيانات يتخذ أوجهًا مختلفة. فإلى جانب الجواسيس التابعين لأجهزة الاستخبارات، هناك أيضًا شركات إعلانية راغبة في استهداف جمهور محدد أو باحثون يحاولون التوصل إلى خلاصات علمية. وفي لوس أنجليس، تمول وزارة العدل دراسة للتأكد مما إذا كانت الشرطة قادرة على منع حصول جرائم عنصرية عبر تحديد مواقع إطلاق تعليقات تنطوي على كراهية عبر مواقع التواصل الاجتماعي بهدف تحديد الأحياء الأخطر في هذا المجال. ولفتت صوفيا كوب إلى أن الرقابة الحكومية هي الأسوأ لأنها تنتهك حقوقًا دستورية للأفراد.